
أغنيات
مكتبة مصر
يوسف السباعي



مؤلفات
يوسف السباعي



■ أغنيات...

■ الشيخ زعرب





أغـــنـيــات



الإهـــداء

إلى ....

« أم كلثوم » و« عبد الوهاب »

أهدى صدى صوتيهما .. وترديد أغاريدهما .

فمن ألحانهما سطرت كتابى .

ومن أغنياتهما استوحيت أغنياتى ..

يوسف السباعى



مقدمة

ما من كائن فى هذه الحياة إلا يشجيه اللحن الجميل وتطربه الموسيقى العذبة .. ولكل إنسان لحنه ، وموسيقاه ، التى تمس من نفسه موضعا حساسا ، فلا يكاد يسمعها حتى يطير ذهنه إلى موضع معين من أيامه الخوالى ، ويبصر على ضوئها صورة من صور الماضى التى طواها الزمن ، وقد تصيبه من ذكراها فرحة أو لوعة ، وقد تشجيه وقد تبكيه .. حسب ذلك الجو الذى سمعها فيه أول مرة ، وحسب تلك الصلة التى تربطه بالشخص الذى سمعها منه . ولكن الشىء الذى لا شك فيه أنه مهما كان لتلك الألحان من وقع حزين أو بهيج ، ومهما كان من مرارتها أو حلاوتها فإن لها فى النفس لذة عجيبة ونشوة ممتعة .

ولست أجد كالألحان والأغانى لغة تتفاهم بها القلوب الولهى والنفوس الصبة الذائبة .. فربّ قلبين فرّق بينهما البعد وأحرقهما طول الهجر والحرمان ، طاف بهما فى وحدتيهما لحن باك أو صوت شاد.. فأطفأ منهما حرقة ، وضمد جرحا وشفى قرحا ، وقرب بينهما حتى لكأنهما التقيا على بعد الشقة ونأى المزار .

ألم يجلس أحدكم ذات ليلة وقد طبقت على نفسه أثقال من الحزن وحطت على قلبه أكوام من الأسى .. وجمدت الدموع فى مقلتيه فأمسى وكأنه جلمود شقاء ، أو يأس ؟

ألم يسر إليه لحن أو طافت به أغنية صهرت دمعه وأذابت حزنه .. وبددت جاثم يأسه ، وذرت داكن شقائه ؟

ليست الأغانى أصواتا تصدر من الحناجر وتنبس بها الشفاه ، ولا رنينا ينبعث من الأوتار والمزامير والدفوف ، لكنها نشوات القلوب واهتزازات الأرواح .. هى ذوب المشاعر المرهفة والأحاسيس الحارة المتدفقة .

إنى لأذكر نفسى بعد وفاة والدى وأنا صبى فى الرابعة عشرة وقد خيم على البيت الحزن وجثم علينا السكون المطبق الرهيب .. أذكر نفسى فى أساى وشرودى وقد أخذت أغنى بصوت خافت ــ بلا وعى ولا إرادة ــ أغنية كنت لا أفتأ أرددها فى ذلك الحين . ودهش من حولى ، وأمرونى بالكف عن الغناء .. لأن مقام الحزن لا يلائمه الغناء .

ومع ذلك لم أكف عن الغناء .. فقد كنت لا أرى هناك تناقضا بين حزنى وغنائى ، بل كنت أشعر أن غنائى قطعة من حزنى .. وأن بينهما توافقا كاملا وانسجاما تاما .

واليوم .. عندما أجلس لأكتب .. والقلب فى ركود ، والذهن قد استنفد ما به من ذكريات حب قديم .. وخلا من آثار حب جديد .. أجد من العسير علىّ أن أكتب عن العشاق وأقص أحاديث الحب .. حتى يثير مشاعرى سماع لحن جميل أو ترديد شعر رقيق ، فإذا القلب يترنح طربا ، والذهن ينفض عنه غبار الكسل ، وإذا القلم يجرى على الورق ليسطر « أغنيات » .

يوسف السباعى

ياساكن القلب

يا ساكن القلب طيفك مر فى بالى
وراح وسابنى عليل حبه بقى وبالى
وفؤادى من حر شوقه صار حطام بالى
وهو ساهى وسالى ما افتكر فيّه
ينسى عهود الهوى ويهجر ولا يبالى
المؤلف

كنت بالأمس كذّابا كبيرا .

كنت مضطرا إلى ذلك .. وكان يتحتم علىّ أن ألقى إليهم بتلك الأكذوبة الكبرى .

وإلا فأية فجيعة كانت تصيبهم لو أنى قذفتهم بسلسلة الحقائق التى كانت تتتابع فى ذهنى وقتذاك ؟

لو تركت لنفسى لما توانيت لحظة فى الإفضاء بكل ما كان يطوف بذهنى .. وفى أن أقول الحقيقة عارية سافرة .. لا لأنى أكره الكذب أو أترفع عنه .. فليس أسهل علىّ منه . وحاشاى أن أدعى المثالية فأقول إنى إنسان صادق لا يكذب ، لأنى ما وجدت سوى الكذب حلالا للمشاكل ، ومناعا للمصائب ، وما وقيت نفسى من شر المصاعب والمتاعب بأيسر من الكذب .

أقول إنى كنت أود أن أقول الحق .. لا لترفع عن الكذب ، بل لأن الحق — فى هذه المرة بالذات — كان حقا طريفا مسليا ، وكان أجدى وأنفع للمكذوب عليهم من هذه الكذبة الملفقة المنمقة .

ولكنى كنت مرغما عليه ، وكان مفروضا علىّ فرضا . وكان من الجنون أن أخلع عنى ذلك الثوب الفخم الأنيق الذى ألبستنى إياه أوهام لأبدو مخلوقا مجردا عاديا لا خوارق به ولا معجزات .

أذكر ذات مرة أن أحد زملائى فى المدرسة .. اشتغل بالتدريس .. وأصبح مدرّسا لأخى الأصغر .. وجاء أخى ذات يوم يسألنى : أحقا أن « فلان افندى » كان الأول فى المدرسة ؟ وأحقا أنه كان بطلا للكرة والملاكمة ؟.. وأنه كان .. وكان .. ولم أتمالك من الضحك ، فقد كان صاحبى هذا مثلا للكسل وبطلا فى الخيبة .. وسألته من قال له هذا فأجاب بأنه يبدو كذلك ، وأنهم سألوه فلم ينكر بل وأكد ظنونهم وطلب منهم أن يجمعوا بين الدراسة والرياضة وأن يتخذوا منه قدوة لأنه كان فى صباه كذا وكذا .. والتقيت بصاحبى وسألته ضاحكا عما دعاه إلى تلك الأكاذيب فأجابنى دهشا : « ماذا كنت ترانى قائلا لهم وهم يأبون إلا إحاطتى بهالة من الإعجاب .. إن من العسير علىّ خذلانهم ، وأسهل منه أن أجاريهم فى الخديعة وأخدع نفسى » .

ولقد وجدت نفسى فى مثل مأزق صاحبى ، وكان من العسير علىّ خذلانهم ، فجاريتهم فى الخديعة .. ولكنى لم أخدع نفسى .

أجل والله .. لقد كنت طوال الخديعة أذكر جيدا من أنا ، ومن كنت ، وكيف صرت .. كان لسانى ينطلق بالأكذوبة الضخمة .. أما ذهنى فكان يأبى التخلص من الحقائق الواقعة ، لأنها كانت لذيذة .

إذا كانوا هم يأبون إلا رؤيتى على هذه الصورة البهية ، فلهم ما يريدون .. أما أنا .. فلا أستطيع .

من أدرى بنفسى منى ؟

إنى ما زلت كما كنت ، نفس الصبى الذى كان يعدو فى فناء المدرسة ، ويقفز على ساق واحدة خلال الفسح ، ما أحسست فى باطنى أنى قد تغيرت ، بل إنى لأشعر دائما بنفسى « الهيافة » وقلة العقل ، « والشيطنة » ، التى تدعونى لأن

أفعل ما كنت أفعل فى صباى ، لولا أنى أتلفت حولى فأجد ظاهرى يكذب باطنى ، وأجد من حولى يحترموننى ، ويبجلوننى ، ويحيطوننى بهالة من التقدير أنكص على عقبى .. وأجاريهم فى تقديرهم ، وأدعى الرزانة والتعقل .

إى والله ، لقد كدت أعدو من بينهم لأهز شجرة التوت ، القائمة فى ركن الفناء بجوار العقلة والمتوازى والحصان .. لقد كان هزّ التوتة فيما مضى والتقاط التوت المتساقط أحب متعة إلىّ فى المدرسة ، وأبعث شيء لى على الفرار من قضاء الساعات الطويلة ، منصتا إلى سخافات الدروس والتفكير فى حل رموزها وألغازها وأحاجيها .

وكان من أشق الأمور على نفسى أن أرى التوتة بعد تلك الفترة الطويلة من الغيبة ، قائمة أمامى بجذعها الضخم ، وأوراقها العريضة المتكاثفة ، وفروعها المكللة بالتوت ، ثم أظل متباعدا عنها ، مغفلا إياها ، سائرا الهوينا فى عقل وتؤدة .

ولكن ماذا أملك سوى ذلك .. وقد التف بى ذلك الحشد الرزين المتئد ، وسار بجوارى حضرة الناظر المحترم يرينى نواحى المدرسة ويستعرض لى مبانيها وفصولها ويشير إلى مبنى المعامل بعصاه قائلا :

ـــ أظنك تلاحظ التغيير الكبير الذى طرأ عليها .. لقد أضفنا إليها جناحا بأكمله ، وبنينا طابقا ثانيا ، وفصلنا مدرج الأحياء عن بقية المدرجات .. أما معامل الكيمياء فقد نقلناها من مكانها القديم الضيق ، وأضحت تشغل الجناح الجديد بأكمله .. هيا بنا لمشاهدتها من الداخل ، لقد تغيرت كثيرا عن أيامكم ، ولا شك أنك ستسر برؤيتها .

ولم أكن أملك إلا أن أوافق على أنى سأسر برؤيتها ، وأن أعدل عن ذلك الخاطر الشيطانى الذى كان يدفعنى بأن أتركهم وأعدو لهز التوتة .. وأن أسير وعلى وجهى سيماء السعادة والاهتمام ، إلى معامل الطبيعة والكيمياء والأحياء .

وهكذا أخذنا فى المرور على المعامل ، وقد تملكنى خليط من المشاعر المختلفة

المتناقضة .. كنت أحس فى وقت واحد بالندم والضيق والخوف والشفقة والفرح .. الندم لأنى تركت التوتة دون أن أهزّها ولو مرة واحدة ، والضيق من المعامل نفسها إذ كانت تحمل لى ذكريات مريرة ، فقد كنت ذا ماض فى الطبيعة والكيمياء غير مشرف وكنت أمضى جل وقتى فى مدرجاتها ، وأنا شارد الذهن ، غارب البال ، لا أفهم شيئا من رموزها ومعادلاتها ولا ما ينتجه خلط حوامضها .

أما الشفقة فقد كانت على التلاميذ الذين احتشدوا فى المدرجات ، وجلسوا ينصتون بالإكراه إلى يد ٢ كب أ ٤ وأمثالها من الرموز . .

أما الخوف ، فكان خوفا من أن أجد نفسي فجأة قد عدت لأصلىَ سعير المدرجات والمعامل .. أما الفرح فقد كان لتأكدى فى النهاية من استحالة عودتى تلميذا ، ومن نجاتى من شر التلمذة نجاة أبدية .

ولم أنصت بالطبع إلى شىء مما كان يقوله المدرسون الذين مررنا بهم ، لأنى لم أكد أقف بجوار الناظر وأنظر إلى السبورة حتى عاودتنى عادتى القديمة فى السرحان والشرود .

وظللنا نجول حتى استقر بنا المقام أخيرا فى حجرة الناظر ، وأقبل علينا أحد الفراشين بالقهوة ، وأخذت أحتسيها مرغما ذاكرا نصيحة والدتى بألا أرفض قهوة يقدمها إلىّ مضيف حتى لا أضطره إلى أن يكلف نفسه فيحضر لى شيئا آخر .

ولسعت القهوة لسانى كعادتى فى كل مرة أحتسى فيها قهوة ، ولكننى لم أجرؤ على الشكوى فقد كان علىّ أن أبدو كبيرا محترما (كييف) قهوة .

وبدأ الناظر حديثه وهو يقول مرحبا :

هذه زيارة عزيزة ، وكرم منك كبير أن تجشم نفسك مشقة السفر لأجل حضور حفلنا المتواضع ، ولكنه فضل غير مستغرب ، ومنة غير مستبعدة ، فلا أظن الوفاء لمعهدك القديم ينقص حميد خصالك .

ولم أدر بم أجيب ، فحتى الآن لم أتوصل بعد إلى معرفة كيف يجيب الإنسان

على المديح ، ولم يكن يزعجنى شيء قدر التعرّض لكلمات مديح ، ولا كان يعيننى شيء أكثر من الرد عليها ، وأطرقت برأسي وقلت متلعثما الكلمة الوحيدة التى يمنّ علىّ الله بها فى مثل هذه الظروف :

— العفو .

وودت أن أوقف بهذه الكلمة سيل المديح المتدفق المنهمر ، ولكن الرجل استمر فى قوله :

— إن المدرسة يشرّفها أن تخرج رجلا عظيما مثلك .. ويسعدنا فى الواقع نحن المشرفين على تربية هذا الجيل أن نرى أبناءنا قدوة حسنة ملموسة ومثلا أعلى حيا كائنا .. وأن نجعلك أمامهم هدفا يسعى إليه .. ولذا فلن تستطيع أن تتصور مبلغ سعادتنا بوجودك بيننا ومشاركتنا حفلنا السنوى .

وأطرقت برأسي مخلدا إلى الصمت ، وأخيرا أجبت مخلصا :

— الواقع أنى أكثر سعادة .. فليس أحب إلى الإنسان من أن يعود إلى مرتع صباه .. إن كل شيء بالمدرسة يجدد لى ذكرى عزيزة وماض جميل .. إنى قضيت فى هذا الفناء وبين هذه الجدران أسعد أيام حياتى ، وحاشاى أن أنسى فضل هذا المعهد علىّ .

— ليس لأحد فضل عليك .. لقد كنت نابغة من يومك .. إنى أذكرك جيدا ، فلقد درست لك فى إحدى السنين عندما كنت مدرسا بالمدرسة ، وأذكر أن النبوغ كان يشع من عينيك .

من عينى أنا ؟

كله إلا هذا ...

ولكن ماذا أقول له إذا كان يذكر هذا جيدا ، وإذا كان واثقا تمام الثقة من هذا النبوغ الذى كان يشع من عينى .

ماذا أقول له ؟.. أأقول له إنه أكد لى ذات مرة أنى أغبى تلميذ رآه فى حياته ؟ ولكن لا .. لا داعى للفضائح .. لقد أمر الله بالستر .

وعدت أنصت إليه وهو يسترسل فى قوله :

ــ إنى أذكر أنك كنت أول فصلك دائما ، وكنت مثلا للجد والاجتهاد .

وعاد ذهنى يبحث فى زوايا الماضى عن مرة واحدة كنت فيها الأول .. فلم يذكر سوى مرة واحدة كنت فيها الأول .. لسبب واحد هو أنى كنت الممتحن الوحيد ، لأنى مرضت فى الامتحان الأصلى ، وامتحنت وحدى .

واستمر الرجل فى قوله :

ــ وكنت مثلا للأخلاق الطيبة ، والسلوك الحميد .

وتذكرت عندما رفت من المدرسة لسوء السلوك .. عندما هربت من المدرسة وقفزت من فوق السور للتجديف فى النيل .

وهكذا أخذ الرجل يعدد مواهبى ، والذهن الخبيث يكشف لى نقائضها .. حتى انتهى الرجل من سردها وبدأ يتحدث فى برنامج الاحتفال قائلا :

ــ سيبدأ اليوم الحفل الرياضى عقب انتهاء الدراسة مباشرة ، وستقوم الفرق الرياضية المختلفة بعمل بعض مباريات استعراضية ، وستجرى مباراة كرة قدم بين فريق المدرسة وبين الخريجين .. فإذا رغبت فى الاشتراك فيها ..

ــ لا .. لا داعى .. تكفينى المشاهدة .

ــ كما تشاء .

ــ وما بعد ذلك ؟

ــ تقوم الفرق الرياضية بعمل استعراض عام .. ثم يبدأ بعد ذلك فى توزيع الجوائز ، وأظنك لن تبخل علينا بشرف توزيعها .

ــ ليس أحب إلىّ من ذلك .. إن هذا شرف عظيم لى .

ــ وبعد توزيع الجوائز سيتناول المدعوون من أولياء الأمور والخريجين الشاى مع الطلبة ، وفى خلال الشاى تلقى بضع كلمات مناسبة ثم تبدأ بعد ذلك الحفلة التمثيلية وسيقوم الطلبة فيها بتمثيل مسرحية لويس الحادى عشر .

ــ مسرحية بديعة .. أذكر أننا قد قمنا بتمثيلها بضع مرات فى أيامنا .

— أظن ذلك ، وفى خلال الاستراحة سيلقى الطلبة نشيد المدرسة .. لعلك تذكره أيضا .

نشيد المدرسة ! أما زالوا ينشدونه ؟

— أجل إنه نشيدك أنت .. النشيد الذى نظمته وأنت تلميذ .. إن المدرسة تعتز به وستظل تنشده إلى الأبد .

يا مصر يا أمتــــــــــى   يا طـــيب أرض الوطـــن
يا مصر نحن الحمــــــــى   من عاديـــــات الزمـــــن
نقــــدم ولا ننثــــــى   ولــــــــو نذوق المحن
لا نخاف الموت أو نجبن وإن   قلب الدهر لنا ظهر المجن
نقهر الدهر ونسخر بالزمن   وأمام النيل نجثو سجّـدا

أليس ذلك هو مطلعه ؟

— أجل .. أجل .. إنك ما زلت تذكر .

— كانت جرأة مني فى ذلك أن أقدم على قرض الشعر، وأنا ما كنت بشاعر قط ..

— لقد كنت نابغة .. كنت رساما وخطاطا وشاعرا وزجالاً وقصاصا ولاعب هوكي وكرة ، وكنت بعد ذلك تلميذا ناجحا .. أليس ذلك نبوغا ؟

— لم يكن نبوغا بالفطرة .. لقد كان نبوغا مفتعلا .. أو مجلوبا بالإرادة .. لقد أردت أن أكون نابغة لسبب .

— سبب ؟. أى سبب ؟!

وأطرقت برأسي برهة ثم ضحكت ضحكة قصيرة وأجبت :

— سبب خاص .. لا أظن الوقت يسمح بسرده .

— ولا نابغة .. ولا حاجة.إنها مسألة حظ .. لقد حق عليّ المثل : قيراط بخت ولا فدان شطارة .

ودق الجرس مؤذنا بانتهاء الحصة الأخيرة .. فنهضت واقفا وقلت له :

ـــ هيا بنا .

ـــ انتظر لحظة .. لى عندك رجاء أخير .

ـــ خيرا .. ما هو ؟

ـــ أريد منك أن تلقى كلمة خلال الشاى .

ـــ كلمة ؟. أى كلمة ؟

ـــ كلمة نصح للطلبة .

ـــ أرجوك أن تعفينى .. إنى لا أجيد .. لا الكلام ، ولا النصح .

ـــ لا .. لا .. لا بد أن تقول كلمة .

ـــ إنى لا أعرف شيئا عن الوعظ والإرشاد .

ـــ ليس وعظا .. إن كل ما أبغيه منك أن تسرد على الطلبة سر نجاحك .. أريد منك أن تنبئهم أن النجاح لا يكون إلا بالمثابرة والجد والاجتهاد وطيب الخلق وحسن السلوك .. إنهم يحبونك ويرون فيك مثلهم الأعلى ، ولذا فيجب عليك أن تدلهم على الطريق إلى مثلهم الأعلى ، وترشدهم إلى المسلك السوى المستقيم .. إنهم جيل قد دب فيه الفساد .. جيل مائع مدلل مخنث لا يجيدون سوى المظاهرات والإضرابات والعدو وراء البنات فى الطرقات.لا يعرفون غير الفوضى ومشاكسة النساء .

ـــ ولكن ..

ـــ لا ، ولكن .. إن هذا أقل واجب عليك نحو معهدك القديم . وبدا لى من حديث الرجل ، أنه لا مفر لى من هذا المأزق . وأنه لا بد لى من الوقوف خطيبا واعظا بين التلاميذ .

ولكن أى طريق هذا الذى يرغب الرجل فى أن أدل الطلبة عليه وأرشدهم إليه ؟ الجد والمثابرة والاجتهاد وطيب الخلق ؟ ولكن أهذا هو الطريق الذى أوصلنى إلى ما يسميه عبقريا ونابغة ؟

لا أظن .. إن مثل الجد والمثابرة والاجتهاد وطيب الخلق .. ما زال يرزح

تحت ملفات أرشيف وزارة المالية . ولم يفد كثيرا من جده ومثابرته وطيب خلقه .

أأقول لهم حقا عن الطريق الذى أوصلنى ؟

ولكن لا .. لا .. إنى لو صدقت القول ، وسردت الحقيقة .. لفجعت الناس والرجل فىّ .. بل ليس بمستبعد أن يسقط الرجل صريعا وسط الحفل .

ليس أمامى غير الكذب .

يجب علىّ أن أحضر ورقة وقلما وأجلس لكتابة قطعة محترمة من النفاق .. يجب أن أحدثهم عن الجد والمثابرة وسهر الليالى فى طلب المعالى .. يجب أن أشرح لهم قول الشاعر : (إذا نام غر فى دجى الليل فاسهر) .

وجلست لأكتب ، ولا أكذبنكم القول .. إن المهمة لم تكن سهلة .. حقيقة أنه ليس أسهل علىّ من الكتابة ، ولكن أى نوع من الكتابة ؟

الكتابة المخلصة الصادقة .. لا .. لا الكتابة المصطنعة المفتعلة .. إنى قد أكتب قصة من أربعمائة صفحة بمنتهى السهولة .. فى الوقت الذى أعجز فيه عن كتابة خطاب من والدتى إلى أحد أقربائنا .. أقرئه فيه التحية والسلام ..

ولكن لم يكن من الكتابة بد ، فكتبت :

« إخوانى وسادتى :

أشكر الظروف الطيبة التى هيأت لى فرصة قضاء يوم بينكم فى معهدنا العزيز ، وأشكر ناظرنا الجليل الذى أتاح لى فرصة التحدث إليكم » .

ولكن ما ذنبكم أنتم أثقل عليكم بهذا الخطاب الثقيل الممل المحشو بالكذب ، المليء بالنفاق . إنكم لا شك تعرفونه فلا بد قد ألقى عليكم مثله فى ظروف ما ، إن كل خطب الوعظ والتأبين والتكريم .. ذات أقوال معروفة لا تكاد تخرج عنها إلا فى الحواشى التافهة ، ولا تكاد تختلف إلا فى مداها من النفاق حسب ضآلة أو فخامة المناسبة التى تقال فيها .

وانتهيت من إعداد الخطبة .. أو الكلمة كما سماها حضرة الناظر ، وخرجنا معا

لمتابعة برنامج الاحتفال .. أتريدون أن أصف لكم المباريات الرياضية ؟ لا أظن .. دعونا ننتقل من ملعب إلى ملعب ، ودعونا ننتهى من مشاهدة المباريات ومن تفريق الجوائز ، ثم نستقر على موائد الشاى .

ونهضت لافتتاح الخطب بإلقاء كلمتى فقرأتها من الورق ، وأخذت نصيبى من التصفيق ، وجلست حامدًا الله .

وتواترت الخطب بعد ذلك ، وأنا قد رزئت بذهن بينه وبين الخطب عداء مستحكم ، فهو يرفض رفضا باتا أن يتبع منها كلمة واحدة ، ويأبى إلا الشرود والسرحان .

وسرحت فى ذكريات قديمة ، ووجدتنى أقارن بين ما قلت وما كان يجب أن أقول ، وأخذت أستعرض طريق النبوغ من أوله .. الطريق الذى ادعيت كذبا أنه الجد والكد والصبر والمثابرة .

ولكن . أحقا أننى قد ادعيت كذبا ؟ وأننى ما كنت قط مجدا ، مكدا ، صبورا ، مثابرا ؟ لنتبع الطريق من أوله ولنر .. فقد أكون حقا مخلوقا جد وكد وثابر وصابر .

قد أكون ، وقد لا أكون . ولكن الذى أستطيع أن أجزم به أننى لو سردت الواقع .. لأحدثت به ضجة ، ولفجعت الناظر المحترم . واتهمت منه بالجنون ، والحمق .

لندع الخطباء مغرقين فى خطبهم ، ولندع الأكف منهمكة فى التصفيق ، ولنتبع الذهن الشارد فى ربوع الماضى الجائل فى رباه .

إنى لأرى نفسى — المتهم بالنبوغ والعبقرية — خلوا من كل ما يبشر بعبقرية .. أو يدل على نبوغ ، بل إنى لأرانى محروما حتى من الذكاء العادى ، ومن أى صفة تنبئ بخير .

بالبنطلون القصير ، والطربوش الطويل مكبوس على أذنى ملاصق لحاجبى .. لا يكاد الجرس يؤذن بانتهاء الحصة حتى أنطلق والرفاق إلى فناء

المدرسة فنحدد بالطباشير قطعة أرض ثم نعدو على ساق واحدة يمسك بعضنا بعضا فى لعبة (أتانسيو) ، وأنت ترانا فى عدونا إلى الفناء ملهوفين مسرعين حتى لكأننا نخشى أن تفلت منا بضع ثوان بغير عدو ولا لعب .

وفى الفسحة الكبرى .. فسحة الغداء .. ننطلق فى الفناء دافعين بأقدامنا زلطة منتقاة مستديرة .. مستعيضين بها عن الكرة ، ونظل نضربها بأقدامنا حتى تبلى أحذيتنا وتتآكل .

وهكذا كنت فى العدو مثالاً للمثابرة والجد .. أما فى الحصة فقد كنت .. كعادتى حتى الآن .. شارد الذهن غائبه ، وكان أكثر ما يستحوذ على انتباهى .. بيت يعمل فيه البناؤون ويبدو على بعد خلال الشباك المواجه .. كنت أجلس فى مقعدى لا هم لى إلا مراقبة سير عملية التشييد والبناء .. حتى لكأنى مكلف من أصحاب البيت بهذه المهمة .. بل إنى لواثق أن أصحابه أنفسهم أو المقاول القائم على بنيانه .. ما كانوا يتبعونه بمثل ما أتبعه من مثابرة واهتمام .

فلما تم البيت أحسست بخيبة أمل كبرى ، وبدأت أبحث عن تسلية أشغل بها نفسى عن الاستماع إلى الدروس .. ولم تكن التسلية بمستعصية .. إذ لم يكن أسهل علىّ من أن أغرى جارى بأن يشاركنى لعبة السنون (وهى محاولة قلب سن الريشة بسن آخر) فإذا ملّ جارى اللعبة .. لجأت إلى إحدى الروايات التى كنت أقبل عليها وقتذاك بنهم فوضعتها على حجرى أسفل الدرج وانهمكت فى قراءتها .. فإذا استعصت الرواية لم أجد أمامى سوى التشاغل برسم المدرس فى الكشكول .

كنت أكره الدروس ولم أجد هناك دافعا يدفعنى إلى أن أشقى نفسى بالالتفات أو الاستذكار ، ورغم ذلك فقد بدأت تنشأ لى سمعة بين المدرسين والتلاميذ بأننى نبيه . ولكننى كسول ومهمل .. أما الكسل والإهمال .. فشىء كنت واثقا منه .. أما النباهة .. فقد كنت أول منكر لها لأنى كنت واثقا أنى محروم منها تماما . وكانت والدتى أدرى الناس بذلك فقد كنت دائما أذيقها

فصولا تدل على منتهى الغباء .. بل إن كرهى لعلوم الرياضة من هندسة وجبر وحساب وعجزى عن حل مسائلها .. كان فى نظرى أكبر دليل على خلوى من الذكاء والنباهة .

وهكذا أدهشنى أن أتهم بالنباهة ، ولكنى لم ألبث أن أدرك أن مبعث هذه التهمة كان مدرسا العربى والرسم ، إذ كان كلاهما يعتقد أن لدىّ موهبة ، ولكنها تحتاج إلى إنماء وصقل ، وتحتاج إلى جهد منى ومثابرة حتى تظهر وتبرز ، ولكنهما كانا موقنين أنها لن تظهر ولن تبرز ، وأننى سأظل خاملا مغمورا .. لأنى مثل لإنسان مكسال متراخ .

ولم أكن أنا أعرف شيئا عما يسمونه موهبة .. كل ما فى الأمر أنى كنت أحب كتابة بعض موضوعات الإنشاء التى تقع من نفسى موقعا طيبا ، وكنت أقبل على بعض الرسوم التى يلذ لى رسمها ، وكان المدرسان : مدرس العربية ومدرس الرسم يطربان لما كنت أكتب وأرسم ويمنحانى أقصى الدرجات ، ولكنى لا كاد أنال رضاءهما حتى أخذلهما خذلا شديدا فى كتابة أو رسم موضوعات لا أجد من نفسى لهفة عليها .

كانا يطلبان منى أن أركز جهدى ، وأن أحاول الصبر وتفهم المبادئ والأصول ، ولكنى كنت أكره التركيز وأكره كل ما فيه مبادئ وأصول وبحث ودراسة .

وحاول مدرس العربية أن يشركنى فى جمعية الأدب بالمدرسة وفى تحرير المجلة ، وحاول جهده أن يشجعنى ويدفعنى إلى الأمام . ولكنى خيبت أمله خيبة شديدة .

وكذلك مدرس الرسم ، حاول عبثا أن يدخلنى فى جمعية الرسم ولكنى أثبت له أنى مخلوق لا فائدة ترجى منه ، ولا نفع يؤمل فيه .

والواقع أنى لم أكن أدرى ، علام يجهد الإنسان نفسه ولم يفعل ما يضايقه ويتعبه ، وأى شىء يجبرنا على هذه المشقة التى يسمونها التركيز والجد والاجتهاد والمثابرة !

ألا يكفى التلميذ مجرد النجاح حتى ينتقل من سنة إلى أخرى ، وحتى لا يرسب فيتهم بالتقصير !

هكذا كنت أفعل .. كنت أقوم بالجهد الذى يجعلنى أكاد أنجح ، وكان هذا الجهد لا يحتاج إلا إلى مذاكرة بضعة أسابيع قبل أى امتحان .

أما هذا الذى يرجوه مدرس العربية ومدرس الرسم من تنمية موهبة ، ونبوغ وعبقرية .. فكنت لا أفهم له معنى .. كنت أعتبره سخافة مدرسين .

كان مدرس العربية يقول لى : أيها الكسول .. يجب أن تكتب كثيرا ، إن مثلك يمكن أن يكون كاتبا يشار إليه بالبنان ، ولكن هذا الخمول والتراخى لن يجعل منك أكثر من كاتب حسابات .

ومن قال لهذا العجوز أننى أود أن يشار إلىّ بالبنان ؟ بل ما فائدة أن يشار إلى الإنسان بالبنان ؟.. ليس هناك فى الحياة ما يستحق الجهد .. إن كل ما حولى أشبه بالفلاة القفراء لا يبدو منها للإنسان هدف يسعى إليه .

كنت فى الرابعة عشرة وقتذاك .. وكنت أحس من حولى فراغا شديدا لا أدرك مبعثه .

هذا الفراغ الخالى من الهدف الذى أحاط بى ، وأنا مخلوق مرهف الحس ، هو السبب فى ذلك الخمول والتراخى الذى كان مدرسا العربى والرسم أكثر من يعرفهما .

وكنت فى بعض الأحيان عندما أخلو إلى نفسى أسائلها كيف يصير العظماء عظماء ، والنوابغ نوابغ .. لا بد أن يكون هناك دافع يدفعهم .. لا يمكن أن يكدّ بلا سبب ولا مناسبة .. لا يمكن أن يعدو المرء بلا هدف يقصد إليه .

وهكذا ظللت أعلل خمولى وبلادتى بالحاجة إلى الهدف .. دون أن أحاول أن أصرح لنفسى أى نوع من أنواع الهدف ذلك الذى أفتقده .

ومع ذلك فقد كنت أعرف أنه هدف يبغيه القلب .. وأن الإنسان يجب عليه قبل أن يكون نابغة ، أن يحب .

أجل ! لا شيء يدفع الإنسان إلى الكد ، والمثابرة ، والاجتهاد ، سوى الحب .

وبهذا التفكير ، وفى وسط هذا الفراغ من الخمول والبلادة ، لاح لى الهدف .

لاح الهدف .. فمحى منى الخمول والبلادة .. وملأنى بالجد والمثابرة ، ولكنه نوع من الجد والمثابرة لا يمكن أن يؤدى لنبوغ ولا نجاح ، بل إنه كان جدا فى طريق ، حرمنى حتى من ذلك النجاح التافه الذى كنت أحصل عليه فى آخر كل عام والذى كان ينقلنى إلى السنة التالية .

كان الهدف ، أو بلهجة أوضح ، كانت الحبيبة ، جارة جديدة لنا .

ويبدو لى أن من الخير قبل أن أشرع فى سرد تفاصيل الواقعة .. أن أعطى لكم وصفا مجملا للمدرسة والدار والمنطقة المحيطة .

كانت المدرسة هى إحدى المدارس الثانوية الكائنة فى إحدى المديريات ، وكانت تقع فى طرف ناء من أطراف البندر مشرف على المزارع المترامية ، وعلى مسافة غير بعيدة كانت تقوم بضع دور متناثرة فى الخلاء بينها داران متجاوران كانت دارنا إحداهما .

والوحدة فى هذه المنطقة تجبر أهل هذه الدور على الاختلاط والتزاور ، وهكذا كنا وأصحاب الدار المجاورة فى صحبة وثيقة ، حتى انتقل صاحبها إلى بلدة أخرى ، ونزل بها ساكن جديد .

ومضت بضعة أيام قبل أن تذهب والدتى لزيارة عائلة الساكن الجديد ، فلما ذهبت لزيارتها عادت من الزيارة تمدح طيب أصلها وكرم محتدها ، وتنبئنا أن رب العائلة هو مدرس التاريخ الجديد فى مدرستنا ، وأنه يقطن هو وزوجته وأمها ، وأخذت تتغنى بجمال زوجته وظرفها ولطفها ورقتها ، وقالت إن أمها سيدة تركية عجوز ، شديدة الطيبة ، كريمة المنبت .. ولم يكن يهمنى كثيرا وصف السيدتين بل كان الرجل نفسه موضع اهتمامى .. كنت أريد أن أعرف :

هل هو إنسان طيب ، أم إنه ثقيل ملحاح ؟ وهل من عادته أن يسأل فى أول كل حصة ، أو هل يفاجئ الطلبة بالأسئلة خلال الشرح ؟

هذا هو ما كان يهمنى من جارنا الجديد ، ولكن والدتى بالطبع لم تستطع أن تعطينى عنها إجابة شافية ، ومع ذلك فقد استطعت أنا أن أعرف الإجابة على هذه الأسئلة .. عندما دخل علينا المدرس الجديد لأول مرة .

كان مخلوقا رقيقا مهذبا .. ولم يحاول أن يقوم بتلك الألاعيب التى كان يقوم بها سلفه ، من مفاجأتنا بالسؤال فى خلال الشرح ليعرف ما إذا كنا منصتين أم غافلين .

كان رجلا طيبا يلقى الدرس فى هدوء ، ثم يسأل عما إذا كان أحد منا يريد الاستفهام عن شىء لم يفهمه ، ثم يغادر الفصل بسلام .

وهكذا كان صاحبنا مدرسا نموذجيا فى نظرى ، يهيئ لى الفرصة الطيبة للشرود والسرحان ، دون أن يرغمنى على الاستماع أو يقطع علىّ حبل تفكيرى ، ودون أن أتوجس منه خيفة ، أو أتوقع شرا .

هذا عن المدرس .. أما عن عائلته فما كنت أظنها تعنينى فى شىء حتى أرسلتنى والدتى ذات يوم لأستعير منهم إبرة ماكينة لأن إبرتنا قد كسرت .

ودلفت من باب الحديقة ، وعبرت الممر إلى الباب الداخلى ثم طرقت الباب .

وفتحت لى .. امرأة جميلة .

وارتكبت أمامها برهة .. ثم قلت متلعثما .. من أنا .. وماذا أريد .

ابتسمت السيدة ابتسامة رقيقة ، وأفسحت لى الطريق للدخول .. وهى تسألنى عن حالنا ، وعن حال والدتى ، وأجلستنى مرحبة على أحد المقاعد ، وقبل أن تحضر لى الإبرة المطلوبة أحضرت لى طبقا من الكمثرى .. وألحت علىّ فى تناول إحداها .

وكنت طيلة مدة جلوسى شديد الارتباك ، متلعثم اللسان ، لا أكاد أخرج بالرد عن لا ونعم .

وأخيرا أخذت الإبرة وانطلقت إلى دارنا .

عدت إلى الدار وفى رأسى صورة مضطربة مشوشة عنها . فإننى من فرط ارتباكى لم أجسر على أن أرفع إليها بصرى فى نظرة طويلة مدققة بل كنت أسترق منها نظرات خاطفة أشبه برشف الحساء الساخن ، أو حسو الطائر الفزع .

كيف كانت سالبة اللب .. وسارقة النهى ؟

كيف كانت ؟

لا أظن وصفها بالشىء الهيِّن .. فإنى حين أجلس الآن بعد هذه السنوات الطويلة .. وقد وخط الشيب فودى ، وخطت التجارب رسومها تجاعيد حول عينى ، وأحاول استرجاعها إلى ذاكرتى .. لأستعين بالذاكرة على وصفها أجد من المستحيل علىّ أن أصورها بتلك الصورة التى كنت أراها بها فعلا وأنا صبى فى الرابعة عشرة ...

بل إنى لأرى المسألة برمتها ، مسألة صعبة التصور .. ولولا أنى تعوّدت ألا أسخر من فعل أيا كان .. لكنت أول الساخرين من فعلى وقتذاك .

كيف لا .. وهى مهما قلت من شكلها وسحرها وفتنتها ، لا يمكن أن تقل فى سنها بحال من الأحوال عن والدتى .

لقد كنت وقتذاك فى الرابعة عشرة ، فى السنة الثالثة الثانوية ، ما زلت أرتدى البنطلون القصير ، وكانت هى ما بين الثلاثين والخامسة والثلاثين .. وكانت زوجة مدرسى .. وصديقة والدتى ، ولم يكن هناك أى مبرر أو معنى لحبها .. ومع ذلك فقد أحببتها .

مسألة عجيبة !! وغير معقولة ؟

ولكن لا .. إن من الخطأ أن أقول أحببتها .. فقط .

إن المسألة تحتاج إلى كثير من الشرح والتفصيل ، لكى يذهب عنها على الأقل بعض العجب الذى بها .

إنها حقا كانت فى مثل سن والدتى .. ولكن شتان بين مظهرها ومظهر والدتى .

شتان بين جسد سمين مترهلٍ أنهكه حمل وولادة وتربية ثلاثة أولاد .. وبين جسد ، أهيف ، ملفوف ، ممشوق ، متناسق ، لم يتلفه حمل ، ولا ولادة ، ولا رضاع .

والسيدة نفسها ، سواء نظرت إليها بعيني الخبيرة المجرّبة أو بعين الصبى المغمضة الوالهة .. فإنى أراها باهرة الجمال ، وضاءة المحيا ، حلوة البسمات ، تتسم بالطابع التركى ، المشرق الوجه ، الفاحم الشعر .

إذاً فقد كان بها من جمال الخلق ما يجعل حبها من أى كائن كان .. أمرا معقولا .. ولقد كانت فوق هذا مخلوقة رقيقة .. طيبة .. ودودة .. يقطر حديثها حلاوة .. ويفيض رقة .

لم تكن بها تلك الشراسة والصرامة فى الخلق التى تبدو من كل سيداتنا فى دورهن ، نحو الخدم ونحو أهل الدار ، ما سمعتها قد تنهر إنسانا ، وما رأيتها غاضبة أو ثائرة ، ولا أظن هناك وصفا أصدق من وصف والدتى الذى كانت تنعتها به دائما وهو « أميرة .. زى السُّكَّرة » .

وهكذا كانت .. سكَّرة .. شكلا .. وموضوعا .. ظاهرا وباطنا .

لهذا أحببتها .. حب أبرار أطهار .. بلا غرض ولا مطلب ، ولا حتى مجرد تفكير فى عاقبة أو نتيجة .

لقد أحببتها كما يحب الإنسان وهو فى القرن العشرين أحد أبطال تاريخ ما قبل الميلاد ، أو كما يحب طالب فى مشتهر الزراعية أنجريد برجمان فى هوليوود .

لقد كنت أعيش فى فراغ طويل عريض ، مقفر خال ، أفيكون عجيبا .. إذا أنا شغلته بأجمل من مرَّ بى وأطيبهن ، وأكرمهن ؟

إن المسألة لا تحتمل لا منطقا ولا تفكيرا .. فهى كلها أوهام فى أوهام ، وشغل الفراغ بكائنة أيا كانت لن يحاسبنى عليه إنسان .

إن الفراغ ملكى .. وتفكيرى فيها ملكى .. وحبى لها ملكى .. وكل شىء ما دام لا يتجاوز حدود ملكيتى مستطاع ، فما الذى يمنعنى من ذلك الحب ؟

ثم .. متى كان الحب .. فى أول العمر ، أو فى صباه أو فى آخره .. منطقيا معقولا ؟

لقد أحببتها .. وليكن ما يكون .

ولست أزعم بالطبع أنى أحببتها من أول نظرة .. بل إن حبها أخذ يتسلل إلى نفسى مع الزمن ومع استمرار الرؤيا ، ودوام الاختلاط .

تلك كانت مبررات الحب ودوافعه .

كيف كانت مظاهره ؟

لقد كان حبا عجيبا .. فاقدا لكل مظاهر الحب وآماله . إذ كان من الجنون أن أفكر فى أن أطلع أحدا عليه .. أو أدع أحدا يستبينه .. حتى هى نفسها .. فقد كنت مدركا مدى شذوذه ، وكنت واثقا من أننى يجب ألا آمل منه شيئا .

وماذا يمكن أن آمل ؟. إنها زوجة ، سعيدة .. هانئة ، وحتى لو لم تكن لا سعيدة ولا زوجة .. فما أظن الخبل قد بلغ بها حدا إلى أن تفكر فى صبى مثلى فى الرابعة عشرة من عمره .

وأنا نفسى كنت بعيد التفكير عن مسألة الزواج ، ولم أكن أعتبره غاية حتمية لكل حب .. بل كنت أتوهم الحب شيئا سماويا أو علاقة أثيرية يمكن أن تربط اثنين إلى الأبد ، حتى ولو لم تحدث بين جسديهما أية صلة أو رابطة .

هل كنت أرجو أن يحدث بيننا مناجاة وهوى متبادل ؟ لا أظن .. لقد كان حبى لها مشوبا باحترام يجعلنى أستنكر من نفسى مجرد التفكير فى أن أهبط بها إلى مستوى العشاق العاديين الذين يتبادلون العناق والقبل .

ماذا كانت إذاً مظاهر حبى وأعراضه ؟.. هل ظلت مخفية فى صدرى ، طاوية فى حناياى ؟

لا .. فما أظن هذا إلا كان قاتلى .

لقد خرجت حبى فى شكل خدمات أقوم لها بها ، وهيأت لى الظروف بسهولة تلك الخدمات .. فأقبلت أؤديها بلهفة وإخلاص .

كان أكثر ما يسعدنى أن أفعل لها شيئا ، وكان لديها الكثير مما تطلبه منى .. لست أدرى ألأنها كانت تريده فعلا أم لأنها كانت تود أن تسعدنى .. أم لأنه كان يسرها رؤيتى ؟

على أية حال .. الأمر الذى لا شك فيه هو أنى أضحيت أقرب المقربين إليها ، وأنى بت عزيزا عليها .

حاشاى أن أزعم أنها بادلتنى حبا بحب .. فقد كانت سيدة كاملة عاقلة ، ولكن ذلك لا يمنع من أن تكون أحبتى بطريقتها الخاصة ، ووضعتنى بالنسبة لها موضع حبيب خاص كانت تفتقده .. فقد كانت محرومة من الأبناء ، وكنت بطاعتى لها ، وبتلبيتى رغباتها جديرا بأن أتخذ منها مكان الابن غير الكائن .

هذا هو ما أستطيع رؤيته الآن ، وإن كنت وقتذاك لم أحاول بحثه بل انغمرت سعيدا فى ذلك الحب الذى كانت تغدقه علىّ .

وكانت حديقة دارها هى المجال المتسع الذى جعلت أصول فيه وأجول بخدماتى ، والذى ضيّع علىّ عاما بأكمله وكان السبب فى رسوبى فى الامتحان .

كانت هى التى تتولى أمر الحديقة ، وقد سمعتها ذات مرة تشكو من البستانى من أنه كسول لا يقوم بالشقرفة والسقى كما يجب ، وأنها قد تعبت منه ، وأن الحديقة قد تلفت .

ومنذ ذلك اليوم وقد أضحى سلاحى .. الشؤرف .. لا أتحرك لحظة إلا وهو فى جيب البنطلون ، وبعد أن كانت والدتى توقظنى فى الصباح بدل المرة عشرات ، ولا تكاد توقظنى حتى أعود إلى النوم .. أصبحت أنهض من تلقاء نفسى قبل الشروق ، فأرتدى ملابسى والأهل نيام ، وأنطلق بالشؤرف إلى حديقتها .. فأظل أعمل فيها حتى قبيل موعد دخول المدرسة فأنطلق أعدو لأصل فى آخر لحظة .

ولم يقتصر الأمر على مجرد الشقرفة والسقى .. بل تعداه إلى ابتياع البذور والشتل ، وسرقة ما تيسر من القصارى من حدائق الدور المجاورة .. ثم بدأت

أقوم بقص أسوار الدرنته والجهنمية،وكنت أجلس فى المدرسة طول اليوم شارد الذهن فيما سأفعله فى الحديقة وفيما سأحضره من الأزهار ، وأستحث الساعة .. فلا يكاد ينتهى اليوم حتى أنطلق إليها .

وهكذا لم يمر العام إلا وقد أصبحت من أجلها بستانيا ماهرا ، ومحت من رأسى كل اعتبار لى كتلميذ ، ولم يعد يلذ لى رسم ولا كتابة ، وكف مدرسى عن اتهامى بأى نوع من أنواع الذكاء أو النبوغ .

ولقيت ما لقيت من تأنيب على الرسوب ، ولكننى لم آبه له كثيرا ، وكنت واثقا أنه ما من أحد يشك فى حقيقة أمرى أو يخطر بباله أننى عاشق .

وقضيت خلال العطلة الدراسية أهنأ أيام حياتى .. فقد كنت أكاد أكون مقيما فى حديقتها ، وكان مرور الأيام قد وطد العلاقات بين أسرتينا وزاد الاختلاط بيننا حتى لا يكاد يمر يوم دون أن تكون إحدى الأسرتين فى دار الأخرى .

قلت إنى كنت واثقا من أنه ما من أحد يمكن أن يشك فى حقيقة مشاعرى .. حتى سمعت ناقوس الخطر يدق ذات يوم خلال حديث دار بينها وبين أمها .

لم أكن أقصد استراق السمع ولكنى كنت أقوم كعادتى بالشقرفة فى الحديقة عندما حضرتا لتجلسا تحت التكعيبة التى كنت أعمل بجوارها مختفيا وراء أحد أحواض الزهور .

قالت الأم :

— يجب أن تقتصدى قليلا فى مشاعرك نحو محمود وفى تقريبك له .

— أقتصد فى مشاعرى نحوه ؟ لست أفهم ما تعنين !

— إذا كنت لا تفهمين حقا .. فيجب أن تفهمى .. إن محمود ليس طفلا .. إنه صبى يافع .

— إنى لا أرى فيه أكثر من ابن .

— ولكنه قد يرى فيك أكثر من ذلك .. إنى أعرف أنك عاقلة وكبيرة ،

وأفهم جيدا إحساسك نحوه ، ولست أنصحك من أجل نفسك ، ولا لأنى أخشى عليك الزلل ، ولكنى أنصحك من أجل الصبى نفسه .. إنك لا تعرفين مشاعر الصبية فى دور المراهقة ولا تعرفين شيئا عن طريقة تفكيرهم ، ولكنى أكثر منك خبرة بهم .. لقد أنجبت من قبلك إخوتك وخبرت تفكيرهم وتصرفهم فى هذه السن ، ولهذا فإنى أخشى على الصبى من تشجيعك له .. إنى أعلم أنك حسنة القصد ، وأن حبك له لا يحمل فى طياته أكثر من حب أم ، ولكنه قد لا يفهم هو ذلك .. فيسبب تشجيعك إياه وتقريبك له ضررا كبيرا وقد يصيبه بصدمة نفسية ورد فعل عنيف .. ولذا فإنى أرى من الخير أن تصديه .

— هكذا كثير يا أماه .. لا تحملى الأوضاع أكثر من حقيقتها . إن محمودا مخلوق رقيق ، وهو ما زال صبيا صغيرا . وأنا أحبه كابنى حقا .

— ولذا أطلب إليك أن تصديه .. لقد قلت نصيحتى قبل أن تضطرى زوجك إلى أن يقولها لك .. أرجوك ألا تحرجى أحدا .. إن الإنسان لا يستطيع أن يطلق مشاعره كما يشاء .. لا بد لنا من أن نكبح جماحها من آن لآخر .. يجب أن نعمل بعقولنا لا بقلوبنا .

وتسللت من الحديقة ذلك اليوم ، وأنا أشعر بناقوس يدق داخل رأسى .

لقد تملكنى من الحديث خوف شديد .. فقد كرهت أن أثير حولها قيلا وقالا ، وأن أعرضها من أجلى لنصح حتى ولو كان من أمها .

وصممت من ذلك اليوم على ألا أذهب إلى هناك أبدا ، وأن أصد نفسى قبل أن أضطرها إلى صدى .

ومر يومان ، والثالث ، وأنا ممعن فى البعد .. دون أن أحاول أن أريها لى وجها .. وفى اليوم الرابع أحسست أنى أوشك أن أجن .

لقد كنت تماما كمدمن المخدرات الذى يمنع عنه المخدر مرة واحدة ويطلب منه أن يقلع عن تعاطيه .

أجل .. لقد وصلت إلى حال .. لو طال بى لارتميت على الأرض وصرخت

فيهم باكيا .. أريد أن أراها .. ولكن الأمر لم يكن يستدعي ذلك .. فما منعنى أحد عن رؤيتها .. وما حاول أحد أن يثير كلمة شك حولى .. على النقيض .. لقد كان انقطاعي عن الذهاب هو الذى أثار التساؤل فى الدارين .

وهكذا وجدتنى أجرّ قدمىّ متسللا إلى الحديقة .. كمهجر شفه الظمأ وأضناه السغب .. فأنتحى منها ركنا قصيا وأستغرق فى بكاء طويل .. غسلت به أحزان قلبى ونفضت به أكوام اليأس الجاثمة على نفسى .

ولم أفكر بعد ذلك فى أن أصد نفسى عنها أبدا .

وأقبلت هى علىّ فى اليوم التالى معاتبة على غيابى ، ولائمة على هجرى ، فاعتذرت بأنه كان لدىّ امتحان كنت أستذكر له .

وأنبأتنى بأنها تريد حزمة من الغاب تغطى بها سقف « عشة الدجاج » التى قامت بإصلاحها بيديها خلال اليومين اللذين غبت فيهما .. والتى كانت تعتمد علىّ فى إصلاحها .

وعندما أفكر فى قولها الآن يتملكنى دهش شديد من تلك السعادة الكبرى التى غمرتنى منه .

لقد كنت إنسانا غير طبيعى فى ذلك الوقت .. ما فى ذلك شك .. ولا جدال .. فما أظن فى قولها ذلك شيئا غير منتظر يسبب لى هذا الهناء العجيب ، ولكنى مع ذلك أستطيع أن ألتمس لنفسى بعض العذر ، لأنى إذا حاولت تحليل مشاعرى وقتذاك وجدت أن قولها وطلبها كان أكثر شيء أتلهف عليه وأتمناه .. فلشد ما كنت أخشى أن يكون حديث أمها قد أثر فيها ، وأنها نوت أن تتبع نصيحتها ، فتصدنى — على حد قول أمها — برفق !

ولقد قلت من قبل إنى كنت أدهش جدا من تلك السمعة التى اشتهرت بها بين المدرسين والطلبة .. وهى سمعة النباهة .. وقلت إنى كنت واثقا تمام الثقة من أنى مخلوق غبى أو على الأقل .. غبى فى بعض الأحيان .. واستشهدت على ذلك بشهادة والدتى وبالفصول الباردة التى كنت كثيرا ما أفعلها معها .

ولكن الفصل الذى قمت به بعد ذلك .. فاق كل فصولى السابقة .. ودلل حقا .. على أنى مخلوق لا يمكن أن يتمتع بذرّة من الذكاء .

لقد تصرفت فى حكاية الغاب ، وقد أضفت إلى غباوتى الطبيعية المتأصلة غباوة العشاق الطارئة ، وحمقهم العجيب .

إن السيدة طلبت منى حزمة غاب لتغطى بها السقيفة ، والواقع أن السقيفة لم تكن تحتاج بحال من الأحوال إلى أكثر من حزمة أى خمسين عودا .

ولكنى كنت أشعر أنى أذنبت بغيابى عنها هذين اليومين وبتركى إياها تصلح العشة وحدها وتتعب نفسها .. ولهذا صممت على أن أكفر عن ذنبى .

بأية وسيلة ؟

بأن أحضر لها غاب البلدة كله .

وكان الغاب ينتشر متكاثفا على طول امتداد الترعة المجاورة ، وفى تلك الليلة لم أذق النوم إلا لماما ، واستيقظت والفجر لم يؤذن له بعد ، وتناولت فأسا كنت قد جهزتها فى اليوم السابق ، وسرت أتلمس طريقى فى الظلمة إلى حافة الترعة .. وبدأت فى قطع الغاب بعزم كالحديد .

هذه هى المثابرة والصبر والجد .

أقطعت كثيرا ؟

لقد جردت حافة الترعة على طول امتداد البلدة مما بها من غاب .

لم أذهب إلى المدرسة فى ذلك اليوم ، وظللت أعمل فى قطع الغاب حتى انتهى النهار ، ووجدت كوم الغاب قد ارتفع أمامى أشبه بالهرم الأكبر .. ونظرت إليه بإعجاب شديد ، وتملكنى شعور بالغبطة والرضا ، وإحساس بأنى قد أديت واجبا حيويا .

واسترحت برهة .. ثم ذهبت إلى البيت لكى أرى لوالدتى وجهى ولكى أطمئنها على بقائى حيا .. ثم سرعان ما تسللت من الدار لأتمم بقية العملية ، وأنقل الغاب إلى دارها .

وبدأت عملية النقل فى صبر واحتمال وسكون .. وكان الظلام قد سقط .. وحفيف الغاب ووقع أقدامى يشتركان فى عمل لحن متكرر أشبه بألحان « الفعلة » من أهل الصعيد ، الذين يعملون فى خلط الخرسانة أو فى حفر الطرق .

وأخيرا انتهيت من نقل الغاب .. وملأت به أرجاء الحديقة وممراتها حتى لم يبق بها موطئ لقدم .. دون أن يحس أحد بما فعلت .

وعدت إلى البيت قرير العين .. راضى النفس .. وفى الصباح المبكر .. كنت أقصد إلى دارها لأرى وقع المعجزة التى صنعتها ، ولأتلقى أجرى من الشكر والمديح .

ولاحت لى الحديقة ، وقد أخذت فى الاقتراب منها ، وبدا الغاب أكواما متراصة حول الحديقة بطريقة أدهشتنى أنا نفسى .. وعجبت كيف استطعت وحدى أن أجمع كل هذه الكمية الهائلة .

ودخلت الحديقة ، وقبل أن أخطو فيها خطوة واحدة وصل إلى سمعى صوت مناقشة بين صوتين كنت أعرف صاحبيهما خير معرفة .. الأول صوتها الذى لا أخطئه من آلاف الأصوات .. والثانى صوت زوجها .. مدرسى أستاذ التاريخ .

سمعته يقول فى دهش ممزوج بضيق وغضب :

— ما هذا كله .. أتنوين التجارة فى الغاب ؟

وسمعتها تجيب فى لهجة هادئة مشوبة بالاعتذار :

— إنى ما قصدت أن يحضر كل هذه الأكوام .. كل ما طلبته من هذا الأبله حزمة صغيرة لأضعها فوق عشة الدجاج ، ولكنى لم أكن أظن أنه « حمار » إلى هذا الحد .

ووقعت كلماتها « حمار » و« أبله » فى أذنى وقع المطارق.لقد كانت المرة الأولى التى أسمعها تسب أحدا أو تزدرى إنسانا .

وتزدرى من ؟. تزدرينى أنا .

وفى أى وقت ؟ فى الوقت الذى ظننت فيه أنى صاحب معجزات .

فى الوقت الذى جئت أستجدى كلمة شكر بعد ذلك المجهود المضنى والعمل الشاق المتواصل .

ووصل إلىّ صوت زوجها يقول :

ـــ إن الخطأ خطؤك .. فما كان يجب عليك أن تكلفيه بمثل هذه المهمة .. كان من الأفضل أن تطلبى من البستانى أن يحضرها لك .. لقد كدت أوشك أن ألفت نظرك إلى هذا الأمر .. إنك تعطلين الصبى بهذه الأعمال التى يقوم بها فى الحديقة .. إن لديه دروسه واستذكاره .

ـــ إنه هو الذى يتطوع بالعمل .. وأنا لا أستطيع بالطبع طرده .

ـــ إذا فدعى أمره لى .

ولم أجسر على أن أبقى لاستماع بقية الحديث .. فقد استرقت الخطى إلى الخارج .. وعدت إلى الدار مطأطئ الرأس ، محنى الهامة أجرّ ساقى جرا .. كأنى مريض محموم أو كأنى جريح عائد من معمعة عقب هزيمة منكرة .

* * *

أنا .. حمار .. أبله ..؟

أهذا هو رأيها فىّ ؟.. ألا أفضل لديها من ذلك ؟

ولكن هل أنا أفضل .. فعلا .. مما قالته ؟

لا أظن .. إنى فعلا .. حمار .. أبله غبى .

ولقد كان هذا أكثر ما حزّ فى نفسى، وأوجع قلبى . فلا أظن هناك ألم للإنسان من أن يسمع شتائم ونقائص، موجودة فيه فعلا، ولا يستطيع أن ينكرها .

أى فضل فىّ ؟. وأى ميزة لى ؟

أى شىء يدعوها هى ، أو غيرها ، إلى الإعجاب بى ؟

وذكرت تهمة النباهة التى ألصقها بى .. فى وقت ما ، مدرسا العربية

والرسم ، وذكرت قولهما عن الموهبة الكامنة التى تحتاج إلى إنماء وصقل ، وتحتاج إلى جهد ومثابرة ، وصبر وتركيز ، وتفهم مبادئ ، ودراسة أصول .

أتراهما كانا يصدقان القول ، وكانا يعنيانه ؟

أترانى حقا مخلوقا ذا موهبة ، وأننى بالجد والمثابرة يمكننى أن أصبح إنسانا ممتازا .. أو كما يقولون : نابغة عبقريا ؟

لا أظن .. فأنا نفسى لا أشعر أن بى شيئا غير عادى .

ولكن يجب أن يكون لدىّ موهبة .. لقد بت فى أشد الحاجة .. بعد هذه التهمة منها بالبلادة والغباء .. إلى أن أثبت أنى عكس ذلك .

لم يكن يهمنى من قبل أن أكون ذا ميزة ، وكنت أبخل بالجهد والمثابرة على شىء لا أريده .

أما الآن فما أشد حاجتى إليه .

ليتنى فقط .. أكون ذا موهبة .

آه لو صدق قول مدرس العربية .

وهكذا بدأت أتحفز للنضال .. فى معركة الامتياز والنبوغ والعبقرية ، وذهبت فى الصباح المبكر لأسأل مدرس العربية أن يضمنى إلى الجمعية الأدبية وإلى هيئة تحرير المجلة ، ولأسأل مدرس الرسم أن يلحقنى بجمعية الرسم .

ولكن الاثنين رفضا مطلبى ، وأنبآنى أنى مخلوق مكسال متراخ لا فائدة ترجى منى ، وأنهما كانا مخدوعين فىّ .

وأحسست بخذلان شديد .

أهكذا لا أكاد أبدأ النضال .. حتى أهزم من أول مراحله وأطرد شر طردة من أرض المعركة ؟ ومع ذلك فلم يصبنى اليأس ، لقد كنت مصمما على أن أصبح شيئا . غير ذلك الحمار الغبى الأبله ، مصمما على أن يكون لى ما أعتز به وأفخر .

وبدأت الجد والمثابرة والنضال ، « من منازلهم » دون حاجة بى إلى الدخول

فى تلك الجمعيات التى رفضوا قبولى بها بعد أن كانوا يلحون علىّ فى دخولها .

وكتبت نشيد المدرسة ، وكانت المرة الأولى التى أحاول أن أقرض فيها الشعر ، ولم يكن يخطر لى ببال أن أجلس لأقضى الساعات الطوال مجهدا ذهنى فى نظم الكلمات ورص القوافى . ولم أكن شاعرا بالفطرة ، ولكنها كانت الإرادة ، وكان الجلد ، وكانت الرغبة فى أن أكون إنسانا ممتازا .

وأتممت النشيد ، وتقدمت به ، وما زال نشيد المدرسة الذى تهتف به حناجر الطلبة فى كل حفل وترحال .. وانهمكت فى نظم الشعر والأزجال ، وفاضت نفسى المرهفة اللهفى المحرومة بالحنين بسيل فى قصائد ومواويل تذوب رقة وتقطر جوى .

وما زلت أذكر موالا نظمته فى ساعة سهد فى بهمة الليل وكنت لا أفتأ أردده لنفسى فى لحن حزين وأنا أتقلب على المرقد الجافى :

يا ساكن القلب طيفك مر فى بالى ‏ ‏ ‏ ‏ وراح وسابنى عليل حبه بقى وبالى
وفؤادى من حر شوقه صار حطام بالى ‏ ‏ ‏ ‏ وهو ساهى وسالى ما افتكر فيّه
ينسى عهود الهوى ويهجر ولا يبالى

وأخذت فى الكتابة ، وفى عشية وضحاها كنت قد كتبت معظم ما فى مجلة المدرسة ، دون أن أكون فى هيئة تحريرها ، حتى جعلتهم أمام أمر واقع واضطروا إلى أن يخلقوا لى منصبا جديدا هو نائب رئيس التحرير .. بعد أن رأونى فى كل شىء فى المجلة .

وانهمكت فى الرسم وملأت لوحاتى جدران المدرسة ، واحتلت رسومى لوحة الإعلانات التى يعلن فيها عن المباريات الرياضية .. بعد أن ابتكرت طريقة جديدة فى إخراجها والإعلان عنها .

وفى ذلك العام نشرت لى ، وأنا تلميذ ، أول قصة فى إحدى المجلات الكبرى ، ورأيت اسمى يوضع جنبا إلى جنب بجوار كبار الكتاب .

وهكذا سرت مندفعا فى الطريق .. طريق ما يسمونه بالنبوغ والعبقرية

لا لشيء إلا لأثبت لها .. أنى غير حمار ولا أبله ولا غبى .

ومع ذلك فلا أكاد أجلس لأفكر الآن .. حتى أجد نفسى حمارا كبيرا . وليس أدل على ذلك من أنى قد أجهدت نفسى كل ذلك الجهد من أجل مخلوقة سرعان ما اختفت من محيط حياتى وخرجت من نطاق تفكيرى .

أجل .. لقد تخرجت من المدرسة ونقلت من البلدة ، ونسيتها تماما ، ومع ذلك فما زلت حتى الآن أثابر وأجد وأتعب نفسى .

لم ؟

ليقولوا عنى إنى نابغة عبقرى ؟

يا لى من حمار .. أبله .

ما أشبه مثابرتى على نقل الغاب بمثابرتى على السير فى طريق العبقرية والنبوغ .

غباوة .. فى غباوة .

* * *

وأعادنى من شرودى .. دوى تصفيق لخطيب انتهى من خطبته ، وسمعت حضرة الناظر يسألنى النهوض لمشاهدة التمثيل .

وسرت وإياه وبقية المدعوين إلى الصالة الكبيرة القائمة بين الفصول حيث أقيم المسرح وصفت المقاعد وتقدمت إلى الصفوف الأولى وأبصرت بعض مقاعدها قد احتلت ببعض السيدات ، ووجدت الناظر يتقدم بى إلى سيدة عجوز قد وخط الشيب رأسها ويقدم كل منا إلى الآخر قائلا : (الأستاذ فلان) .. (زوجتى) .

ونهضت السيدة فشدت على يدى ببشاشة وترحاب قائلة فى صوت رقيق ودود :

— إنى أذكرك جيدا وأنت ما زلت صبيا صغيرا ، وأذكر كيف جمعت لى غاب الترعة بأكمله .. ترى أما زلت تذكرنى ؟

وصمت برهة وأحسست بقلبى ينبض نبضات أشبه بصحوة محتضر .

وسرعان ما عاد إلى صمته وجموده .

ولم أدر إلا وأنا أقول فيما يشبه الهمس :

ــ أذكر فقط .. لقد كنت السبب فى كل ما حدث لى سامحك الله .

ولم تجب العجوز .. فلا أظنها قد فهمت ما أعنى .. أو من يدرى .. ربما قد فهمت .

* * *

ذكريات عصفت بى

لا تثر لى ذكريـــــاتى إنها
شيبتنـــى شيـبت حتـــى صبايــــا
ذكريات عصفت بى ، ذكريـــات
لم تدع من أجلى إلا بقايــــــــا
ذكريـــات رسفت فى أدمعـــى
وشجـــونى وتمشت فى دمايـــا
آه منـــى أنـــا لم أدرك مداهـــا
آه منها هى لم تدرك مدايــــــــا
حطمتنـــى مثلمـــا حطـــمتها
فهـــى منـــى وأنـــا منها شظايـــا

كامل الشناوى ــ محمد عبد الوهاب

والليل إذا سجى .. والطير إذا شدا .. والغصن إذا ترنح . والنسيم إذا ترنم . والسماء والكواكب.والنجم الثاقب . والذى نفسى ونفسك بيده ، وحياتك عندى .. عندما كانت لحياتك قيمة .. لقد سلوتك وشفيت من حبك .

سلوتك يا هاجرة .. وخلعت عنى قيدى .. وفككت حصارك .. لقد استبدلت بلهفة المشوق ازدراء المعرض ، وبطاعة الدليل سورة الباطش . وبت فى غنى عن متاعك الزائل السريع ، وعذابك الدائم المقيم . وما عدت بعد .. سخرة لعبثك ، وعبدا لفتنتك .

إنى لأجلس فى سكون الليل فأحتضن عودى .. وتجرى أصابعى على أوتاره .. فإذا به حزين الصوت ، مبحوح الترنم ، وإذا برناته تسرى كالأنين ..

وإذا به يعيننى على البكاء لا العزاء .. ويزفر لحنا كأنه النواح والعويل والرثاء . أصدع بالغناء .. وماذا أملك يا أختاه سواه ؟.. إنى لأفرح فأغنى .. وأحزن فأغنى .. كل خلجة من خلجات نفسى تبعثنى على الغناء .. وتدفعنى إلى الترنم ، كلما هاج بى الشوق أو الشجو .. وكلما هزتنى الفرحة أو اللوعة هتفت بها ألحانا وأنغاما .

يا منية النفس فى زمن غبر .. يا توأم الروح فى عهد باد .. لا عليك أبكى ، ولا إليك أحن . إنما الحنين إلى الزمن الغابر ، والبكاء على المتعة المنصرمة .. واللذة البائدة .

لهفى عليك ، ولهفى علىّ .. لهفى عليك وقد جزيتك سوءا بسوء .. وشرا بشر .. ورددت إليك اللطمة مضاعفة .. فحطمت بها أمانيك وخيبت آمالك .. وتركتك تتقلبين على جمر الغضب والغيظ والكمد .

ولهفى علىّ وقد لفظتك وأنت روحى .. وفقدتك وأنت ألزم إلىّ من الماء والهواء والغذاء ! وقهرتك وأنا الخاسر ، وبطشت بك وأنا المهيض .. وأذللتك وأنا أشد منك إحساسا بذل الهزيمة ومرارة الخسران .

ولكن لم يكن مما فعلت بد . لقد منحتنى لحظات متعة ثم استرددتها مضاعفة .. ولو وهبتنيها ثانية لعدت فاستردتها . وهكذا كل متعة منك سريعة الزوال .. عاجلة المسترد .. فالغدر شيمتك .. والخيانة ديدنك .. أفلم يكن من الخير لى وأنت كذلك أن أستأصلك من نفسى وأنتزع من قلبى جذورك .. وهكذا فعلت .. اقتلعتك من نفسى شر اقتلاع ولست بمنكر ما لقيت من آلام فى اقتلاعك .

لقد بت أشبه بقطعة أرض أظلتها شجرة ثم هبت عليها الريح فاقتلعتها من جذورها وتركت مكانها حفرة مقفرة موحشة .. يلفحها الهجير ويحرقها القيظ !

إنى لأمسك بالعود وأصدح بالغناء .. وبرغمى يا أختاه أجد الأغنية المحبوبة

قد اتخذت طريقها إلى أوتار العود وإلى شفتى .. ويصل اللحن إلى أذنى وكأنى لست منشده ، بل كأنه يصل إلىّ من بعيد ، من أغوار سحيقة ، من الأيام الخالية والزمن الغابر ، والذكريات البائدة .

ويسرى الصوت الهامس فى هبات النسيم هاتفا :

زعموا حبى يا قلب خطايا لم يطهرها من الإثم بكايا

وأحس من الصوت برجفة فى القلب . لست أدرى أمن طرب أم صبابة ؟ وتنبعث من صدرى زفرة حارة ملؤها اللوم للقلب الخافق المرتجف . ويسود الصمتُ لحظة ثم أعود فأهتف على رنات العود .. وخفقات القلب :

حسبنا ما كان فاهدأ ها هنا فى ضلوعى واحتبس خلف الحنايا

ويشرد بى الذهن إلى الماضى البعيد نابشا فى أجداثه .. وأحاول أن أعيد الذهن المنطلق وأوثقه إلىّ .. وأرجعه عن عبثه بين الأطلال الدارسة والدمن العافية .. وأهتف بالذهن الشارد كما هتفت بالقلب الخفاق :

لا تثر لى ذكرياتى إنها شيبتنى شيبت حتى صبايا

إن بها من المرارة أضعاف ما بها من الحلاوة .. لقد كانت لى فيها متعة فبادت .. ولو عادت لبادت مرة أخرى !

ذكريات عصفت بى ، ذكريات لم تدع من أجلى إلا بقايا
ذكريات رسفت فى أدمعى وشجونى وتمشت فى دمايا

أجل .. فى دمايا .. أيتها النائية .. كل ما بك وما حولك قد تمشى فى دمايا بعد أن لقيتك أول مرة .. أتذكرينها ؟

كان ذلك عندما التقينا فى ذلك الحفل الخاص الذى كنت قد دعيت للغناء فيه .. وكان الحفل لا يضم إلا خاصة الأصدقاء .. وكنت أكاد أعرف كل الوجوه الحاضرة إلا وجها واحدا هو وجهك أنت !

ولكن .. أحقا كان وجهك غريبا عنى ..؟. أحقا أنى لم أكن أعرفك من قبل ؟ على النقيض .. لقد أظهر وجهك كل ما حوله غريبا .. وبدا وحده

القريب الحبيب الذى أستطيع أن آمن إليه .. لم يكن وجهك غريبا .. فقد أقسمت بيني وبين نفسي أنى قد رأيتك من قبل فى مكان ما قد يكون فى الأحلام أو فى الأوهام .. وهذه البسمة الحلوة ، والوجه المشرق ، والأنف الدقيق ، والزهرة فى المفرق لم تكن غريبة عنى .. هذه التفاصيل أذكرها تماما .

وكنت تنظرين إلىّ وأنا أترنم وفى عينيك نظرة حالمة .. وأطلت فى الغناء وأخذت أكرر وأعيد .. وأنت رانية فى نشوة .. ووددت لو لم أنته حتى أظل مستمتعا بدفء نظراتك .

وانتهيت من الغناء .. وأحسست بنظرتك المعجبة تجزيني خير الجزاء .

وتعرفت بك وبزوجك !

وأخذت وقتذاك .. عندما علمت أن لك زوجا .. وشعرت بكثير من خذلان وضيق .. وأسف .. فقد استطاع الذهن خلال الفترة القصيرة التى كنت ترنين إلىّ بنظراتك الحالمة اللهفى خلال الغناء ، أن يهيئ لى معك مشروع حب ، وأن يعقد من طرف واحد ميثاق غرام .. وأن يزج بك بقوة وبسرعة فى محيط حياتى ، فيجعل منك — على قصر عهدى برؤيتك — شيئا حيويا هاما تتعلق به سعادتى .

ولم أجد بدا — بعد أن عرفت أنك متزوجة — من أن أتراجع ، وأن آمر الذهن بهدم مشروع حبه الجديد .. ولم أحاول أن أبذل أى جهد فى التقرب إليك .

ولكنك كنت المقبلة المتقرّبة ، والإنسان قد يكون من قوة الخلق والإرادة بحيث يحرم على نفسه متعة محرّمة ، يتلهف عليها ، بالتباعد عنها .. ولكن عندما تقبل عليه المتعة فتمسك بتلابيبه وتأخذ بخناقه ، فلا أظن المقاومة تصبح شيئا سهلا .. ولا أظن الإرادة تجدى نفعا .

وحاشاى أن أتهمك بأنك أمسكت بتلابيبى أو ضيقت علىّ الخناق .. لأن مقاومتى كانت أضعف من أن توصلك إلى هذا الحد .. إذ ما كدت أحس إقبالك

وتقرّبك ولهفتك وإعجابك .. حتى تركت نفسى تتردى فى حبك وتتخبط فى هواك .. دون أن أفكر فيما إذا كنت زوجة أو غير زوجة . وغير آبه لما يمكن أن يؤدى إليه حبنا .. ولا مُلقٍ بالاً إلى ما يمكن أن يصادفنا من عقبات .

وهذه الأوضاع الأرضية لا يفكر فيها المحبون الذين يحلقون بأذهانهم الشاردة فى سماوات الأوهام والأحلام . إنهم يعتبرون كل شيء ما خلا الحب باطل .. ويرون أن كل العقبات يجب أن تفسح الطريق للحب .. وأن كل الشرائع والتقاليد يجب أن تطأطئ هامتها للحب .. وأن يكون بها من المرونة ما يتسع لمخالفات الحب واستثناءاته .

وهكذا اندفعنا معا فى حب جارف .. بدأناه تلك الليلة المشهودة .. ووثقت الأيام عراه وشدت رباطه .. ولم أفتقدك مرة واحدة فى الحفلات التى كنت أغنى فيها .. فقد كنت أجد وجهك يتطلع إلىّ دائما بين الوجوه وكنت أجد فيه هدايتى ونبراسى .

ولا أنكر فضلك علىّ .. فقد أضحيت لى مهبط وحى .. وكنت ملهمتى فى معظم ألحانى التى رفعت ذكرى وزادت شهرتى .

كانت ألحان الحب التى وضعتها قبل أن أحبك جوفاء خاوية . فلما أحببتك جاشت فىّ ألحان الروح وفاضت بالحياة . كنت أحس فى كل لحن أنى أناجيك به .. وكنت أستمد أنغامى من تردد أنفاسك .. وبحة همستك ورنة ضحكتك . كانت تلك سلالمى الموسيقية .. ووحيى المنزل .

رب لحن يا نائية سرقته من هبة نسيم خلتها تحمل فى الليل أنفاسك .. ورب نغم بعثه فى نفسى حفيف أوراق خلته حفيف ثيابك ، أو طرق هادئ خلته فى دجى الليل وقع خطاك .

كنت أصورك لنفسى أكثر مما يمكن أن تتصورى أنت نفسك مهما بلغ بك الكبر والغرور .. كنت أفهمك على أنك كائن من غير البشر .

وكان لا بد لنا أن نفعل شيئا .. فما كنا نستطيع أن نكتم ما بنا إلى الأبد وأن

نظل هكذا متسترين على حبنا ، دون أن تكون لنا حرية الاستمتاع به كغيرنا من البشر .

وبدا لنا أن من العبث تجنب الفضيحة ، وأن أى إجراء سنحاول اتباعه سيصيب سمعتنا ويشهر بنا بين الناس ، وأخيرا لم نجد بداً من التفكير فى الفرار والنزوح عن هذا البلد .. وأن نرحل بعيدا .. إلى حيث يستقر بنا المقام فى لبنان أو فى قطر آخر نستقر فيه .. لنبدأ معا حياة جديدة لا ينغص علينا فيها رقيب ولا شريك .

وبدأنا نرسم خطتنا الجنونية .. لقد كنا عشاقا ، وليس أحب إلى العشاق من امتطاء صهوة الأهواء الجامحة .. وأنت مخلوقة خيالية كثيرة التعلق بأوهام الحب وخيالاته .. وأنا فنان دائم التحليق بذهنى فى سماء الألحان لا أكاد أحس الواقع إلا لماما .

وجاءت خطتنا فى الفرار ، نموذجا للإمعان فى الخيال والوهم وجنون الحب . خطة لا تزيد كثيرا عما يدبره العشاق فى الأقاصيص والروايات .. فكان علينا أن نلتقى فى سكون الليل حيث تتسللين من دارك بعد أن يأوى زوجك إلى مضجعه وتسيرين إلى نهاية الطريق حتى تبلغى المقعد الكائن فى طرف المنتزه حيث أنتظرك بعربتى ثم نبدأ رحلتنا معا إلى غير عودة .

وحددنا لفرارنا يوما معينا ، ورتبت كل أمورى على الرحيل فى ذلك اليوم .. ولكن القدر لم يكن قد رتّب أموره معى .. ففى اليوم السابق لليوم المحدد أحسست بالتهاب فى الحنجرة وارتفاع فى الحرارة واضطرنى المرض إلى الرقاد فى الفراش .

ورغم ما أصابنى من ضيق يومذاك .. فقد حاولت أن أخفف عن نفسى بأن المرض عارض طارئ سرعان ما يزول وأننا نستطيع أن نصبر بضعة أيام حتى أبل من مرضى ، واتصلت بك لأنبئك بذلك .

ولكن المرض لم يكن عارضا طارئا .. بل كان حدثا أصيلا ، وما كان شيئا

سريع الزوال بل كان ضيفا دائم المكوث طويل الإقامة .

لم يكن المرض فقط مهددا بالحيلولة دون فرارنا .. بل كان أشد من ذلك خطورة وأقسى وقعا .. لقد كان مهددا بفقدى أعز ما أملك ـــ بعدك ـــ ألا وهو صوتى . ورقدت على الفراش أتململ والأطباء يتشاورون من حولى ثم أقبلوا علىّ فى النهاية يطمئنونى بقولهم : إنى بخير ، وأنه ليست هناك أية خطورة على حياتى .. ولكن حنجرتى لن تعود إلى ما كانت عليه ، ولن أستطيع معاودة الغناء ، إلا إذا أجريت لى عملية غير مضمونة النجاح .

وأصابتنى من قولهم صدمة عنيفة ، وتملكنى حزن شديد ، فقد كنت أحس أن حنجرتى هى سر قوتى ، وأن حياتى لم تعد لها قيمة .. وأنى بت كشمشون بعد أن قص شعره .

ومع ذلك فلم يعد هناك بد من الاستسلام لقضاء الله . ولم أحاول أن أقدم على إجراء العملية الخطرة ، لأنى كنت أرغب فى الاحتفاظ بحياتى لأجل مخلوق واحد هو أنت .

ومرت بى الأيام وأنا راقد فى الفراش أستحث الشفاء وأتعجل النهوض وأتلهف على اليوم الذى نستطيع فيه أن ننفذ خطتنا فى الفرار .

ولم يكن لى من عزاء فى رقدتى سوى زيارتك التى كنت تمنحينها لى خفية كلما استطعت إلى ذلك سبيلا .. ولكنى أحسست أن زياراتك لى قد بدأت تقل .. وأنك قد بدأت تعتذرين بتضييق زوجك عليك حتى حل الوقت الذى رضخت فيه لإرادة زوجك ، وانقطعت زيارتك تماما .

واشتد بى الحنين وعصفت بى اللوعة ، ولكنى مع ذلك أخذت ألتمس لك الأعذار .. معللا النفس بأنك لا بد قد أكرهت على هذه القطيعة ، وأننى لا بد أن أشفى عاجلا ثم أفر وإياك وأنقذك مما أنت فيه .

وفجأة حدث ما أذهلنى وأفعمنى دهشا وعجبا .

لقد فوجئت ذات يوم برسالة منك فى البريد تنبئنى بأنك لا تطيقين بعدى وأنك

قد بحثت الأمر جيدا ، وأنك موافقة على مطلبى وأنك ستلقيننى اليوم عند المقعد الذى فى نهاية المتنزه فى الساعة العاشرة لكى نهرب معا .

وأحسست برأسى يدور . ولم أفهم ماذا دفعك إلى كتابة الخطاب ، وأى أمر هذا الذى بحثته ، وأى مطلب هذا الذى وافقتنى عليه .. وكيف تطلبين منى لقاءك والفرار بك وأنت تعلمين جيدا أنى لا أستطيع مغادرة الفراش .. ثم ما الذى دفعك فجأة إلى الكتابة إلىّ بعد أن انقطعت زيارتك عنى طوال هذه المدة !

وأعدت قراءة الرسالة مثنى وثلاث .. ومرة واحدة وفى مثل لمح البرق تكشف لى الأمر .

كان الظرف الذى وضعت به الرسالة معنونا باسمى .. ولكن الخطاب من الداخل لم يكن موجها إلىّ .. أو على الأقل كان بالاسم تحريف .. إن اسمى محمد ، ولكن الخطاب كان موجها إلى « عزيزى محمود » .

إنى لم ألحظ الخطأ فى أول الأمر .. فلما لحظته ظننتها زلة قلم . رغم أنك لم تخطئ مرة واحدة من قبل . ولكننى بمعاودة القراءة والتفكير دفع الشيطان فى ذهنى بالحقيقة وملأ نفسى بالوساوس والشكوك .

وتذكرت محمود .. الكاتب المعروف .. الذى كثيرا ما كنت تمتدحينه أمامى .. وكنت تقولين إنك تعشقين كتابته ، كما تعشقين أنغامى .. وكنت دائم الغيرة منه ، شديد الكره له .

أجل ! لقد كنت أحس بأنه غريمى فى حبك ، ومنافسى فى هواك .

كان يخيل إلىّ دائما أن قلبك بيننا ميدان قتال أنا أغزوه بريشتى وهو يغزوه بقلمه .

ولم أكن أشك فى أنى فى ميدان هواك الفائز السباق ، الصائل الجائل .. وأنى استطعت وحدى الظفر بقلبك ، وطرده منه — إن كان قد احتله فى يوم ما — شر طردة وأنى رددت قلمه إلى غمده ، وهزمته شر هزيمة .

أجل يا أختاه .

أجل .. يا عاشقة العبقرية ومحبة النبوغ .. لقد هجرتنى عندما بت مخلوقا عاديا ، لا أملك من وسائل العبقرية أكثر من أى إنسان آخر . لم يعد لى من ميزة ولا فضل .. لقد كان يستهويك غنائى ، فلما عجزت عنه .. لم يعد لى فى نفسك قيمة .. ووليت عنى إلى مصدر آخر من مصادر النبوغ . مصدر لم ينضب معينه ولا جف نبعه .

وأعادت الأيام نفسها .. وبينما كنت أرقد طريح الفراش كنت تقومين بدورك مع العبقرى الآخر . وانتهى الأمر بك معه .. إلى ما أوشك أن ينتهى معى ..

وأغلب ظنى أنه قد سألك الفرار معه .. فالفنانون ، يا فاتنة ، يتساوون فى الجنون والبلاهة .. وسألته أنت أن يعطيك فرصة للتفكير .. ثم أرسلت إليه رسالتك السابقة ويعلم الله كيف وصلت إلىّ وكيف أخطأت العنوان ..!

ولكن أغلب الظن أنك قد كتبت إلىّ رسالة تعلنينى فيها بانقطاع الصلة بيننا . وقد وضعت رسالتى فى ظرفه ورسالته فى ظرفى ، وأن كلا منا قد تسلم رسالة الآخر .

وهكذا يا هاجرة .. عبث بك القدر . فأرسلت إليه تقطعين صلتك به .. وأرسلت إلىّ تسألينني الفرار معك .

وكان أول ما فعلت هو أن استدعيت الطبيب وأصررت على أن يجرى لى العملية الجراحية مهما بلغت خطورتها .

ولم يمض أسبوع .. حتى كانت العملية قد نجحت وشفيت حنجرتى تماما .. واستردت موهبتى الأولى .

وعدت إلىّ مرة أخرى مثبتة صحة كل ما سبق أن استنتجته من خطابك .. فقد أقبلت على ذليلة كسيرة .. معتذرة عن خطابك الذى قطعت فيه صلتك بى ، وقلت إنك كنت لا تودين أن تكونى عبئا علىّ ، وأنك وددت أن تخليني من

عهد قد يثقل عليّ ، وهكذا عرفتنى بالخطاب الذى كان يجب أن يأتى إلىّ والذى تسلمه خصمى الآخر .. وكانت نتيجته أنه لم يحضر إليك فى الموعد المحدد وهجرك إلى غير عودة .. ولم أنبئك بشيء عن حقيقة ما وقع ، بل أظهرت لك صفحى عنك ، وسألتك عما إذا كنت على عهدك القديم وأنك موافقة على الفرار معى .

وفى اليوم التالى وصلتنى رسالة منك .. لا تكاد تفترق عن الأولى فى شيء .. توافقين فيها على الرحيل معى .. وتحددين بنفسك الموعد والمكان ، وأدركت أن فى هذه المرة لم يحدث خطأ .. وأن الطرف الآخر قد وصلته رسالة ثانية بقطع العلاقة معه .

وفى الليلة الموعودة ذهبت إلى مكان اللقاء .. لم أذهب فى الموعد بالضبط .. بل ذهبت قبله بلحظة بسيطة ، ووسط السكون الشامل ، وتحت ضوء المصباح ، ووقفت أمام المقعد الذى اتفقنا على أن نلتقى عنده .. والذى تعودنا أن نجلس عليه معا ، ولم أجلس لأنتظرك ، بل وضعت مكانى رسالتين : الرسالة الأولى والرسالة الثانية .. ثم ركبت سيارتى وقررت أنى أرحل وحيدا .. لا رفيق لى سوى « عودي » الحزين ، وصوتى الملتاع .. الذى يهتف فى سكون الليل :

آه منى أنا لم أدرك مداها   آه منها هى لم تدرك مدايا
حطمتنى مثلما حطمتها   فهى منى وأنا منها شظايا

* * *

آه لوكنت معى

آه لو كنت معـى نختـال عبره
بشراع تسبـح الأنجم إثـره
حيث يروى الموج فى أرخم نبره
حلـم ليـل من ليـالى كليوباتـره
أيـن من عينـى هاتـيك المجالى
يا عروس البحر يا حلـم الخيـال

(على محمود طه ــ محمد عبد الوهاب)

أكره أن أنساك يا حلوة الروح .. فإنى بغير ذكراك يابس القلب جامد الحس كأنى حطبة أو حجر .

أبعد كل هذه السنين التى ولَّت والعمر الذى انقضى .. وبعد كل هذا الزمن خلته قد طواك .. لا أكاد أخلو إلى نفسى فى بهمة الليل وسكونه حتى يساورنى طيفك الرقيق ، فأكاد أشتَمّ من النسيم عبقك العطر ، وأكاد أسمع من حفيف الورق همسك الحنون وهتافك العذب « آه لو كنت معى » .

أنا معك دائما .. معك فى كل حين .. وفى كل زمان ومكان .. على الربى وفى الرياض ، وبين الأمواج وفوق الرمال .. بين الزهور وبين القبور .. فى الحياة وفى الممات .

كانت أغنيتك المفضلة عندك .. وكنت لا تملين من ترديدها .. وكنت لا أمل من سماعها .

كانت هى بداية معرفتى بك .. وكنت أجلس وقتذاك فى الشرفة الصغيرة المطلة على الحديقة الخلفية التى تفصل بين دارينا ، وكانت الساعة قد قاربت

العاشرة مساء .. والليل سكون ، وهبوب النسيم خفق وحنون .. وقد اضطجعت على مقعد وأسندت قدمي على حافة الشرفة واتكأت برأسي على مسند المقعد وأخذت أرقب السحاب الذائب الهائم على وجه السماء .

ووصل إلى سمعي صوت رقيق حنون .. يشدو بالمقطع الأخير من أغنية الجندول .. ويردد في عذوبة « آه لو كنت معي » .

ولا أظنك كنت — وأنت ترددين أغنيتك ببساطة في تلك الأمسية — تتصورين مبلغ أثرها في نفس ذلك المخلوق القابع في الظلمة على قيد خطوات من نافذة حجرتك .. لقد أطلقتها رمية من غير رامٍ ، وكنت بإحساسي المرهف وجلستي الشاعرية خير هدف أعد لاستقبال رميتك .. فتلقيتها « وكتمت السهم في كبدي » ورحت من سهمك أترنح نشوان ثملا .

وفي الليلة التالية كنت أتخذ مجلسي بنفس الطريقة وفي نفس الوقت ، وسرى إليّ مع النسيم صوتك كأنه السحر .

وتكرر ذلك في كل ليلة .. فكأننا على موعد ، وبدأ تفكيري يتركز في تلك اللحظة من الليل حتى أضحت أغنيتك وصوتك محور اهتمامي ومركز حياتي .

وقد يكون من العجب ألا أحاول أن أطمع منك في أكثر من صوت مجهول يسري إليّ في جنح الليل .. وألا أحاول أن أراك أو أسأل عنك ، ولكني في الواقع كنت راضيا مغتبطا ، فأنا إنسان خيالي حالم ، وكنت أصورك لنفسي في صورة أبدع الفنان في رسمها .. صورة تتناسب مع ذلك الصوت العذب والجو الساحر الذي يسري فيه ، وكنت أذكر قصة قرأتها عن رجل عشق في جوف الليل صوتا حنونا .. فلما التقى بصاحبة الصوت وجدها شوهاء ضريرة ، وكنت أجزع من تكرار القصة معي وأكره أن أراك بغير الصورة الساحرة التي كنت أتصورك بها .

وعاونتني الظروف إلى حين ، فلم أر لك طيفا ولا شبحا . فقد كنت أتغيب عن الدار طول اليوم فلا أعود إلا بعد سقوط الظلام .. أما في أيام العطلة فقد

كنت ألمح نوافذكم من خلال الشجر مغلقة .. وكان السكون الذى يسود داركم يجزم بأنكم تقضون اليوم خارجها .

أقول إن الظروف عاونتنى على القناعة بصوتك إلى حين ، فقد عدت ذات يوم إلى الدار قبل الغسق ، وجلست فى حجرتى أتسلى بتصفح إحدى المجلات عندما أفلتت منى نظرة مصادفة إلى ناحية داركم .. فإذا بى أجدك فى الشرفة المواجهة لحجرتى .

أجل .. وجدتك أنت .. أو وجدت ما تمنيت أن تكونيه . فقد كنت لا أعرف كيف تكونين .. ورحت أحدق فيك وأجزم لنفسى أنك لا بد أن تكونى صاحبة الصوت .

إن خيالى لم يخطئ .. فما كنت شوهاء ولا ضريرة ولا كسيحة . وما كان ذلك الصوت العذب ليخرج إلا من بين شفتيك الحلوتين المزمومتين فى رقة .

كانت نبرات صوتك كقسمات وجهك .. من نفس النوع الهادئ الناعم الذى يملأ النفس سكينة وراحة . وكنت أحس فيهما عمقا وإخلاصا يجعلانى أتمنى لو أقضى العمر فى سماعك والنظر إليك .

وزادت لهفتى عليك بعد أن رأيتك .. وأضحيت فى نفسى أكثر من صورة وهمية يجسدها الليل ويكسفها الصباح .. لم تعودى مجرد صوت ساحر ، بل أصبحت كائنة حلوة ملموسة أستطيع أن أبصرك وأتحسسك .

ولم أعد — كما كنت من قبل — أستبعد المسافة بين عملى بالقصر العينى وبين بيتى فى الروضة .. بل صرت أعود فى كل فرصة أستطيعها .. ولم أحاول أن أقضى لحظة فراغ ، منذ رأيتك ، خارج الدار .

واستطعت لطول التطلع إلى داركم ومراقبتى إياكم أن أحصى سكان الدار .. فوجدت عجوزين لم أشك فى أنهما أبوك وأمك .

وبدأ ينشأ بيننا نوع صامت من المعرفة والألفة .. ومنعنى حيائى أن أقدم على أكثر من سماع صوتك فى جنح الليل والتطلع إليك إذا ما جلست فى الشرفة فى النهار .

وكان يخيل لى أنى ألمح فى قسماتك سيماء شجن وأنك تبدين مهمومة محزونة .. أو على الأقل ليس لديك ما يفرحك ويطربك .. كأنك تسيرين فى الحياة بلا أمل ولا رجاء .

وحاولت مرة أن أشير لك بالتحية ولكنك تجاهلتنى . فصدمنى تجاهلك إياى فى مبدأ الأمر ، ولكنه زادنى رغبة فى أن أحدثك وأن أرفع عنك همك وأنبئك أننى أحبك .

وازددت إقبالا .. فازددت إعراضا . وقابلت ميلى إليك باستخفاف وإنكار .. وكان كل ما بيننا من كر وفر ، وإقبال وإدبار ، لا يعدو الحركات الصامتة من بعيد .

وأخيرا لقيتك وجها لوجه فى أحد معارض الصور بسراى المعرض .. ووجدتها فرصة العمر للحديث معك وصممت على ألا أدعها تفلت من يدى .

وحاولت تجاهلى فى أول الأمر . ولكننى كنت مصمما على أن أحدثك ، ولم تكن المسألة عسيرة علىّ .. ولا كانت تحتاج لكثير جرأة .. إذ لم يكن أسهل على من السير بجوارك .. وتتبعك أينما سرت ، وإبداء الملاحظات على الصور التى نشاهدها معا .

وتبادلنا بعض التعليقات العابرة ، ثم رأيتك تتجهين إلى الباب وتهمين بالخروج فتبعتك وأسرعت بإحضار عربتى ودعوتك لأوصلك إلى دارك .

ورفضت الركوب شاكرة .. ولكنى قلت فى لهجة مصممة أن لدىّ ما أو قوله لك ولا بد أن تركبى معى .

ولم يكن هناك مفر من الركوب .. تلافيا للمناقشة . واتخذت مقعدك بجوارى .. وسارت بنا العربة وعبرنا كوبرى الجلاء .. وبدلا من أن أتجه يمينا إلى كوبرى الملك الصالح ثم إلى الروضة اتجهت يسارا إلى كوبرى أبو العلا ثم إلى الزمالك حتى أطيل مدة جلوسك بجوارى .

وكنت تنظرين إلىّ بغضب مكبوت ودهشة مستسلمة .. وإن كنت أشك

أنك ــ إلى حد ما ــ راضية .

وطال بنا الصمت وأنا أشعر من جلستك بجوارى بنشوة عجيبة .. وأخيرا تساءلت فى صوت خافت :

ــ ماذا تريد أن تقول ؟

ــ أشياء كثيرة .

ــ أتعتقد أن هناك فائدة من قولها ؟

ــ طبعا .

ــ إذن فقل .

ــ قبل كل شيء غنى « آه لو كنت معى » .

ــ من قال لك أننى أجيد الغناء ؟

ــ قالت لى أذناى .. وهى تنصت فى سكون الليل .

ــ أكنت تسترق السمع ؟

ــ لم يكن هناك ما يدعو للاستراق .. فقد بعثت مع النسيم صوتك .. فحمله إلىّ .

وكانت العربة قد عبرت كوبرى الزمالك واتجهت يسارا .. فقلت متسائلة :

ــ لم تقل ما تود قوله ؟

ــ لا أظن بى حاجة إلى قوله لأنك تعرفينه سلفا .

ــ لست أعرف شيئا !

ــ لا أجد الألفاظ الملائمة لقوله .. لأنى لست شاعرا .

ــ ولا أنا .. قل باختصار !

ــ إنى أحبك .

وأطرقت برأسك وكسوت وجهك علائم الحزن التى طالما أبصرتك عليها ، ثم قلت فى شبه استخفاف :

— هذا قول لا فائدة منه .

— كيف .. إنى جاد فيه .. إنى لا أستطيع الحياة بدونك .. سأتقدم إلى أبيك لخطبتك .

ورأيتك تلتفتين إلىّ ببطء ، ثم انطلقت منك ضحكة قصيرة ساخرة مليئة بالمرارة ، وتساءلت :

— تتقدم لمن ؟

— لأبيك .

— أين هو ؟

— ذلك الرجل الذى أراه فى داركم .

— إنه ليس أبى .

— ليكن من كان .. سأتقدم إليه .

— حتى ولو كان زوجى ؟

— زوجك ! زوجك أنت ؟! أنت متزوجة ؟

ولم أشك فى أنك تحاولين أن تمزحى ، فقلت متضاحكا :

— لا داعى للمزاح .. إنى أتكلم جادا .

— قلت لك إنه زوجى .

— والمرأة العجوز من تكون ؟

— أمى .. أتريد أن تخطبنى منها ؟

وكنت أحس أنى تلقيت صدمة عنيفة لم أفق منها بعد ، وعدت أتمتم فى دهش :

— أنت متزوجة ؟

وأجبت كأنما تحدثين نفسك :

— كنت أدرى منك بأنه لا فائدة .

— ألهذا كنت تصدينني ؟

— أكنت تريد من امرأة متزوجة أن تفعل سوى ذلك ؟

— كنت أحمق .. إنى آسف لما حدث .. لن أحاول إزعاجك بعد الآن .

هذا ما قلته لك .. ولكنى كنت أشعر وأنا أقوله أن من الصعب تنفيذه .. وأنه قد سبق السيف العذل .

لقد قلت لك إنى كنت أحمق ، ولكنى صرت بعد ذلك أشد حمقا .. لقد أحببتك ، وأنا لا أعلم أنك متزوجة .. فلما علمت .. لم أرتدع .. بل صرت أكثر ولها وولعا .

ومتى كان المحب يروعه منطق أو توقف حبه خشية عاقبة أو خوف زلل ؟

لقد كان من العبث وقف السيل .. لا من ناحيتى فحسب ، بل من ناحيتك أنت أيضا .. فقد هدم لقاءنا الأول كل ما كنت تتذرعين به من مقاومة .. وكل ما كنت تدعينه من صد وإعراض .

لقد جرف حبنا كل شيء : التقاليد والضمائر ، والخوف والفضيلة .

سارت بنا العربة يومذاك تتهادى فى الطريق المظلل بأشجار الكافور .. وكنا غريقين فى حزننا ويأسنا .. وليس آلف للقلوب من تشارك الأحزان .

ولكن هل كنت حزينا حقا ؟ لا أظن .

إن حزنى كان مجرد حزن سطحى .. أما فى الأعماق فقد كانت ترسب أكداس السعادة .

لتكونى من تكونين .. زوجة أو أما أو أى شيء .. كفى أنى أحسست أنك تحبيننى .

إنك لم تقولى شيئا ، ولكن ملامحك وصمتك ووجومك واستسلامك واستنادك إلى كتفى كان أبين من كل قول ، وأفصح من كل شرح .

وأخيرا أوصلتك إلى قرب البيت .. وافترقنا على أن نلتقى كأصدقاء .

أصدقاء ! ما أقدر الإنسان على خداع نفسه !

نحن نلتقى كأصدقاء ؟

وأين نذهب من اللهفة المتأججة والشوق المستعر ؟

ولكن ماذا يضيرنا من أن نسكت ضمائرنا بهذا الادعاء ما دامت سريعة الاقتناع .. سريعة السكوت ؟

وتعوّدنا أن نلتقى بعد ذلك كل ليلة .. بعد أن يأوى الأهل إلى مضاجعهم ويغطون فى نومهم .. حيث نتسلل إلى شاطئ النيل كأننا طفلان هاربان .. ونهبط فى القارب الذى تعوّد الملاح إعداده لنا فى تلك الساعة ، وأتسلم منه الشراع الصغير ، ونخوض به جوف النيل .

أكان ذاك حقيقة .. أم حلما من أحلام الدجى ؟

كيف مرت بنا الليالى وقتذاك .. الزورق ينساب فى لين ، والنسيم يعبث بالشراع .. وأنت متكئة برأسك على صدرى .. وعطر شعرك يملأ أنفى .. وذراعاى تحيطان بجسدك الرقيق .. وصوتك العذب يردد أغنيتنا المحبوبة ، وكأننا نعيش فيها :

آه لو كنت معى نختال عبره
بشراع تسبح الأنجم إثره
حيث يروى الموج فى أرخم نبره
حلم ليل من ليالى كليوبتره

ولم ليالى « كليوبترة » وليست لياليك أنت يا عروس البحر يا حلم الخيال !
وتأخذين فى تكرار « آه لو كنت معى » .. وأنت ترنين إلىّ بعينيك فى حنين وشوق .. فأهمس فى فمك « إنى معك .. معك دائما » .

ولكنك تهزين رأسك فى أسف كأنك تقولين : « أحلام خيال تبددها اليقظة » .

* * *

وذات يوم سمعت طرقا على الباب غير عادى .. ثم أبصرت خادمتك تقبل علىّ مذعورة وتسألنى الحضور إليكم لأن سيدها قد أغمى عليه .

وأسرعت بالحضور إليكم ، وأخذت أفحص زوجك الكهل ، وقمت له

بالإسعافات اللازمة ، واتضح لى أنه مصاب بضغط الدم ، وأنه يخشى عليه احتقان فى المخ أو شلل .

ووجدته مخلوقا رقيقا طيبا ، فأخذت أطمئنه على صحته وأنبأته أنى سأتولى علاجه .

وهكذا وجدت نفسى قد أقحمت فى داركم وأصبحت برغمى صديقا حميما لزوجك .

وبدأ الضمير يطرق طرقاته ملحة متوالية .. لينبئنى فى لحظة أننى قد بت شر أنواع الرجال .. يسقينى من حبك مرارة وعلقما .. ويسمم لى علاقتنا ، ويبديها على حقيقتها أمرا إدّاً وفعلا نكرا .

ووجدت نفسى — لكى أحتمل حياتى — أمام أحد أمرين : إما أن أقطع علاقتى بك أو أمحو صلتى به .

وكنت أعلم تماما أنى لا أطيق بعدك ولا أحتمل فراقك ولكننى كنت أعلم كذلك أن زوجك فى حالته الراهنة — وبعد أن توليت علاجه فى أول الأمر — فى أشد الحاجة إلىّ وإلى ثقته بى ، ومن الجرم أن أنقطع عن تولى أمره فجأة قبل أن يبل .

وأخيرا .. وفى ثورة من ثورات الضمير .. قررت أن أنقطع عنك .

كانت غباوة .. أو غرورا .. أو حسن ظن بالنفس .. سمها ما شئت .. فكثيرا ما تنتابنا نوبات جنون .. توهمنا بأننا قد وهبنا من الإدارة ما نستطيع به وأد قلوبنا .. وقتل مشاعرنا .

وبدأت أنأى عنك وأتباعد وأتهرب من لقائك والنظر إلى عينيك .. وكنت أحس المرارة والخذلان فى ملامحك دون أن أحدثك أو حتى أنظر إليك .. ولكنى كنت أتجلد وأتصبر .. وكان عزائى عن ألمك أنى أشاركك إياه إن لم يكن ألمى شرا منه .

وبذلت كل ما أملك فى علاج زوجك ، ولم أبخل عليه بجهد ، فقد كنت

أحس أن جهودى معه تكفير عما فعلت به .. وبدأت أشاهد ثمرة جهودى بأن ظهرت عليه بوادر الشفاء .

وخلوت إلى نفسى ذات ليلة بعد طول تعب وسهد ، فتملكنى إحساس جارف بالحزن والضيق والحرمان ، وأحسست أنى أكاد أسقط إعياء بعد طول عدو .. وكان كل ما بى مبعثه الحنين إليك واللهفة عليك .. وبدأت أتململ من القيود التى شددت بها نفسى قائلا :

إنى قد قمت بواجبى نحو زوجك ، وأن علىّ أن أقوم بواجبى نحو نفسى وألا أترك قلبى ييبس وروحى تذبل وتجف .

أكثير عليه أن أسترد منه حياتى بعد أن وهبته حياته ؟ أجل .. ليهبنى حياتى .. وحياتى أنت ولا حياة لى سواك .

وانقطعت عن زيارتكم بضعة أيام ثم ذهبت إليكم .. لا لعيادته بل لأنبئك أنى عدت إليك .

ولم أجدك .. وأنبأتنى أمك أنك ذهبت إلى خالتك منذ ليلة أمس لأنها مريضة وفى حاجة إلى من يعنى بأمرها .

وعجبت .! لم لا تذهب أمك إلى خالتك وهى أختها ، وتبقين أنت بجوار زوجك ؟!

وفى اليوم التالى ذهبت إلى عملى بالقصر العينى .. فإذا بزميل أخصائى فى أمراض النساء يهمس فى أذنى أنه يريدنى لأمر هام .. وفى مكان خال أنبأنى أن مريضة فى مستشفاه تريد رؤيتى .. وعجبت من قوله وذهبت معه وأنا مشدوه .. ولم يك يخطر ببالى قط أنك أنت هذه المريضة حتى رأيتك .

أجل أبصرتك أنت بوجهك الشاحب وقسماتك الهادئة وقد استلقيت على الفراش فى ضعف واستسلام ، فسألتك فى لهفة عما بك .

وأنبأتنى هامسة أنها عملية إجهاض .. وأنك أقدمت عليها خشية أن يفضح أمرك عندما وجدتنى قد خذلتك وتخليت عنك بعد أن كنت تنوين أن تسألى

زوجك أن يهبك حريتك ويطلقك لكى نعيش معا .

وذهلنى قولك .

أأنا أخذلك وأتخلى عنك ! أتخلى عن حياتى ؟

أقسم لك أنى ما عرفت قط أنك حامل ، وأن انصرافى عنك لم يكن سوى ثورة ضمير نشأت عن قربى من زوجك العجوز .

لشد ما أخطأت فى ظنك .. إنى على استعداد لأن أحمل عنك وزرك .. فإنه وزرنا .

إنى سأذهب لأنبئه بنفسى ، وأطلب منه أن يهبك حريتك .

وغادرتك بعد أن بللت يديك بأدمعى ، أدمع التكفير والندم .. لقد كان يجب علىّ أن أكون أشجع من ذلك ، ولا أتركك وحدك وأتراجع فى منتصف الطريق .

ومرة ثانية وجدتنى قد اتخذت قرارا أعجز عن تنفيذه . كيف أواجه الرجل الذى لم يكد يبل من مرضه بالحقيقة المؤلمة ؟ كيف أطلب منه أن يطلق زوجته التى حملت منى لأنى أريد زواجها ؟ هذا منتهى الجنون . إنى لا شك قاتله بقولى .

لا .. لا .. إنى لا أستطيع .. يجب أن أؤجل المسألة حتى أجد لها حلا .

ومع ذلك لم أكد أقترب من الدار حتى وجدت الحل سهلا ميسورا .. فقد رأيت فى داركم حركة غريبة .. وسمعت فى داركم صوت بكاء ، ثم علمت أن زوجك وفر علىّ مشقة مواجهته .. وأطلق سراحك وصعد إلى السماء .

ولا أكتمك أنى شعرت من موته بصدمة .. رغم أنى وجدت فيه حلا لمشكلتنا .

وعدت إلى المستشفى لأنبئك أننا قد بتنا أحرارا فى حبنا وأننا نستطيع الزواج .. ولكنى وجدتك أنت أيضا قد رحلت .. لقد قضى عليك نزيف مفاجئ .

أية سخرية هذه ؟ من يصدق أنكما رحلتما سويا فى ساعة واحدة ؟

لقد أبى العجوز إلا أن يأخذك معه .. أتراه كان يعلم كل ما بيننا ؟ من يدرى ؟

لقد هجرت الشرفة وهجرت البيت .. لم أطق البقاء فيه لحظة واحدة ، ومرت بى السنون وأنا كليم القلب ، شارد الروح لا أكاد أبصر زورقا يجرى ، أو شراعا ينساب ، حتى يحمل إلىّ صوتا حنونا يهتف بى : « آه لو كنت معى » .

* * *

وأوشك أعبده

مضناك جفاه مرقده　　وبكاه ورحم عوَّده
حيران القلب معذبه　　مقروح الجفن مسهده
يستهوى الورق تأوهه　　ويذيب الصخر تنهده
ويناجي النجم ويتبعه　　ويقيم الليل ويقعده
بينى فى الحب وبينك ما　　لا يقدر واش يفسده
ما بال العاذل يفتح لى　　باب السلوان وأوصده
ويقول تكاد تجن به　　فأقول وأوشك أعبده

(شوقى — عبد الوهاب)

يا لائمى فى الهوى ، أرح من اللوم نفسك .

أنا مجنون ، فلا تضع وقتك معى عبثا .. إن ضرب الميت حرام ، ولوم المجنون عبث .

أنا سعيد بأحزانى ، ولوعتى وأشجانى ، فدعنى أعب منها ما استطعت فقد استسغتها وروّضت عليها نفسى ، حتى باتت جزءا من كيانى .

دع عنك لومى ، فقد تعوّدت البكاء ، وملت إليه .

إن القلب لن يضجع ، والفؤاد لن يهجع .. فقد أقسما ألا يغمض لهما جفن بعد رقدتها الأخيرة ، وأن يرعياها فى ضجعتها بين الثرى بعين الحنب والشوق التى ظلت كليلة عنها حتى رحلت .

أجل .. إنى سأعوّضها وفاء عن طول وفائها ، وحبا عن عظيم حبها .. علّها تغفر لى فى قبرها ما بدر منى فى حياتها من إهمال وإعراض وتجاهل وإنكار .

لا تقل إن حبى سيراق على عظام نخرة وقبر بقفرة . لا تقل إنى لن أجد له

مجاوبة ولا ردا ، فما كان ذلك ليثنينى عن حبى لها . ألم تكن هى تحبنى دون أن تنتظر منى مجاوبة ولا ردا ؟

إن حبى لها لا يطلب ردًّا ، فهو نفسه ردٌّ لندائها الضائع المتبدد ، إنه صدى لحنينها الصامت ورجع لصبابتها الذاهبة .

أنا لا أرجو من حبى شيئا .. فقد سبق أن أخذت عوضا عنه دون أن أشعر .. إنى أردّ به دينا قديما .

إنى لأجلس فى سكون الليل الحالك المدلهم ، صامت اللسان ، صاخب الحشا ، أرقب نافذتها المظلمة التى طالما راقبتنى من خلالها .

إنى لأحيا على ما مضى .. على وريقات خلفتها لى بعد أن وضعت فيها عصارة روحها وذوب نفسها وقلبها ، أقلبها بين يدى وأضمها إلى صدرى فأجد فيها عزاء جميلا .. ويستبد بى الحنين فأبصرها من خلال الورق .. وأسمعها فى هديل الورق ، وأبيت والغائب الحاضر فى خلوة ممتعة هنيئة ، لا يشوبها عاذل ولا يقطعها رقيب .. سوى نسمة تعبر ، أو طير يرف .

إنى لأقرأها المرة بعد المرة ، وأنا جاثم فى خلوتى أتطلع إلى مقرها السابق من النافذة المغلقة .. ما مللت قط من القراءة أو النظر .

لقد حفظتها عن ظهر قلب ، وباتت كل كلمة منها ، بل كل حرف ، منقوشا فى ذهنى وفى قلبى ، كأنها كلام الله فى قلب المؤمن .

وإنى لأستطيع تلاوتها وأنا مغمض العينين ، وأترنم بها كاللحن الجميل والأغنية الساحرة .

* * *

« حبيبى ...

أترانى أخاطبك أم أخاطب نفسى ؟

إنى واثقة من أن حديثى لن يبلغك ، وما أحسست من هذا بضيق ولا حزن ، فما أردت بكتابتى أن أبلغك إياه ، لأنى لا أجسر على هذا ، ولا أرجو منه أية فائدة .

كيف لا وأنا أعلم علم اليقين أنى فى نظرك مخلوقة غير كائنة ، أو كائنة كالملايين غيرها من الكائنات التى لا تعنى لديك شيئا خاصا .. بل تمر بذهنك مرورا عابرا دون أن تترك أقل أثر ودون أن يكون لها استقرار فى نفسك إلا لحظة مرورها بك .. أما بعد ذلك فتصبح نسيا منسيا .

أنا أكتب لك — أو لنفسى — لأن ذلك هو خير ما أملك ، ويعلم الله ماذا كان يمكن أن يحدث لى لو لم أروّح عن نفسى بهذه الكتابة .. إن لى فيها عزاء .. إنى أفرغ بها جمرات من الوجد تتأجج فى صدرى وتستعر فى قلبى ، وأهيئ بها لنفسى من متع الأوهام ما يعوضنى عن شقاء الواقع وظلمات الحقائق .

إنى أحبك .. أقولها ولا أخشى لومة لائم .. فما من أحد يستطيع سماعها إلا أنا ، وما من أحد يستطيع أن يشعر بحبى إلا أنا .

إننى أحبك ، أحبك ، دعنى أرددها .. فإن فى مجرد ترديدها متعة كبرى .. إنى أحس منها بنشوة عجيبة .. وكأنى وأنا أقولها أضع رأسى على صدرك وأترك شعرى لأصابعك تتخلله وتعبث به .

ألم أقل لك إن فى الكتابة إليك خير عزاء ؟ إنى أستطيع أن أكتب بشجاعة وصراحة وأن أقول كل ما أتمنى قوله ، دون خجل ولا خشية . إنى أتمتع بحرية فى الكتابة لا أظننى كنت أستطيعها لو خاطبتك وجها لوجه .. أو حتى لو علمت أن كتابتى هذه ستصل إليك وتبلغ مسامعك .

دعنى أجول بك جولة فى ربوع الماضى ، نعبر القفار ونخترق الآكام .

دعنى أشرح لك كيف كنت أراك وأرقبك وأتتبع خطاك ، وأنا أكاد من الوجد أذوب ، وأنت عنى — سامحك الله — معرض ساه .

كانت أول مرة رأيتك فيها ، وقد مررت بدارنا فى ذهابك إلى كليتك ، وكنا قد انتقلنا حديثا إلى الدار التى اشتريناها ، ثم تعودّت أن أبصرك بعد ذلك كل صباح عندما كنا — أنا وأختى — نقف أمام الباب فى انتظار عربة المدرسة ، وعلمت — حينئذ — أنك تقطن فى دار مجاورة كائنة وراء دارنا .

ومرت الأيام وأنت تمر بنا مرورا عابرا حاملا حقيبتك المليئة بالكتب ، والمسطرة حرف T تحت إبطك وقد بدت عليك علامات الجد والوقار كأنك « باشمهندس » كبير ، لا طالب هندسة ، ولم تكن تعيرنا كبير اهتمام .. لمظهرنا الصبيانى .

وهكذا ظللت لا تزيد فى نفسينا عن أن تكون إحدى ظواهر الشارع الثابتة الميعاد كبائع اللبن أو عربة الرش أو ساعى البريد ، أو .. إن شئت الصدق .. أفضل قليلا .. بوسامة منظرك وامتشاق قوامك .. حتى التقينا بك يوما فى سينما مترو ، وقد وقفت أمام شباك التذاكر فى مقدمة الصف الطويل الذى اصطف فيه جمهور غفير ممن يريدون الدخول .

ولم يكن هناك أمل فى دخولنا ، فقد كان احتشاد الناس يبعث على اليأس .. وهممنا فعلا بالعودة ، أنا وأختى وأخى ووالدتى ، ولكن عندما لمحتك واقفا فى الصف الأول ضربت أختى بمرفقى ألفت نظرها إليك ، والتقت أبصارنا فابتسمت وأشرت برأسك محييا .

استغلت أختى فرصة ابتسامتك — وهى تفوقنى جرأة واستغلالا للفرص — فتقدمت إليك وسألتك أن تبتاع لنا أربع تذاكر ، وأخذت النقود من أخى فدفعت بها إليك ، ولبيت الرجاء بابتسامة لطيفة وحاولت أن تمتنع عن أخذ النقود ، ولكنها ألحت عليك فقبلتها مرغما .

وابتعت التذاكر ودخلنا معا ، بعد أن أنقذتنا من ضيق العودة إلى الدار خائبين ، وقمنا بواجب التعارف بينك وبين أمنا وأخينا .. ولم نكن نعرف عنك سوى أنك جارنا الطالب بالهندسة ، أما غير ذلك فقد كنا نجهله ، حتى اسمك لم نكن نعرفه .

وكانت المقاعد الخمسة متجاورة ، فتم تعارفنا خلال فترات الراحة ، وسألتك والدتى عن والدتك وأنبأتك أنها « واخدة على خاطرها منها » لأنها كان يجب أن تبدأها بالزيارة فاعتذرت بأنها كانت مريضة وأكدت لها أنها ستزورها فى

أقرب فرصة .

وعدنا معا إلى دورنا ، ووجدتك على غير ما كنت أتصور ، حلو الحديث ، حاضر النكتة ، لطيف المعشر ، لا أثر فيك للتكلف أو الغرور ، (النفخة) التى كنت تبدو بها وأنت تسير أمامنا حاملا المسطرة حرف T .

وأستطيع أن أجزم أن بداية حبى لك كانت فى تلك الليلة ، وقد كانت هى نفسها بداية يأس وبداية إحساس بالخطر .

« رحم الله امرأ عرف قدر نفسه » .. وأنا ما طمعت فى رحمة الله إلا لهذا السبب . فأنا أعرف تماما قدر نفسى ، أعرف أننى لم أهب الكثير مما يسبى ويفتن ، وأعرف أن جمال باطنى يفوق كثيرا جمال ظاهرى ، ولم أحاول أن أدع المرآة تخدعنى وتموّه علىّ . أو أن أقنع نفسى بخطأ مقاييس الجمال ، وأفهمها أن الشعر الخشن أجمل من المسترسل ، وأن السحر يكمن فى العيون الضيقة والحواجب الثقيلة .

كنت أعرف أن وجهى قد يكون مقبولا ، ولكنه ليس بالوجه الجميل ، وأقسم لك أن ذلك لم يكن يسبب لى أى ضيق ، فقد كنت منطوية على نفسى لا آبه بمن حولى ، والإنسان لا يهتم بصورته إلا لتأثيرها على من حوله ، فإذا كان لا يهتم بهم ، فهى عنده غير ذات موضوع .. لقد كنت فى شغل شاغل عن الناس وعن نفسى ، بالرسم والقراءة والموسيقى ، ومحاولة الكتابة وقرض الشعر .

لقد كان ظاهرى صامتا ، أما باطنى فقد كان يصخب بالمشاعر والأحاسيس .. لقد كنت غنية عن الناس بنفسى ، وكنت أملك فى جوفى كل عناصر الاستقلال الذاتى .

وأرقت تلك الليلة فلم يغمض لى جفن حتى ساعة متأخرة من الليل .

وأحسست لأول مرة أن جمالّ باطنى لن يغنينى شيئا ، وأنى لم أعد غنية بنفسى ، وأنى فقدت استقلالى الذاتى ، وبت أشعر أنى مخلوقة ضعيفة ذات سلاح مثلوم مغلول مغمور فى غمده .

فكرت فيك كثيرا فى تلك الليلة ، وبدا لى أنى أصبت بحبك منذ زمن طويل .. منذ رأيتك أول مرة تمر بدارنا . ولكن جرثومة الحب ظلت كامنة حتى هذه الليلة عندما جلسنا متجاورين وتلامست كتفانا ثلاث ساعات فى الظلام .

وكان يجب علىّ ، وقد أصبت بلوثة الحب ، أن أغمض عينى وأمتع بأوهام العشاق ، وأن أعلل النفس بالآمال ، وأمنيها بأعذب الأحلام .. ولكنى لم أجسر على ذلك ، فقد اندفع فى نفسى — مع إحساسى بحبك — إحساس باليأس منك .. ففى لحظة واحدة دق فى قلبى ناقوسان : ناقوس الحب وناقوس الخطر .. أو ناقوس عرس وناقوس جناز .

كنت أعلم من اللحظة الأولى أنى مقبلة فى حبك على معركة لا قبل لى بها ، وأنى سأعجز عن خوضها ، وسأولى منها فرارا ، ولقد فررت منها فعلا ، ولكن بعد أن أصابنى السهم فى الصميم ، فانطويت على نفسى وأخذت أنزف ببطء .

كان خصمى فى المعركة هو أختى .. لقد دققت أنت ناقوس الحب ، ودقت هى ناقوس الخطر .. ولا أظن المعركة قد نشبت بيننا قط ، فقد ألقيت السلاح واستسلمت من اللحظة الأولى ، وأخليت لكما الميدان ، ووقفت أرقبه محسورة .

لقد كان من الجنون أن أغامر فى معركة ضد أختى ، وقد وهبها الله أمضى أسلحة الجمال وأرهفها حدا : من شعر كأمواج الليل ، ووجه جذاب الملامح حلو التقاطيع ، وجسد فارع ممشوق .. وأكثر من هذا كله شخصية مسيطر متحدثة تتضاءل بجوارها شخصيتى .

وهكذا كسبت المعركة من الجولة الأولى ، ولم يعد هناك شك فى أنها استأثرت دونى باهتمامك فى أول لقاء .. وفى كل لقاء .

وحضرت والدتك لزيارتنا فى اليوم التالى ، ثم أخذت العلاقات بيننا تتوطد ، وكثر التزاور بين العائلتين ، وأقبلت علينا متذرعا بالصداقة التى نشأت بينك وبين أخى ، ورفعت بيننا الكلفة فأضحينا نراك فى دارنا فى أى وقت ، وأضحينا

نقضى فى بيتكم وفى حديقتكم شطرا كبيرا من فراغنا .

ولو كان قلبى بيدى ، لما ترددت لحظة فى أن أحوله عنك وأسكت دقاته العنيفة المتواصلة التى تتواتر كلما لاح له طيفك أو طافت به ذكراك ، ولأرحته منك وأرحت نفسى منه .. ولكن أمره لم يكن بيدى .. لقد كان ثائرا متمردا ، أحمق طائشا ، مصرا على حبك بلا تفكير ولا أمل .. أثمله الحب فلم يعد يرجو سوى أن يبقى فى ثمله ونشوته ، راقصا مترنحا يصفق لك ويهفو إليك .

وأصابك من الحب ما أصابنى ، وكنت أقدر الناس على فهم مشاعرك .. لقد شغفت بك وشغفت أنت بأختى ، بت مجنونة بك وبت أنت مجنونا بها .. وما ألومك وما ألوم نفسى .. فقلوبنا حرة تخفق لمن تشاء .. وتحن لمن تشاء .. وقد استسلمت لقضاء الله من أول الأمر ، ولم يعد هناك مجال للوم .. وهل يلام إنسان لأنه لم يستطع رد القضاء ؟

أما الذى يستحق اللوم حقا فهى أختى .. ولقد أخطأت أنا فى حبك ولكنى كنت مخلصة فيه ، وأخطأت أنت بحبها ولكنك لم تكن تقل عنى إخلاصا . أما هى ، فما أحبت وما أخلصت ، ولكنها كانت بك لاهية عابثة مخادعة .

أنا لا ألومها لأنها لم تحبك . وإن كنت أعتبر هذا غباوة منها ، وأرى حبك شرفا لا تستحقه ، ولكنى ألومها على أنها تظاهرت بحبك ، حتى لقد استغربت ذلك منها وأنا التى أعرفها أكثر من نفسها .. مخلوقة أنانية مادية ، تسخر من المشاعر ، ولا تؤمن إلا بالمادة والواقع الملموس .

لقد كانت تتسلى بك ، وما حاولت قط أن تحمل حبك محمل الجد ، وأقبلت عليك إقبالها على شىء جديد ، أو على تجربة .

وهكذا بدأت التجربة بثلاثتنا .. أنا أحبك ، وأنت تحبها،وهى تتسلى بك وتعبث .

وأخذت أرقبكما فى صمت وسكون .. وأقول لك الحق إننى بدأت أكرهها لا عن غيرة ولكن من أجلك .

بدأت أحس لها ببغض ونفور ، مع أننا قد نشأنا معا طول العمر ، فما كانت تكبرنى بأكثر من عام ، وما افترقنا فى حياتنا لحظة واحدة .

إنى لم أكرهها لأنك أحببتها ، وما كنت بمبغضتها لو أنها نظرت حبك نظرة جدية ، فأحبتك مخلصة .. ولكنى أبغضها لأنها استخفت بك وبحبك وجعلت منك مسلاة .

وسار كل منا فى طريقه ، أنا ممعنة فى حبك ، أرقب من نافذتى فى سكون الليل حجرتك ، وأتطلع إلى شبحك مكبا على المكتب للاستذكار .. أنظر إليك فى حنين وشوق ولهفة ، وأظل ساهرة :

أناجى النجم وأتبعه   وأقيم الليل وأقعده

لا يغمض لى جفن حتى تأوى إلى فراشك وتسود الظلمة مضجعك .

لقد حفظت من طول المراقبة كل حركاتك وسكناتك ، وبت أعرف قبل أن تفعل أى شىء ، ما توشك أن تفعل ، ولم أكن أرى من حجرتك إلا المكتب وطرف الفراش ، ولكنى كنت أتصور بعين الوهم ما وراء الجدران .

فأرى الحجرة كأن جدرانها قد شفت ، وأراك تغدو فيها وتروح .. ثم ترقد على الفراش وتتمطى ، ثم تضع الوسادة فوق رأسك كما قلت لأختى ذات مرة .

وجرؤت مرة ودخلت إلى حجرتك ، وكنا فى زيارتكم فغافلتهم وتسللت إليها .. ولم أجدها غريبة عنى ، فقد كان كل ما بها تماما كما تصورت ، وجلست أمام مكتبك ، ورقدت على فراشك ، ووضعت رأسى على الوسادة حيث تضع رأسك ، وقبلت موضع فمك ، وشممت بقايا أنفاسك .. ثم غادرت الحجرة بعد أن سرقت شيئا أو على وجه أدق ، سرقت شيئين : صورتك ، ومنديلا ملقى على المكتب .. وما زلت أحتفظ بهما حتى الآن ، ذخيرة العمر وخلاصة متاع الحياة .

وسرت أنت فى طريقك .. وكان حبك لها كحبى لك قويا جارفا جعلك تغمض عينيك عما سواها .. وتتلمس المعاذير للحضور إلينا فإذا ما جلست معنا

أخذت تغمرها بنظرات ملؤها الصبابة والشوق والولع ، ثم بدأت تسوق إليها الهدايا وتشركني فى بعضها ذرا للرماد فى العيون .. ولم يضايقنى ذلك قط بل كنت به راضية قانعة .

كنت أحس أن أقصى متعة لى هى أن تكون أنت راضيا ، فأخذت أهيئ لك الرضاء عن طريقها .. أستيقظ فى الصباح فأجمع الورود ثم أوقظها وأسألها أن تحملها إليك .. وأظل أدخر من مصروفى كل دانق حتى أبتاع لك أسطوانة قلت ذات مرة أنها تعجبك ، وأقدمها لها قائلة إننا يجب أن نرد بعض هداياك التى غمرتنا بها .. فإذا ما قالت إنه مفروض فى الرجل أن يقدم الهدايا ، قلت لها إنها لن تكلفها شيئا سوى تقديمها إليك ، وإنى سأتحمل الثمن كله .

وكنت أعلم تماما مبلغ سرورك بتلك الهدايا التى تحملها إليك ، وخاصة أنك تظن أنها هداياها هى .. وأنها ليست مجرد حاملة لها .

وكنت أسألها بلهفة كيف تقبلتها ، وأطلب منها أن تصف لى رضاءك وسرورك ، وكان هذا هو كل ما أطلب .. لقد كان حسبى منك ، إحساسى بهنائك ، بأية وسيلة ، ومن أى طريق .

أما هى ، فقد سارت فى طريقها معك فترة وجيزة ، ثم أخذت تنكص على أعقابها ، كما كنت أتوقع ، إذ أصابها الملل وتملكتها السآمة ، وجعلت تتهرب منك وتلقاك بفتور .

وكنت أول من أحس بما أصابك من ضيق ولوعة .. وأصابتنى من لوعتك لوعة أشد ، وحز فى نفسى ما بدا عليك من شرود حزن .. وأحسست أن حبى لك يزداد عنفا .. وتملكتنى رغبة جارفة فى أن أدفع عنك الحزن وأبعد عنك الشجن .. ووجدت أن من واجبى أن أعلم أختى أو غريمتى فى حبك .. كيف تحبك .

ومرت الأيام وأنا أحاول أن أعيدها إليك ، وأن أغرس حبك فى قلبها ، أو أنقل إليها من قلبى عدوى حبك ، وكنت أجلس إليها الساعات الطوال أحاول

أن أسمو بها إليك ، وأعلمها الحب الصحيح ، وأريها منك ما لا يراه سواى أنا المدلهة .

وأفلحت إلى حد ما .. واستطعت أن أجعلها تلقاك فى الحديقة كل ليلة .. وهيأت لكما لقاء تتناجيان فيه وتنعمان بحبكما ، أو على وجه أصح ، تناجيها فيه ، وتنعم بحبها ، وكنت أجلس على مقربة منكما خشية أن يفاجئكما أحد ، وكأنى كلب أمين لا همّ له إلا حراسة سيده ، والسهر على راحته وأمنه وطمأنينته .. وهل لى من سيد سواك أسهر على راحته وأمنه وطمأنينته ؟

وهكذا ظللت أدفعها إليك ، وأسوقها إلى حبك ، وإلى لقائك ، حتى كان ذلك فى ليلة ليلاء عاصفة الريح شديدة البرد ، وكنت أجلس وراء زجاج النافذة أرقبك فى حجرتك كما تعوّدت أن أفعل .. وكان البيت غارقا فى صمت عميق والأهل كلهم قد استغرقوا فى النوم ، عندما سمعت على السلم حركة مريبة ، ووصل إلى سمعى وقع أقدام تسترق الخطى ، وأصخت السمع فانقطع الصوت .. ولكنه عاد مرة أخرى .. وقمت من مكانى فاتجهت إلى السلم . فإذا بأختى تقف فى نهايته ، ودهشت ليقظتها وسألتها ما بها .. فأجابت بأنها أرقت وأنها تبحث عن قرص أسبيرين لأنها تحس فى رأسها صداعا .

وعدت إلى حجرتى ، وبدأت الوساوس تملأ رأسى .. لقد كنت أحس من أختى فى بضعة الأيام الماضية ما يبعث على الريبة .. وكنت أراها تختفى من الدا فجأة دون أن أعرف إلى أين ذهبت .. كنت أرى فى ملامحها شرودا وتفكيرا . وكنت أشك كثيرا فى أن شيئا ما يشغل بالها ، وأن شخصا جديدا دخل فى حياتها .

وتركت حجرتى مرة ثانية وهبطت إلى الطابق الأسفل فراعنى أن أجدها واقفة بالباب الخارجى وقد حملت حقيبة فى يدها ، وأبصرت على باب الحديقة عربة تنتظر وبداخلها شبح لم أستطع تمييزه ، ولكنها أسرعت تعدو هاربة إلى الخارج واتخذت مكانها فى العربة .

وبلا تفكير عدوت وراءها لأمنعها من الفرار وارتكاب تلك الحماقة الكبرى ، خرجت من باب الحديقة والعربة تهم بالحركة واستطعت أن أتعلق بمؤخرتها قبل أن تمعن فى السير .

وصممت على أن أعيدها ، وأن أمنعها مماتوشك أن تنزلق إليه من أجل إنسان واحد .. هو أنت .

وأخذت العربة تعدو فى الطرقات المظلمة ، والريح تصفر فى أذنى ، والبرد ينخر فى عظمى ، دون أن يستر جسدى سوى قميص خفيف .

وأخذت أنكمش وألصق جسدى فى العربة ، وأطبق يدى متشبثة بقطعة الحديد التى أمسك بها .. حتى أحسست فجأة بالعربة تعلو وتهبط ثم تدور فى منحنى ، وأفلتت يداى وشعرت بأرض الطريق تقرع رأسى ولم أفق بعد ذلك إلا وأنا طريحة الفراش .

وحمدت الله رغم ما أصابنى لأنى نجحت فيما أردت ، فقد عادت معى أختى إلى الدار بعد أن سمعت صيحتى ، وأنا أسقط إلى الأرض ، وادعت أمام أهلنا أننا خرجنا معا للتريض فمرت بى عربة صدمتنى ، ولم يكن أحب إلىّ من أن أوافق على قولها .

إنى أرقد فى فراشى سعيدة بما فعلت .. فإنى ألمح الندم يملأ وجهها ، وسعيدة أكثر بزيارتك لى ، وعطفك علىّ .. حتى بت أتمنى أن تكون حياتى سلسلة حوادث وصدمات حتى أحظى منك بهذا العطف .

ولكن لا .. لا أظن القدر ينعم علينا حتى بالحوادث والصدمات ما دمنا نطلبها ونحتاج إليها ونفيد منها .

كل ما أوده أن يهديها الله ويغرس فى قلبها حبك حتى تعيش هانئا .

* * *

هذا هو ما وعيته من كتابها وحفظته عن ظهر قلب .

لقد كتبته ثم رحلت بعد بضعة أيام ، قضت عليها الصدمة والالتهاب الرئوى

الذى أصابها فى تلك الليلة ، وقد عثرت أختها على الوريقات فأخفتها عن أهلها ثم حملتها إلىّ ذات ليلة وسألتنى أن أنساها لأنها لا تستحق حبى ، أما الذى تستحقه فهى صاحبة الوريقات .

وما أظننى كنت فى حاجة إلى نصحها بعد أن قرأت الوريقات .

من يصدق هذا ؟ من يصدق أن ذلك النموذج السامى كائن بين البشر ؟

إن الأيام تمر بى والحنين لا يخمد والشوق لا ينطفئ .. أجلس فى بهمة الليل شارد الذهن تائه ، باكى المقلة ذابلها ، أرقب نافذتها المظلمة وأتطلع إلى شبحها .

حيران القلب معذبة   مقروح الجفن مسهده

ويهتف بى صوت يسرى مع الرياح : « ألم يندمل القرح ؟ » فأقول : « بل زاد نكأه » ويقول : « ألا يعزيك عن الراحل شىء ؟ » فأقول : « إن العزاء لا يتطاول إليه ».ويقول : « أتضيع عمرك وراء أمل خاب ؟ » فأقول : « لست أول من أضاعه » . ويقول : « أتعشق الرميم ؟ » فأقول : « والرماد والهشيم » . ويقول : « تكاد تجن به ».فأقول : « وأوشك أعبده » .

* * *

فى الليل لما خلى

فى الليـــــل لما خلى   إلا من الباكـــــى
والنوح على الدوح حلى   للصارخ الشاكـــى
ما تعــرف المبـــتلى   فى الروض من الحاكى
(شوقى ـــ عبد الوهاب)

أخذت أصابعها تعبث بالرسالة وهى شاردة واجمة ثم أطبقت عليها فجأة وتملكها يأس بالغ وحزن شديد .

هذه سخرية جديدة ، من سخريات القدر !

ضحكة أخرى ماجنة من ضحكاته التى يأبى إلا أن يلاحقها بها ، فينفث بها السم فى جوفها .. ويحرك منها الشجن ويثير اللوعة .

لو أنه تركها فى ظلمات يأسها الحالكة ودياجير وحدتها الموحشة ، لاستطاعت ، رغم ما بها ، أن تحتمل .. فكل بلاء فى هذه الحياة يمكن احتماله بطول الأناة والتعوّد ، وكل مصاب لا بد أن يوهن الزمن من حدته .. ويخفف من وطأته .

وهى قد تعوّدت الشقاء حتى استساغته ، وأنست إلى اليأس حتى لم تعد تذكر أن هناك شيئا يسمى الأمل ، ووطنت النفس على الوحدة حتى باتت من وحدتها فى اطمئنان وأمن .

ترى لم يأبى عليها القدر هذا الاطمئنان إلى الوحشة ، والراحة فى اليأس ؟ أعلى الشقاء لا تخلو من الحسد ؟

لم يأبى القدر إلا أن يذكرها بما هى فيه ، ويلوح لها بالأمل ، بعد أن أضاع الأمل ؟

أكلما اندمل جرح ، دمى جرح ؟ وكلما شفى قرح ، نكئ قرح ؟..

أكلما تعوّدت الظلماء ، أراها من الضياء قبسا ، ومن النور بارقة ، فلا تكاد تتعلق بهما ، حتى تذروهما الرياح وتتركها فى ظلمة أشد وبهمة أحلك ..؟

ولكن لم تتعلق هى بهذا الشعاع الكاذب ، والقبس البراق ؟ لم لا تغمض عينيها فلا تعود تحس بألم الخدعة ، ومضاضة الوهم ..؟

إنها تحاول ، ولكن لا تستطيع .

أى تائه فى الحلكات يستطيع أن يغمض عينيه ، عن بارقة تلوح ، مهما كانت كاذبة ؟

أى صادٍ ، يمكنه أن يعرض عن سراب يلمع ، مهما يكن كاذبا خداعا ..؟

إن النفس الحزينة لتتوق إلى العزاء ، حتى ولو كان نفاقا فى نفاق .

وهكذا كانت تقبل ، فى كل مرة ، على البارقة الكاذبة ، والسراب الخادع ، والعزاء المليء بالمرارة والسخرية .

فى كل مرة كانت تصيبها نفس المتعة ونفس النشوة . وفى كل مرة أيضا ، كانت تعقبها نفس الصدمة ونفس اللوعة .

فى كل مرة كانت تندفع مع القدر الساخر إلى قمة الأمل ، وفى كل مرة كانت تهبط معه إلى قرارة اليأس .

وها هى أخيرا ، تمسك فى يدها بسخرية جديدة ، بارقة تلوح ، وسراب يلمع .

نفس الحديث الملتهب ، والجمل المليئة بالوله والصبابة والألفاظ الشاعرية العطرية ، التى تفوح من خلالها رائحة اللهفة والشوق .

عزيزتى ...

لا أشك فى أنك لا تعرفين من أنا . ولا أى إنسان بين المخلوقات أكون ، ولا أظننى قد كتبت إليك هذا لأعرفك به ، فذلك أمر قد لا يهمك معرفته — على الأقل فى وقتنا هذا — فأنا لا أعدو أن أكون بالنسبة إليك ، أحد آلاف المجهولين

الذين لا تحسين بهم والذين لا تربطك بهم صلة مهما وهت أو يشدك إليهم وثاق مهما رق واضمحل .

ولكنى كتبت إليك هذا ، لأعرف من تكونين ..؟

من تكون هذه الساحرة التى أصابنى منها مس غيَّر كل ما بنفسى وقلبنى رأسا على عقب ..؟

أنت بغير شك لا تحسين ما فعلت بى ، بل أغلب ظنى أنك تروحين وتغدين فى الحياة ناعمة البال مطمئنة الخاطر ، كأنك لم تقلبى كيان إنسان ، ولم تلهبيه وتؤججيه ، بل من يدرى ؟ إننى لست أول من تفعلين به هذا ، لأن هذا هو طبيعة عملك فى الحياة ، تباشرينه ببساطة كما يباشر أى إنسان مهنته التى تعوّدها عشرات السنين ، حتى بات يفعلها دون أن يدرى ما يفعل .

اعذرينى إن أسهبت ، فما حيلة محروم منك ، مسلوب نعمة لقائك ، إلا أن يلجأ إلى لقائك على الصفحات ، يسهب فيطيل اللقاء ، ويبسط قلمه فيزيد الوصل .

هل تذكرين كيف التقيت بك أول مرة ؟ لا أظنك ! فإن الشىء الذى قد أراه حدثا يصح أن يؤرخ به التاريخ ، قد يكون عندك تفاهة تتكرر فى حياتك كل يوم .

على أية حال ، تذكرين أم لا تذكرين ، إنى أذكر جيدا ، ذلك الحدث الذى غير مجرى حياتى .

أذكر أول لقاء لنا ، على متن الريح ، لقاء فى الهواء لا وجها لوجه ، بل صوتا لأذن .

لقيتك ذات ليلة والنفس حزينة والذهن شارد مكتئب وقد جلست فى الشرفة ساهرا مسهدا ، أعد — كما يقولون — نجوم الليل ، وأسمعها الشكوى وتسمعنى الأنين .

كنت وقتذاك نموذجا لإنسان بائس يائس ، يزخر كيانه بالتعاسة ، وتفيض

نفسه باليأس .

كنت أكره الدنيا ، وأكره الناس .. كنت أتذوق طعم المرارة فى كل قطرة من كأس الحياة ، وكنت أشم رائحة اليأس فى كل هبة من ريحها .

كنت أتململ تململ السليم الذى أرقه السهد وأسائل نفسى : لم نحيا ؟ وما الذى سنجنيه من طول عناء وكد وامتطاء لمركب صعب ؟ لم كل هذا ؟ وما الذى يغرينا بالصبر والاحتمال ؟

كنت أسائل نفسى ، فيعيينى الرد ، حتى حملت الريح إلىّ فى تلك الليلة الجواب ، فأحسست — بعد طول حيرة وهيام — بأنى قد استقررت بعد بحث على مقر ، واهتديت أخيرا إلى مرفأ .

فى تلك الليلة جلست أرقب الكون وقد سكنت أحشاؤه وركدت ريحه ، وبدت الكواكب قد علاها الشحوب وأضناها الكلال ، وزادت وحشة الليل وبهمته من وحشة نفسى .. فى وسط هذا السكون العجيب المخيم حمل إلىّ نسيم الليل الهادئ صوت موسيقى ناعمة هادئة ، تنبعث فى أجواء الفضاء كأنها نفس من الفردوس أو نغمة من السماء ، وأحسست بالنغم الجميل ينفذ إلى نفسى فى لين لظاها كأنما هى كف رطبة ندية تمسح بحنان رأسَ محمومةٍ التهب لظاها واحتدم سعيرها .

وكان اللحن يصل إلى أذنى خافتا كالضوء الشاحب .. والشعاع الكليل والقبس الواهن .. كان يصل إلىّ مترنحا متقطعا ، ذوّب النسيم أوصاله ، ورقق أعطافه ، فانساب إلى النفس كأنه فتات من أصوات الملائكة ، أو كأنه عطر لنغم فياض أو مسحوق للحن طرب .. انتشرت ذراته فى الهواء .. وتسللت إلى الصدور .. واستقرت فى الحنايا .. واختلطت بشغاف القلب ، فتركت النفس نشوانة كأنها حقنت بمخدر أو ثملت بخمر .

ترى هل استطعت أن أبين مشاعرى .. أم أن حديثى يبدو كلاما منمقا مزركشا ؟. هل استطعت أن أصف جيدا وقع اللحن فى نفسى .. أم أنى لم أزد فى

قولى عن خيال الشعراء ؟

قد أكون ، وقد لا أكون .. فقد يفهم البعض قولى ، ولا يفهمه البعض الآخر . بل أغلب ظنى أنه لن يفهمه إلا من جلس مثلى حزينا فى جوف الليل ، وحمل إليه النسيم مثل لحنك الخافت الناعم الذائب ، فمنه ما يشبه السحر . خلاصة القول ، لقد وجدت نفسى بعد لحظات واللحن يسرى إلىّ ويملك حواسى ويهز مشاعرى ، وكأن ما بى من حزن قد صهر ، وإذا بعينى تدمع ومقلتى تهمى وإذا بجامد الدمع فيهما قد ذاب .

واندفعت فى نوبة من البكاء حارة مغرقة . أبكى وأبكى . أنا الذى طالما استعصى علىّ الدمع وجفت مآقى ، وظلت الأحزان تتكتل فى نفسى دون أن تجد لها مخرجا ، حتى بت كأنى جلمود يأس وصخرة حزن .

وهكذا استطاع لحنك الهادئ فى جوف الليل أن يفتت حزنى ويذيب دمعى .. ووجدت نفسى — أنا الرجل الرشيد العاقل — أبكى كالأطفال ولا حياء .. بل لقد أحس من بكائى راحة وهدوءا .

وانتهى اللحن .. وخفتت الموسيقى .. وابتلعهما سكون الليل البهيم ، ووجدتنى أعود إلى فراشى — لأول مرة — قرير النفس هادئ البال وملء أذنى صدى النغم .. وملء جوانحى صوتك الحنون .. يهتف ناعما خافتا :

فى الليـــــل لما خلى إلا من الباكـــــــى

كان ذلك أول لقاء بيننا .. لقاء — كما ترين — على أجنحة النسيم .. لقاء أرّخ مولدى من جديد .. وبدّل حياتى .. وغيّر مشاعرى .. لقاء كان يعتبر بالنسبة لى .. بعثا .. وإن لم تشعرى به أنت .

وكذا بدأت أنتظرك ليلة بعد ليلة .. أبدد بألحانك أحزانى .. وأضىء ظلمة نفسى .. وباتت موسيقاك فى جوف الليل .. ألزم إلى نفسى من كل ضرورات الحياة .

وبدأت أبحث عنك وأستقصى أخبارك فعلمت من خادمى أنك تقطنين على

مقربة منا .. وأنك منطوية على نفسك .. متباعدة عن الناس .. ميالة إلى الوحدة .. فزادت لهفتى عليك ووجدت فيك صنوا لنفسى .

ومرت الأيام وأنا قانع منك بهمساتك الرقيقة وموسيقاك العذبة ، وبلقاء فى جوف ليل خلا .. إلا من الباكى .

إنى أتمنى لقاءك ، ويبدو لى أنك أرق من أن تخيبى لمخلوق رجاء أو تردى لإنسان مطلبا . وأؤكد لك أنى لن أضايقك كثيرا .. ولن أثقل عليك من فؤادى الملآن وصدرى المفعم .

هل تسمحين بلقاء ؟.. إنى واثق أنك لن تقولى لا .

* * *

وتهاوت الرسالة بين يديها ، وهزت رأسها فى يأس ، وهمست فى إصرار :

— بل ، سأقول لا ، وألف لا .

كفاها مرارة وخيبة . وكفى القدر سخرية منها .

وأكثر من هذا ، ستبطل الغناء والعزف فى سكون الليل ، عزاؤها الوحيد فى هذه الحياة ، ستكف عنه ، ما دام هو السبب فى هذه السخرية .

إنها تذكر الرسائل السابقة ، كانت تفيض رقة وولها ، من عشاق ، جذبتهم ألحان الليل ، وأوقعتهم فى حبها . فأرسلوا إليها مشاعرهم المتأججة يطلبون اللقاء ، وأصابتها من مشاعرهم نشوة أنستها ما بها ، وغرها الأمل البراق ، فاندفعت إليه . وكان اللقاء وكانت الصدمة .

لقد خيل إليها فى كل مرة أن تلك المشاعر المتدفقة والحب الملتهب ، سيتجاوز عما بها من تشويه ، ذلك التشويه الذى أصاب جانب وجهها من جراء الحريق الذى أصابها فى طفولتها ، وكان الأمل يدفعها فى كل مرة إلى أن تلبى النداء وتذهب إلى اللقاء ، ثم تعود منه ملومة محسورة ، وهى تتخبط كالطير الذبيح .

أهؤلاء هم العشاق الذين يذوبون وجدا وصبابة ؟ أهؤلاء هم الذين كانوا يتلهفون على لقائها ؟

ماذا أصابهم حتى لقوها بمثل هذا البرود والجمود وانصرفوا عنها ، كأن ألحان الليل قد تطايرت وتبددت ، أو كأنها قد أضحت نواحا وبكاء ؟

لا ، لا ، إنها لن تخدع فى هذه المرة ، خير لها أن تظل فى جحرها المظلم ، من أن تخرج منه لتعود إليه كافرة به ثائرة عليه .

وأمسكت الخطاب فمزقته إربا .

* * *

وأقبل الليل فجلست تعزف وسط السكون المخيم ، وانبعث اللحن حزينا شجيا ، كأنه صادر من قلبها المحطم وفؤادها اليائس المدلهم .

وفجأة أحسست بحركة قرب النافذة ، وفى الظلمة الدامسة لمحت شبحا يقف .

وأصابها من رؤيته هزّة ، وارتجفت من قمة رأسها إلى أصبع قدميها .

ماذا تفعل به ؟

أتصده وتنكره ، قبل أن يصدها وينكرها ؟

وفجأة طاف بذهنها خاطر ومض فيه كلمح البرق .

لم لا تلقاه فى ظلمة الحديقة فتستعين بالظلام على سخرية القدر ، وتتمتع معه بلقاء لا مرارة فيه ولا خذلان ..؟

وهمست به .. إنها قادمة .

وبعد برهة قصيرة ، كانت الظلمة قد لفتهما فى إحدى خمائل الحديقة .

كان يجلس فى الظلام مطرقا برأسه ، متكئا على عصاه ، وكانت تجلس عنده متباعدة مشيحة بوجهها ، وقد أخذ قلبها يدق بشدة وعنف ، وأخذت تدعو بكل ما فى نفسها من حرارة : « ليته لا يرى » .

وتحدث هو ، فخرج صوته من صدره عميقا مخلصا شجيا ، حدثها عن ألحانها وموسيقاها ، وعن مدى تأثيرها فى نفسه وكيف أنها أنقذته من وهدة اليأس ، وبددت أحزانه .. ثم حدثها عن حبه لها ، وكيف أنه بات يحس أنها قد

أصبحت جزءا منه .

وأصابتها من حديثه نشوة ومتعة ، فما سمعت من قبل مناجاة عاشق مستهام ، وما أحست أنها تحب .. إلا على صفحات الورق .

وحمدت الله ، والليل الحالك ، والظلمة المخيمة ، فقد أعاناها على التستر ، ووهباها لحظات حب كانت تتوق إليها .

ليحدث بعد ذلك ما يحدث وليكن ما يكون .. كفى أنها ستستمتع بساعتها .

وبدأ يتحدث عن نفسه ، وقد أطرق برأسه وأخذ يعبث بعصاه فى رمل الحديقة ، وأنبأها أنه يستطيع أن يهيىء لها كل ما تود من راحة وهناء ، وأنه سيبذل لها كل ما يستطيع ، ثم تساءل فى النهاية .. هل يمكن أن يعوض حبه وإخلاصه عن العيب الذى به ؟

ورفعت حاجبيها ، وتساءلت فى دهش عما يقصد .

وبدا عليه اضطراب شديد ، وأخرج من جيبه منديلا يجفف به عرقا تصبب من جبينه ، ثم أنبأها بصوت خفيض مرتجف أنه ضرير .

ومضت لحظة صمت ، بدا فيها كل منهما شارد الذهن غارب البال ، ثم أخذت تقترب منه فى ثقة واطمئنان ومدت يدها فربتت عليه فى رفق وحنان .

وهمست مجيبة :

ـــ ليس هذا عيبا .

ورفع يدها إلى شفتيه وأحست بقطرات من الدمع تبللها .

ثم سمعته يهمس :

ـــ أسمعينى لحنى الحبيب .. لحن البعث الذى أضاء لى ظلمة عينى :

فى الليـــــل لما خلى إلا من الباكـــــــى

وأجابت فى صوت حنون :

ـــ إن الباكى لن يكون بعد ذلك باكيا .

* * *

آه لو شاركتنى

وهفـــا كل فؤاد ، وشدا كل لسان
هذه فاتنة الدنيا وحسناء الزمان
بعثت فى زوق مستلهم من كل فن
مرح المجداف يختال بحوراء تغنـــى
يا حبيبـــى هذه ليلـــة حبـــى
آه لو شاركتـــى أفـــراح قلبـــى

على محمود طه ـــ عبد الوهاب

عودتها فى ساعة غروب ، والشمس الدامية تهبط وراء الأفق من الناحية المقابلة من شاطئ النيل ، ووقفت متكئة بمرفقيها على حافة الشرفة مسندة ذقنها إلى راحة كفيها ، متطلعة ببصرها إلى النهر العريض ينساب فى قوة وأناة ورفق .

لم يتغير شيء ألبتة ، كل شيء ما زال على عهدها به كأنها لم تغادر المكان لحظة واحدة ، حتى الحجرة التى كانت بها قد عادت لتجدها خالية ولتحتلها مرة أخرى ، وتقف فى شرفتها كما تعوّدت أن تقف دائما . وكأن السنين الخمس ما ولت وما انقضت ؟

خمس سنين !

إنها لا تكاد تصدق ، فهى فى وقفتها تلك لا تشعر أن الزمن قد تحرك قيد شعرة . لقد كانت تقف هكذا منذ أيام أو لحظات ، ليس هناك ما يدل على أن بين يومها وأمسها خمس سنوات طوال . اللهم إلا شيء واحد ..

إنه صوت حلو كأغاريد السحر ، يهتف بها من الحديقة بين آونة

وأخرى : « ماما » !

هذا الصوت يجسد لها فعل السنين الخمس ، ويقدم لها الأثر الملموس على أن بين وقفتها هذه ووقفتها تلك ، صنعت السنون هذه المخلوقة العزيزة المحبوبة التى تفصل بين يومها وأمسها .

ولم يكن قد مضى على عودتها أكثر من ساعة أبدلت خلالها ملابس ابنتها وتركتها تنطلق إلى الحديقة ثم جلست تفتح الحقائب وتخرج الثياب لترتبها داخل الدواليب .

وأحست بالتعب يتسرّب إلى نفسها فخرجت إلى الشرفة ترقب النيل والحديقة ساعة الغروب .

وسمعت وقع أقدام تسير فى الغرفة وتلفتت فوجدت « عمتها » مقبلة بوجهها البشوش الضاحك وخطواتها المتثاقلة وهى تتساءل قائلة :

ــ كيف الحال يا عايدة ؟.. أوجدت متسعا لكل ملابسك ؟ إن فى حجرتى دولابا لا أحتاج إليه ، تستطيعين استخدامه كما تشائين .

ــ لا أظننى سأحتاج إلى أكثر من هذا . كيف حالكم أنتم ؟ إن الحديقة تبدو مزدهرة كعهدى بها ، لا شىء قد تغير سوى التكعيبة التى أزيلت واستبدلت بها النافورة .

ــ ما رأيك فيها ؟

ــ آية فى الجمال !

ونظرت « العمة » إلى كوم الملابس وقالت :

ــ دعينى أساعدك فى ترتيبها .

ــ لا داعى لأن تتعبى نفسك . أستطيع أن أرتبها وحدى .

وبدأت المرأتان تتعاونان فى إخراج الثياب ووضعها فوق الأرفف .. وعاود الحديث فقالت عايدة متسائلة عن ابن عمتها :

ــ كيف حال فريد ..؟

ـــ كالحصان .. لقد ذهب ليبتاع بضع حاجات .. ولا بد أنه فى طريقه إلينا . إن شوقه إليكِ شديد .

ـــ وليلى ؟

ـــ لن تعرفيها إذا ما أبصرتها .. لقد صارت شابة .

ـــ لا بد وأن تكون ساحرة فلقد كانت دائما طفلة جميلة .

ـــ لقد أصبحت أجمل مما كانت .. خمس سنين فعلت بها كثيرا .. إنها الآن فى السابعة عشرة ، وهى تبدو عروسا مكتملة الفتنة .

وشرد الذهن بعايدة .. فتذكرت الصبية الشقراء اللاهية العابثة .. وقد أخذت تهتز بها الأرجوحة فى الحديقة .

كانت ليلى ابنة عمها .. وكانت تعيش معهم فى الدار الكبيرة الكائنة فى الروضة على شاطئ النيل ، والتى كانت تضم العائلة المكونة من العمة وزوجها وابنها فريد وابنتى أخويها اليتيمتين : عايدة وليلى .

كانت أياما ممتعة ما أحست عايدة باليتم أو بالمذلة فقد أغدقت عليها عمتها من العطف والمحبة ما جعلها تشعر بأنها لم تفقد أبويها .

إنها تذكر لعبها فى الحديقة ونزهتها على الشاطئ فيعاودها حنين لذيذ وشوق ممتع .

ولم يطل بذهنها الشرود فقد قطعه صوت العمة مستعيدة إياه من شروده ، منادية :

ـــ عايدة !..

ـــ نعم يا نينة .

ومضت فترة صمت ، وبدا على العمة التردد ثم قالت بصوت متهدج :

ـــ لست أدرى كيفَ أنبئك بمبلغ حزنى على ما حدث ، لقد أحسست من موت محمود بصدمة أليمة ، وكنت إذا ما ذكرت وحدتك وغربتك ومبلغ فجيعتك فيه ، أفعم قلبى الحزن والأسى .. لقد كان مخلوقا طيبا كريما وزوجا

مخلصا وفيا ، وأعتقد أنه قد هيأ لك حياة طيبة رضية ، ولكن القدر لا يرحم والموت لا يميز طيبا من خبيث .

وخيم فى الحجرة سكون موحش ، ولم تسعف عايدة الكلمات ، فأطرقت برأسها فى حزن ووجوم .

واستمرت العمة فى حديثها قائلة :

ـــ كانت الواقعة مفاجأة أليمة لنا ، ولكنى مع ذلك تلمست العزاء فى عودتك إلينا بعد طول غيبة . فلشد ما أسعدنى أن أجدك تعيشين بين ظهرانينا مرة أخرى ، وأن تعودى إلينا أنت والطفلة الجميلة .

واحتلت الدموع مكانها من المقل وأخذت تنساب فى هدوء منفسة جهدها عن الصدور المكروبة المحزونة .

وسرعان ما تخلصت العمة من أحزانها وعادت إلى مرحها وبشاشتها ، وحاولت أن تغير مجرى الحديث قائلة :

ـــ اعذرينى أن نكأت قرحك ، ولكنها كلمات كان لا بد لها أن تقال .. هل أضع ملابس نانى فى هذا الدرج ؟

وأخرجت عايدة من صدرها زفرة حارة وأجابت :

ـــ أجل .

ـــ أظن الظلام قد خيم ، ومن الخير أن تنادى « نانى » من الحديقة حتى تتناول طعامها وتأوى إلى فراشها ، سأعد لها الفراش .. اذهبى أنت وناديها من الشرفة .

وخرجت عايدة إلى الشرفة وعلا صوتها مناديا :

ـــ نانى .

ـــ نعم يا ماما ؟

ـــ اصعدى .. لقد حان وقت العشاء والنوم .

وبعد نصف ساعة كانت الطفلة الجميلة ترقد فى فراشها ، وقد أخذ صدرها

يعلو ويهبط فى هدوء وسكينة .

واغتسلت عايدة وجلست إلى المرآة تمشط شعرها المنساب فى حلكة الليل ، وأخذت تتأمل وجهها وهى تضع عليه طلاء خفيفا .

وهتف فى نفسها هاتف يجزم فى ثقة بأنها جميلة فى أوج جمالها ، وقمة فتنتها وسحرها .

ولم يكن الهاتف مغررا أو خادعا ، فلقد كانت حقا آية فى النضارة والحسن ، نضارة امرأة مكتملة الأنوثة ، بالغة النضج والتفتح .

وأخذت تجمع شعرها لتعقصه وراء رأسها .. عندما سمعت خطوات خفيفة سريعة تصعد الدرج الخشبى الموصل بين الصالة السفلى والدور الأعلى الذى تقع فيه حجرتها .. ثم أخذت الخطوات تقترب بسرعة من حجرتها وسمعت صوتا يهتف فى فرحة بالغة :

ــ أبلة عايدة !

وبعد لحظة اندفعت من الحجرة فتاة شقراء رائعة الحسن .

ونهضت عايدة لتتلقى الفتاة المندفعة بين أحضانها وأخذت ليلى تقبلها فى شوق وتقول فى فرح صبيانى :

ــ لم أكن أصدق أنك آتية حقا ، وأنك ستعيشين معنا مرة ثانية ، إياك أن تسافرى بعد ذلك أو تأخذينى معك . أين نانى ؟

ــ لا ترفعى صوتك فهى نائمة !

ــ لقد قالت عمتى إنها رائعة !

ــ ليست فى مثل روعتك .. إنك سيدة البنات .

وسارت ليلى إلى فراش الصغيرة ووقفت تتأملها فى إعجاب شديد .. وقالت عايدة :

ــ هيا بنا .. ألا تنوين النزول للعشاء ؟

ــ سألحق بك بعد دقيقة واحدة أبدّل فيها ملابسى .. ستجدين فريدا فى

انتظارك .. لقد قدم فى التو .

ولم تكن فى حاجة إلى من ينبئها أن فريدا قدم فى التو فلقد سمعت صوته يعلو بأغنيته المحبوبة ، التى كان لا يفتأ يرددها فى كل حين .

عجبا .. إنه ما زال كما هو .. حتى أغنيته لم يملها بعد ولم تطغ عليها أغنية أخرى .

وتملكها إحساس غريب بالطمأنينة والثقة .. لقد كانت الأغنية أغنيتها هى .. أو أغنيتهما معا .

إنه لم ينسها .. لم ينس كليهما .. لا هى ولا الأغنية .

وأخذت تهبط الدرج وهى تنصت إلى الأنغام الخافتة المنبعثة من أسفل .

ووصل إليها صوته يدندن قائلا :

وهفا كل فؤاد ، وشدا كل لسان   هذه فاتنة الدنيا وحسناء الزمان

وهبطت إلى الصالة وهى تحاول جهدها أن تتمالك نفسها وأخيرا وقفت أمامه وجها لوجه .

وران الصمت ، وسكت هو عن الغناء برهة وأخذ يحملق فيها بإعجاب ، وضحكت هى وقالت :

ـــ هكذا .. لا ترحيب .. ولا سلام ولا كلام ؟

ولم يبد عليه كأنه قد سمع قولها ، وأخذ يردد أغنيته هامسا :

ـــ هذه فاتنة الدنيا وحسناء الزمان !

ـــ أما زلت حسناء الزمان ؟

ـــ هذا الزمان وكل زمان .

ثم أمسك بيدها وأخذ يهزها مرحبا وهو يقول :

ـــ أهلا وسهلا .. كيف حالك يا عايدة ؟.

ـــ كما ترى .

ـــ مشرقة منيرة ، منذ أن أقبلت على البيت وأنا أتساءل : ماذا أنار الحى ؟

وأحست بالسعادة تغمرها .. إن السنين الخمس لم تغير منه شيئا .. إنه ككل شيء باق على عهده .. ما تغير ولا تبدّل .

وجلس الاثنان على إحدى الأرائك ، وكان لديهما الشيء الكثير مما يقال بعد فرقة خمس سنين ، ومع ذلك فقد ران عليهما صمت أحست هى منه بكثير من راحة ومتعة .

وبعد هنيهة علا صوت العمة تصيح من حجرة الطعام :

ـــ العشاء جاهز .

ونهض الاثنان متجهين إلى حجرة الطعام وجلسا متجاورين قبالة العمة التى قالت ضاحكة مرحبة :

ـــ لا جديد يا عايدة .. كل شيء كما تركته .. لقد صنعت لك « المسقعة » التى تحبينها .. ولكن أين ليلى ؟

وأردفت منادية :

ـــ ليلى .

واندفعت ليلى إلى الحجرة ضاحكة وهى تجيب :

ـــ آسفة يا نينة .. كنت أغسل وجهى .

واتجهت بحركة لا إرادية إلى الناحية التى يجلس فيها فريد وعايدة فقالت العمة :

ـــ تعالى بجانبى يا ليلى .. لقد احتلت عايدة مقعدك .

وكانت عايدة ترقب الفتاة الشقراء وقد وقفت فى مكانها وهمت بتغيير اتجاهها لتجلس بجوار العمة ، ولمحت تردد الفتاة والابتسامة العذبة التى رمقت بها فريد قبل أن تستقر فى مقعدها المواجه لها ..

وأحست عايدة مما حدث فى اللحظة الخاطفة بناقوس خطر يدق وبأن شيئا جديدا لم يكن يخطر لها ببال .. قد حدث .

إن ما أبصرته كان من السرعة والبساطة ، بحيث لا تستطيع تمييزه إلا عين

خبير .. خبير بأحوال الهوى وأعراض الحب .

وفى اللحظة التالية حدث ما جعل وساوسها تصبح يقينا لا يداخله شك .. لقد قفزت ليلى من مقعدها وانطلقت إلى الصالة ، وبعد لحظة عادت ومعها جاكتة فريد ، ووضعتها فوق كتفيه وقالت مؤنبة :

ــ قلت لك مائة مرة لا تخلع الجاكتة وتجلس هكذا فى الهواء وأنت عرقان .

وضحك فريد وقال لعايدة :

ــ إن البنية الصغيرة أصبحت أما رءوما ..!

« بل أضحت ولهانة عاشقة » .

هكذا هتفت عايدة فى نفسها وهى تقول ضاحكة :

ــ إنها على حق .. ما دمت لا تزال طفلا صغيرا .

من كان يصدق هذا ؟

أبعد هذه السنين الخمس من البعد والفرقة .. تعود لتجد الطفلة الصغيرة قد أصبحت منافسا خطيرا لها .

ولكن لا .. إنها قد تكون منافسا .. ولكنها لا تظن بها أية خطورة .. شيء بسيط من المقارنة يملأ نفسها ثقة وطمأنينة .. إن من الغباء أن تحس من الفتاة بأى خوف !

إن حبها له هو الأصل الثابت وما عداه عارض زائل .. إن لها رصيدا من ذكريات الماضى يجعلها تهزم به أى خصم جديد .. إنها أسبق إلى حبه .. وهى امرأة مكتملة الأنوثة تامة النضج ، تملك فى جانبها التجربة والمعرفة .. ومن الحمق أن تخشى الهزيمة من طفلة غريرة .

لقد أحبته دائما فى الطفولة ، والصبا ، والشباب ، لقد نشأت فى هذه الدار على حبه .. إنها تذكر السنين الخوالى ، وهما يعدوان فى الحديقة معا .. ويأكلان ويشربان معا .. وتذكر بدء إحساسها بجدية حبه .. ولهفتها على مصارحته به .. وإلى أن تسمع من شفتيه أنه يحبها وتنصت إلى عذب المناجاة وحلو الهمس .

إنها تذكر نفسها الهائمة ، وقلبها الذائب ، وساعات السهد الطويلة التى كانت ترنو خلالها إلى السماء وتناجى النجوم ، كانت لا تنام إلا على صوته الهادئ العذب يردد فى سكون الليل لحنها المحبب وأغنيتها العزيزة .

كانت تغمض عينيها فى كل ليلة على هتافه الحنون :

« يا حبيبى هذه ليلة حبى   آه لو شاركتنى أفراح قلبى ! »

الليلة وكل ليلة .. كانت ليلة حبهما ؛ كانا يتشاركان أفراح القلب من بعيد ، فإذا ما التقيا وتقاربا ، انكمشت القلوب وتعثرت الألسن .

وأخيرا عزمت على أن تضع لتلك الحالة حدا ، وأن تزيل ذلك الحاجز الثقيل من التقاليد الذى يحجب بينهما .

إن الأمر أبسط كثيرا مما تتصور ، فما كان عليها إلا أن تسأله الخروج وإياها إلى الحديقة ذات ليلة والقمر يتبوأ أريكة السماء ويغمر الكائنات بنوره الرطيب ، ثم تجلس وإياه تحت التكعيبة .. والنسيم يسرى هادئا بين يديها ، وتقول له بمنتهى البساطة : « إنى أحبك » .

يا لها من حمقاء .. لِم لم تحاول أن تفكر فى هذا من قبل ! أم ترى لزاما عليه أن يكون البادئ بالتصريح ؟

وحلت الليلة الموعودة .. وجلست بجواره تحت التكعيبة وهمست قائلة :

— أريد أن أقول لك شيئا !

— وأنا أريد أن أقول لك شيئا !

وخفق قلبها بشدة إنه لا شك سيقول « إنى أحبك » لتدعه يقول هو أولا ، فلشدما يسعدها أن يكون هو البادئ ، وأجابته هامسة :

— قل أنت أولا .

— إنى سأسافر إلى إنجلترا قريبا .

وأذهلها قوله وهتفت قائلة :

— أنت ستسافر ؟ ولِم ؟

ـــ للدراسة .

وهمت بأن تقول : « ظننتك ستقول إنك تحبنى » ! ولكن الكلمات لم تستطع أن تغادر شفتيها ولم تجسر إلا أن تقول فى يأس :

ـــ ولكن ما الداعى لها ؟

ـــ لقد عرضوا البعثة علىّ وبدا لى أنها فرصة يجب ألا أتركها .. فقبلت . إنها بعثة للتخصص . ولا شك أنها ستفتح أمامى مستقبلا باهرا .

ولم تستطع أن تنصت إلى التفاصيل التى أخذ يدلى بها إليها عن البعثة والسفر .. ومواد الدراسة ، فقد أحست بخذلان شديد ، وبدا لها أنها كانت واهمة فى حبه لها وأنها كانت تمنى نفسها بأمنية ضائعة .

وأخيرا عندما انتهى من حديثه سألها :

ـــ والآن جاء دورك .. ماذا كنت تودين أن تقولى لى ؟

وعاودتها كبرياؤها . وأجابت فى رزانة بأول كذبة طافت بذهنها :

ـــ لقد صنعت لك « بلوفر » جديدا .. لا شك أنه سينفعك كثيرا فى السفر !

وغادرا التكعيبة .. ولم تمض بضعة أيام على لقائهما حتى سافر .

وبعد بضعة أشهر تقدم محمود لخطبتها ، وكان مخلوقا مهذبا رقيقا ، جميل التقاطيع ، حلو البسمات ، يمت لها بصلة قرابة بعيدة ، وقدم لها الحب والوفاء والمركز المحترم .

ورأت « العمة » فيه زوجا خليقا بها ، دون أن تبدى أى تردد أو تمنع فحبذت الزواج منه ، وبين يوم وليلة تمت الخطبة والعقد والزفاف .

وكان محمود موظفا فى السلك السياسى ، فلم يكد يمضى شهر على الزواج حتى تقرر نقله إلى الخارج .. وكان عليها أن ترحل معه ، وفى يوم الرحيل أعطت « العمة » رسالة وصلت من فريد .

وفضت الرسالة ، فوجدت بها الشىء الذى طالما تمنته وانتظرته ولكنه كا

متأخرا ، لقد أفصح عن حبه أخيرا ، وكتب ما لم يجسر على قوله وسألها أن تنتظر عودته حتى يتزوجها .

وبكت ليلتها طويلا ، وأرقها السهد المضنى ، ولكنها لم تستطع أن تفعل أكثر من البكاء ، وفى الصباح رحلت مع زوجها .

ومضت خمس سنوات وهى تنتقل وإياه من بلد إلى بلد آخر .

خمس سنوات طوال ، كانت كافية لحدوث الشيء الكثير ، كافية لولادة نانى وموت أبيها ، ثم وجدت نفسها تعود فى خاتمة المطاف لتستقر فى بيت عمتها مرة ثانية ، ولتجد كل شيء على ما كان عليه عدا شيئا واحدا ، هى ليلى .

ولم تكن تتخيل أن حبها لفريد سيعاودها بمثل هذه السرعة وهذا العنف . فرغم أن ذكراه ما فتئت تطوف برأسها أينما ذهبت إلا أنها ظنت أنه لم يعد فى نفسها أكثر من ذكرى . ولم تتوقع قط أن قربه سينكأ جرحها ويملؤها بذلك الحنين والشوق إلى الحب القديم . وأنها ستغمر بالسعادة التى تنشدها .عندما تسمع الأغنية العذبة .. أغنيتها هى . وتشعر أنه ما زال يحبها . ولا كانت تظن أنها ستحس بالغيرة من ليلى الصغيرة ، عندما تدرك أنها هى الأخرى تحبه .

وغادرت المائدة وبنفسها خليط عجيب من المشاعر : الحب ، والقلق ، والخوف ، والرغبة فى النضال .. النضال مع الفتاة الصغيرة التى تتوقع الخطر من جانبها .

وأخيرا استقر جسدها فى الفراش وأغمضت عينيها وقد صممت على أن تفوز به هذه المرة وألا تدع فرصتها الأخيرة تفلت من يديها .

وفى الصباح فتحت عينيها على قبلة من ليلى .. وعلى صوت الفتاة تهتف بها فى شوق وفرحة :

ـــ إنى لا أكاد أصدق أنك قد عدت حقا .. لقد كنا دائما نتحدث عنك أنا وعمتى وفريد ، وكنت لا أتمنى شيئا قدر أن أراك ثانية . لا أظنك تتصورين كم كنت أحبك وأعجب بك . لقد كنت دائما مثلى الأعلى .. ونموذجى الذى

أتشبث به . كنت أتطلع إليك كأنك شىء لم يخلق الله أمثاله . إنى أذكرك ليلة زفافك وأذكر ثوبك (البمبة) الطويل ، وقوامك الممشوق .. ومظهرك الرائع وحديثك الجذاب .. كأنك إحدى الملكات .. كم كنت أتوق إلى أن أصبح مثلك ؟

وبدد صوت الفتاة المليء بالتقديس ما أحست به من بوادر البغض والكراهية ، وأدهشها أن تكن لها مثل هذه المشاعر .. وأدهشها أكثر من ذلك قولها بصوت خافت ولهجة حنون :

ـ كنت أراك وفريد نموذجا لزوجين .. وشد ما أدهشنى أن يسافر ويتركك تتزوجين غيره .. لقد كان يبدو لى أنكما تحبان بعضكما حبا يفوق كل حب ، بل أستطيع أن أجزم أنه ما زال يحبك حتى الآن .. وأنت . أما زلت تحبينه ؟

وضحكت عايدة وأحست بكثير من الارتباك من أحاديث الفتاة الصريحة الجريئة وضمتها إلى صدرها قائلة بصوت خافت :

ـ أجل .. ما زلت أحبه .

ثم ترددت برهة قبل أن تقول متسائلة :

ـ وأنت ؟ .

ـ أنا ؟ أحبه فقط ؟ إنى أعبده ! ألا ترينه يستحق العبادة ؟ لو أنى كنت مكانك لما تركته يتسرّب من يدى .

وصمتت الفتاة فترة ثم أردفت قائلة بحماسة :

ـ إنكما تستطيعان الزواج الآن .. ولا شك أن ذلك يضع خاتمة سعيدة لقصتكما .. إنى أحب الخاتمة السعيدة .. ولو أن الحياة لا تمنحنا إياها دائما .

وقطع عليهما الحديث صوت فريد ينادى من الحجرة الأخرى المجاورة :

ـ ليلى .. أيتها الكسولة .. لِم لم تحضرى الشاى ؟

ـ سأحضره حالا .. كنت أصبّح على عايدة .

وجلس الجميع يتناولون طعام الإفطار .. فريد بجوار عايدة ، ونانى تجلس على حجر ليلى بجوار العمة .. وفى خلال الطعام قال فريد لليلى :

ـــ لقد ابتعت تذكرتين للسينما فى حفلة صباح اليوم لأنى لم أكن أتوقع أن تعود عايدة .. ألا تظنين من الأفضل أن أرجعهما ؟

ـــ ولم لا تذهب أنت وعايدة ، إنى سأمكث هنا مع نانى .

وقالت عايدة :

ـــ لا .. لا .. يجب أن تذهبا ، إنى أريد أن أتمم ترتيب الحجرة .. وسأمكث أنا مع نانى .

ولم يعترض فريد .. ولم يقل شيئا أكثر من :

ـــ إذن البسى سريعا يا ليلى .

وبدا لعايدة أنه سعيد بذهابه مع الفتاة الصغيرة .. فإنه لم يلح عليها فى الذهاب ، وقبل اعتذارها بمنتهى السهولة .. وأحست أنها بدأت تتلقى أول طعنات الهزيمة .. وأحست أن فريدا .. إذا لم يكن يحب ليلى الآن .. فهو لا شك موشك أن يتردى فى حبها ، وأنه يتأرجح الآن بين هوى غابر وحب جديد .. وأنه لا بد لها من خوض معركة حامية الوطيس حتى تستعيده إليها .

وبعد الظهر عاد الاثنان من السينما وقد بدت عليهما علامات السعادة والغبطة .

وأمضت ليلى بقية اليوم فى اللعب مع نانى . وفى عمل مراكب من الورق تلقى بها فى النافورة .

ولم تغادر عايدة الفراش .. فقد أحست بأفكارها تصطخب فى ذهنها وتثقل رأسها .

وعندما سقط الظلام صعدت نانى إلى حجرتها وألقت بنفسها فى أحضان أمها قائلة ببراءة الأطفال :

ـــ ماما .. إنى أحب ليلى ، ألا تحبينها ؟

ـــ بالطبع أحبها إنها فتاة حلوة وطيبة .. إنها أشبه بالأميرة التى خطفها السلطان .. ألا تذكرين حكايتها ؟

ـــ أجل أذكر .

ـــ ولكنى لا أريد أن تموت ليلى .
ـــ من قال لك إنها ستموت ؟ إنها ستحيا عمرا طويلا .
ـــ وهل ستكون نهايتها سعيدة ؟ هل ستتزوج وتعيش فى التبات والنبات وتنجب صبيانا وبنات ؟

وضحكت الأم ثم أجابت :

ـــ بالطبع يا نانى كل فتاة ستكون خاتمتها كذلك .
ـــ أأنت واثقة .. أحقا ستكون لليلى نهاية سعيدة ؟

وتذكرت عايدة ما قالته ليلى « إنى أحب النهاية السعيدة ولكن الحياة لا تمنحنا إياها دائما » وسألت ابنتها فى دهشة :

ـــ أقالت لك ليلى شيئا عن النهاية السعيدة ؟
ـــ لا يا ماما .. ولكنى أتمنى لها ذلك ، فهى فتاة جميلة .

وبعد العشاء .. وعقب أن أرقدت عايدة طفلتها فى فراشها تركتها وذهبت إلى حجرة ليلى فوجدتها جالسة تقرأ فى إحدى القصص .. فخطفتها من يدها قائلة :

ـــ أريد أن أقول لك شيئا يا ليلى وسأقوله باختصار : هل تحبين فريدا ؟

ودهشت الفتاة لهذا السؤال المفاجئ ولكنها أجابت بصراحة :

ـــ أحبه جدا .. منذ أن وعيت على الحياة وأنا أحبه بل أتفانى فى حبه .
ـــ وأنا أيضا كذلك يا ليلى .. أتقبلين نصيحة مجربة ؟
ـــ أجل .
ـــ اذهبى إليه الآن وخذيه إلى الحديقة وقولى له « إنى أحبك » .
ـــ أتقولين حقا ؟
ـــ أجل ! لا ترددى ، ولا تعيقك كبرياء ولا خجل فقد أضاع ترددى ثانية عمرى سدى .
ـــ ولكنك قلت إنك ما زلت تحبينه !
ـــ أجل ! ولكنك أحق به ، إن من الحمق أن يعاند الإنسان القدر ، ومن

الجنون أن يسير الإنسان فى طريقه خمس سنوات ثم يعود القهقرى بمنتهى الهدوء والبساطة ليلتقط متعة فقدها .. ثم يعاوذ سيره مرة ثانية .. هيا يا ليلى ولا تترددى .

ثم هبطت عائدة إلى حيث يوجد فريد، فإذا به يوشك أن يخرج إلى الحديقة فسألها :

— ألا تريدين الخروج إلى الحديقة يا عايدة ؟

— لا .. إنى متعبة قليلا .. أريد أن أحدثك حديثا قصيرا .

— نعم ؟

— عن علاقتنا القديمة ، إنى أشعر أننا قد أصبحنا كأخ وأخت ، ويبدو لى أن حبنا القديم قد عفت آثاره (وكانت تشعر بمدى ما فى قولها من كذب) . إن أمامك ليلى ، تستطيع أن تجد فيها خير زوجة ، إنها ستلحق بك فى الحديقة لتقول لك شيئا .

وبعد برهة كانت تجلس فى حجرتها وقد لفتها الظلمة .. ونهضت إلى النافذة لتغلقها فأبصرت فى الحديقة تحت ضوء القمر شبحان يجلسان على حافة النافورة وقد تشابكت منهما الأيدى والتقت الشفاه .

ووسط السكون بلغ مسامعها لحن سرى مع النسيم :

« يا حبيبى هذه ليلة حبى ، آه لو شاركتنى أفراح قلبى ! » .

وترقرقت فى عينيها دمعة انسابت على صفحة وجهها .

وأغلقت النافذة وتلمست طريقها إلى الفراش فى الظلمة الدامسة .

ووصل إلى أذنيها صوت أنفاس هادئة تتردد فى سكون الغرفة وأرجائها .

كانت أنفاس ابنتها نانى .

وكانت لها خير عزاء .

* * *

وعادها الشوق

سلوا كئوس الطلا هل لامست فاها
واستخبروا الراح هل مست ثناياها
ما ضر لو جعلت كأسى مراشفها
ولـــو سقتنـــى بصاف من حمياهـــا
ألقت إلى الليـل جيـدا نافـرا ورمت
إليـه أذنـا وحـــارت فيــه عيناهــا
وعادهـا الشوق للأحبـاب فانبعـثت
تبكـى وتهتـف أحيانـا بشكواهـــا
يا جارة الأيك أيام الهوى ذهــبت
كالحلـم ، آهـا لأيـــام الهوى آهـــا
(شوقى ــ أم كلثوم)

صفه لى .. صفه .. كيف يبدو ، وكيف يتلفت ؟.. وكيف يعبس ، وكيف يبتسم ؟

إنه لا يعبس ولا يبتسم ، إنه يجلس مواجها المسرح فى صمت وسكون .

ــ كيف ؟. إنى لم أتعوّد منه صمتا ولا سكونا .. إنه دائم المرح ، دائم الضحك ، كيف يستقر فى هدوء وسكينة ؟

ــ وماذا تريدين أن يفعل رجل فى مثل سنه ووقاره ومركزه ؟.. أنسيت أنه موجود هنا بصفته الرسمية ، وأنه أكبر من فى هذا الحفل ؟

ــ ولكن كيف يبدو ؟ وكيف يجلس ؟ ألا تستطيع أن تصفه لى ؟ صفه لى

كما تراه .

إنه يجلس فى حلته الرسمية الفخمة ، فى وقار واتزان ، تحيط به كل مظاهر الأبهة والوجاهة والأناقة .

— أجل .. أجل .. لقد كان دائما مثالا للوجاهة والأناقة .. ووجهه ؟ كيف تراه ؟ أما زال بخده الأيسر أثر ذلك الجرح الذى أصابه عندما كبا به جواده ؟

— ماذا تقولين ؟.. كيف أستطيع أن أميز الندب من هذا البعد ؟ إنى لا أكاد أبصر إلا جانب وجهه ، على أية حال ، اطمئنى . فلا شك أن أثر الجرح ما زال موجودا .. ما دمت واثقة من أنه كان موجودا !

— وعيناه ؟ كيف تبدوان ؟.. ترى هل أحاطت بهما التجاعيد ؟

— بالطبع .. إنى لا أستطيع رؤيتهما من مكانى ولكن لا شك أن التجاعيد قد سرت ، لا حول عينيه فقط ، بل فى كل وجهه .. إنه لا شك قد جاوز الخمسين !

— فى العاشر من يونيو يصبح عمره بالضبط أربعة وخمسين عاما ، ولكن السن لا دخل لها بالتجاعيد ، أقصد التجاعيد التى حول عينيه ، لقد كانت موجودة دائما وهو ما زال فى أوج صباه .. كانت لذيذة .. وكل شىء فيه كان لذيذا . ما بالك لا تصفه لى ؟ صفه لى أرجوك .. صف كل شىء فيه .

— صه .. صه . إن الستار يوشك أن يرفع ، لقد أطفئت الأنوار .. أظن هذا يقنعك بأن وصفه قد استحال علىّ ، فما عدت أراه من قريب أو بعيد .

— ولكن أنا أستطيع رؤيته .. فى كل وقت ، وفى كل آونة ، من قريب أو بعيد ، فى الضياء ، وفى الظلمة ، فى السبات ، وفى اليقظة ، إذا كان وصفه قد استحال عليك ، فإنه لا يستحيل علىّ .. دعنى أصفه لك أنا .

— صه . كفى عن هذا الهمس . إن الغناء يوشك أن يبدأ .

— إنى أستطيع أن أراه وقد جلس جلسته المتئدة الرزينة الوقور ، وأستطيع أن

أجزم بأن وقاره ورزانته ليسا سوى مظهر أجبر نفسه على الظهور به تمشيا مع الوضع الذى هو فيه ، وحفظا لهيبة المركز الذى يشغله ، ومجاراة للناس فى تفكيرهم .. أما باطنه فهو لا شك يصخب بالضحك والمرح ويود لو انطلق من قيود جلسته الوقور ليمزح ويطرب .. إنى أعرفه جيدا .. فهو يكره التزمت ويبغض الجد .. كان يقول لى إنه كثيرا ما يضطر إلى أن يصرخ فى جنوده ، ويعبس فى وجوههم وهو فى نفسه أميل إلى الضحك والتهريج .. إنه لا يجدّ إلا متصنعا ، وكم ود لو لم يجدّ أصلا ولكنه يعلم أن الأمور لا تستقيم إلا بادعاء الجد ، وأن الحياة تحتاج إلى بعض الجد ، فى بعض الأحيان .

ـــ أرجوك .. كفى همسا .. إن أصحاب البنوار المجاور لنا يتلفتون إلينا .

ـــ أستطيع أن أراه فى جلسته ، مستقيم الجسد ، بارز الصدر ، مرفوع الرأس .. إنى أجزم بأنه لم يترهل ولم ينتفخ .

ـــ أجل .. إنك على حق .. ما زال جسده مشدودا وهامته مرفوعة ، كأنه ابن الثلاثين .

ـــ أعرف ذلك ، لقد كان لا يخشى إلا الكرش والسمنة وكان دائم الحرص على ممارسة الرياضة ، مضربا عن العشاء ، وكان يفخر دائما بأنه ضابط فرسان وأن الفرسان لا يترهل لهم جسد ولا يبرز لهم كرش .. انظر إليه ، أتراه ما زال بالطربوش أم خلعه ؟

ـــ إنه يخلعه الآن ، لقد وضعه على مقعد بجانبه .

ـــ كنت واثقة من هذا .. لم يكن يكره شيئا كما يكره الطربوش ، وكان لا يرى فيه أية وجاهة أو أى مظهر للوقار أو الوطنية ، ولكنه مع ذلك كان يضطر إلى ارتدائه فى الرسميات ، وفى الحفلات والمآتم .. كيف ترى شعره ؟ أما زال على لونه أم ترى الشيب قد وخطه ؟ كأنى به مكللا بالبياض ، لكنه بياض محبب لذيذ ، فيه جلال وجمال .. وأنى لواثقة بأنه لم يصب بصلع .. شعرة واحدة لم تغادر رأسه .

ـــ تماما .. تماما .. كأنى بك ترينه رأى العين .

ـــ بل رأى الذهن والقلب ، والروح ، إنى أبصر أنفه الأشم المرفوع .. وأبصر فمه الضاحك .. وأبصر شفتيه الرقيقتين ، الدائمتى الانفراج عن أسنانه البيضاء .

ـــ إنه لم يعد يضحك .

ـــ لو خلوت به لأمعن فى الضحك ، وعاد إلى طبيعته المرحة .

ـــ ولو ضحك فما أظن شفتيه تنفرجان إلا عن طقم سليم منتظم .

ـــ كلا إنه ليس هكذا ، إنى أعرف أسنانه ، سنا سنا ، لم تكن فى فمه سن واحدة ليست سليمة أو جميلة .. صحيح أن أحد أضراسه آلمه حينا ، لكنه سارع إلى علاجه وحشاه ، لا .. لا .. لن تسقط من فمه سن واحدة .

ـــ هل تحبين أن نذهب إلى مقصورته للتمتع بمشاهدة أسنانه ؟ هيا بنا هيا ، أؤكد لك أن سماع أم كلثوم لا يطربنى أكثر من مشاهدة أسنانه .

ـــ كفى سخرية ! أنت الذى اضطررتنى إلى وصف أسنانه ، لقد اتهمته بأنه يضع فى فمه أسنانا صناعية . ألم تقل أنت ذلك ؟

ـــ آسف جدا .. إن أسنانه من اللؤلؤ المنثور .. أيرضيك ذلك ؟

ـــ أنت سخيف ، لن أحدثك بعد ذلك .

ـــ تحسنين صنعا ، فقد همت أم كلثوم بالوقوف للغناء . أظنك أنت أيضا تفضلين السماع ؟

ودوّت الأكف بالتصفيق ، وغطى الضجيج على ما عداه من همسات وأحاديث .. ووقفت أم كلثوم تعبث بمنديلها بين أصابعها ، وتبتسم منحنية للجمهور ، وردا لتحيته العاصفة .

وبدأت الوصلة الأولى .. وعلا صوت أم كلثوم وهى تنشد قصيدة « نهج البردة » ، وصمت كلانا ، وليس كصوت أم كلثوم ، وسيلة لإرهاف السمع ، وتركيز الحس والمشاعر .. وبخاصة فى هذه الأغنية على الأقل بالنسبة لى .

وكنت أتلفت إلى جارتى خلال الوصلة بين آونة وأخرى فى الفترات التى كان يفلت فيها زمام حناجر المستمعين فتنطلق بالهتاف .. كنت أتلفت إليها محاولا أن أستشف ما وراء زجاج منظارها الأسود الذى أخفى عينيها الخابيتين ، ولكنى لم أكن أتبين السكينة والهدوء .. ولم أشك فى أنها تستمتع بالغناء .. فقد كانت قبل كل شيء فنانة مرهفة الحس رقيقة المشاعر ، ولكننى لم أشك أيضا أن استمتاعها بالغناء كان لا يكاد يقاس باستمتاعها بشيء آخر .. الشيء الذى أجبرها على أن تتجشم مشقة المجيء إلى مكان الغناء .. غير مكتفية بالاستماع إليه مذاعا بالراديو .. وعلى أن تجشمنى مشقة اصطحابها .. وهى الحساسة التى تدرك جيدا مدى عبء اصطحاب ضريرة إلى حفل كهذا .

كنت واثقا أن الشيء الذى كان يشملها أكثر من الغناء هو إحساسها بأن صاحبنا الكبير يجلس هناك !

ليشعر بوجودها أو لا يشعر .. وليعرفها أو يجهلها .. فليس يهمها شيء من ذلك كله قيد أنملة .. يكفيها أن تحس وجوده وأنها تتنفس من هواء المسرح الذى يتنفس فيه !

مجنونة ؟! إى والله مجنونة ما فى ذلك شك ؟ مجنونة عاشقة . وللناس فيما يعشقون مذاهب . وعلى قدر الهوى اختلف الجنون !

إن ذلك الرجل الكبير — رغم أنه ما زال محتفظا بالكثير من رونق الشباب ونضارة الصبا — لم يعد بعد ذلك المعشوق الذى يوله من أجله قلب ، أو يسلب فى حبه لب ، ويطيش عقل .. اللهم إلا إذا كانت صاحبتنا تعشقه باعتبار ما كان .. وما زالت — لأمر ما — متعلقة بكل ما كان !

ولكن من كانت هى ؟ وكيف عرفتها ؟

عرفتها معرفة صداقة .. منذ عهد غير بعيد ، وإن كنت أعرفها معرفة سماع منذ طفولتى ، فقد كانت وقتذاك امرأة معروفة وغانية شهيرة يعرفها كل العظماء والدهماء .

ووجدت فيها امرأة مكفوفة البصر قد شارفت خريف العمر ، وأدهشنى عدم إبصارها ، فما كانت لدىّ أقل فكرة عنه .. وأحسست بالرثاء لها والعطف عليها ، وبخاصة لما وجدت من حلو حديثها ورقة مشاعرها .. وبدأت أكرر زيارتها فى بيتها ، وتوثقت عرى الصداقة بيننا بعد أن بدأت أتلقى منها دروسا فى العزف على العود ، الشيء الذى طالما كنت أتوق إليه ، والذى استطاعت هى أن تحققه لى بغير ما جهد ولا مشقة .

وهكذا زادت الأيام من صداقتنا معا ، ولم أكن أجد فيها أى عيب ، فقد كانت امرأة عفيفة كريمة ، وواسعة الأفق سليمة التفكير ، لا يمكن أن توجد فيها هنة أو يؤخذ عليها مأخذ .. اللهم إلا ذلك الشيء الذى بدأ يتكشف لى على مرّ الأيام وعلى ازدياد الصلة وتوثق العلاقة .

كان أول ما لاحظته هو احتفاظها بعدد لا يستهان به من صور ذاك الكبير ، وقد استطعت أن أستبين من ذلك أن صاحبنا كان فى صباه على علاقة بها عندما كانت فى زهرة شبابها .

وأنا أعرف أن فى طبيعة ذلك النوع من النساء ، إذا ما كانت لهن علاقة سابقة بكبير من الكبراء ، أن يحاولن إبراز تلك العلاقة ويأبين اعتبارها شيئا انتهى ، فهى عندهن أثر دائم خالد ، يرفع من كبريائهن ، ويبعث فيهن الفخر .. بغرام قديم ، بل بعز تالد ومجد بائد .

وفى ذات ليلة هادئة شاعرية ، علمت منها أنها كانت وإياه — فى زمن ما — عاشقين مخلصين ، وأنه كان بينهما هوى أحرّ من هوى المجنون وليلى .. وأن الأمر كاد ينتهى بهما إلى الزواج ، لولا أن حدث حادث مزّق ما بينهما ، وأبعد كلامنهما عن صاحبه .

كان هذا كل ما علمته منها عن علاقتها به ، حتى كانت هذه الليلة التى عرفت فيها أن الرجل سيذهب بصفته الرسمية لحضور الحفلة الخيرية التى تغنى فيها أم كلثوم .

وسألتنى أن أصطحبها إلى هناك ، فدهشت إذ كانت المرة الأولى التى تسألنى أن أخرج وإياها .. وأحسست بأنها ستحملنى عبئا ثقيلا ، وقلت لها محاولا التخلص :

ــ ولكن الحفلة ستذاع .. فلم لا تسمعينها فى الراديو وأنت مستريحة ؟ إنى على استعداد لأن أقضى السهرة معك نستمع إليها سويا !

ــ أريد الذهاب ، وقد سألتهم أن يحجزوا لى بنوارا فإذا لم ترد اصطحابى فسأذهب وحدى !

وتبينت مبلغ ما فى قولها من إصرار على الذهاب وتأنيب لى على الرفض ، فلم أجد بداً من الموافقة !

وانتهت الوصلة الأولى ، وأفاقت صاحبتنا من نشوتها على صوت الضجيج والهتاف ، ورأيت الرجل الكبير يتحرك فى مقعده كأنما يهم بالقيام ، ثم أخذ فى الانصراف .

ونظرت إليها وقلت :

ــ يبدو أنه لن يحضر سوى الوصلة الأولى .

ــ لم ؟

ــ لقد نهض من مقعده وغادر البنوار .

ــ ربما كان ذاهبا إلى المقصف .

ــ لا أظن هذا ، فإنى أراه يتجه إلى الباب الخارجى وحوله رهط من الحاشية .

وبدا على وجهها الامتعاض والضيق ، وصدق ظنى فى أن استمتاعها بالإحساس بوجوده كان أصل نشوتها . فقد وجدتها تطلق من صدرها تنهيدة حارة ثم حركت قدميها فى قلق وتساءلت :

ــ ألا تود النهوض ؟

ــ لِمَه !

— إنى أحس ببعض التعب ، وأفضل العودة إلى الدار ، أرجو منك أن تعود بنا .

ولم أجد بدا من العودة .. وإن لم أستطع أن أمنع نفسى من حنق شديد . هذه الأمور الصبيانية قد تكون محتملة عندما تحدث من العشاق الصغار ذوى الأحلام الطائشة والقلوب الرقيقة المرهفة ، ولكن عندما تحدث من مثل صاحبتنا . فإنها تكون مبعث حنق وموضع سخرية .

ما هذا الطيش الذى تفعله المرأة .. وهى فى خريف عمرها ؟ ومن أجل من ؟ من أجل رجل كبير وقور لا يكاد يحس لها وجودا ! لا .. لا .. هذا كثيرا ! إن الحب فى مثل هذه السن .. وبمثل هذه الطريقة .. يصبح أمرا ممجوجا مستثقلا .

ولكنى مع ذلك كنت أقدر المرأة وأحترمها وأحبها فسرعان ما تبدد حنقى عليها ، وسرعان ما تلمست لها الأعذار وقلت لنفسى إن لكل إنسان سخافته ، فلأعتبر هذه المسألة سخافتها ، ولأغفر لها .. ولا سيما أنها إذا ما استبعدت منها تلك السخافة ، تصبح نموذجا لامرأة عاقلة ، رزينة ، كريمة ، عفة .

وعدت معها واصطحبتها فى ظلمة الليل إلى دارها .. وهناك سألتنى البقاء لكى أتناول العشاء وأستمع إلى الوصلة الثانية .. فوافقت .

وأحضر الخادم بعض العشاء الخفيف ، ثم خلفنا وحدنا وجلست وإياها على إحدى الأرائك نزدرد الطعام ونستمع إلى الراديو ، وعلا صوت أم كلثوم فى الوصلة الثانية يردد « سلوا كئوس الطلا هل لامست فاها » .

وبدأ الغناء فاترا ، وبدا لى من المرأة وإطراقها وصمتها أن بها كثيرا من حزن تود لو تلفظه من صدرها .. لتخفف من عبئه على كاهلها .

ومددت يدى إلى الجهاز فأدرت مفتاحه مخفضا صوته حتى أضحى يكاد لا يسمع .

وسألتها فى صوت خفيض :

— ما بك ؟

— لا شيء .

— بل بك شيء !

— ليس أكثر من شوق عائد .. اغفر لى ما حدث ، واعتبره سخافة عجوز .

— لا تقولى هذا .. إن القلوب لا تشيخ ولا تهرم .. وكلنا عرضة لما بك !

— لا أظن .. إن بى بعض الشذوذ .. كان يجب أن أنسى وأن أعقل .. وألا أعود فأحرك الشجن الكامن ، واللوعة الهاجعة .. كان يجب ألا أتعلق بسراب ، وأتشبث بحلم ضائع .. كان يجب أن أترك ما ذهب يذهب ولكنى لم أستطع . إن مصابى هو فرط إحساسى بأنى مظلومة ، وأنه لا أمل لى هناك فى عزاء سوى عزاء الشوق والحنين والذكرى !

— ولكن لم لا تلفظين بعض ما فى صدرك .. فتخففى عنك ما أنقض ظهرك ؟

— لا أستطيع . إنه سر يجب أن يبقى مطويا فى صدرى .

— حتى عنى ؟

— لست أدرى .

— وحتى لو بقى مطويا فى صدرى كما هو فى صدرك ؟

— الواقع أنى أريد منك عزاء .. وأكره أن أبدو أمامك عجوزا عاشقة مخرفة .

وسكتت قليلا ، ثم تنهدت ، وبدأت تقص قصة حبها البائد وشوقها العائد

— كنت فى زمن مضى .. منذ ما يقرب من عشرين عاما . غانية مصر الأولى .. كنت قبلة الرجال .. ومحط أنظارهم .

— أعرف هذا جيدا .

— وكان الكل يتلهفون على رفقتى ويتمنون مصاحبتى ولكن واحدا هو الذى استطاع أن يستحوذ على مشاعرى ويتملك قلبى .

ــ طبعا هو .

ــ أجل !.. وكان وقتذاك ما زال ضابطا صغيرا من الضباط الفرسان .. وكان دائم الحضور إلى الملهى الذى أعمل فيه مع « شلة » من رفاقه الضباط .. ووجدتنى على الأيام أختصه بكل حبى ، وأوثره على كل من حولى من المعجبين أصحاب الثراء والجاه ، وأولهم رجل من أصحاب الملايين كان وقتذاك متيما بى .. وكان من أقرب المعجبين إلىّ ولكنى لم أتردد فى أن ألفظه من أجله !

ــ أكنت سعيدة وقتئذ ؟

ــ منتهى السعادة .. وكنت متمتعة بأقصى ما توده امرأة .. كنت محبة محبوبة .. كنت أستعذب فى سبيله كل مرّ .. لقد كان شديد الكبرياء ، شديد الغيرة .. وكان أول ما طلب منى هو ألا أعرف إنسانا سواه ، وأن أهجر ذلك الرجل الغنى .. وأنت تعرف قيمة هؤلاء الرجال فى حياة الغانيات ، وتعرف أنهم ، وبخاصة فى ذلك الزمن ، من أهم عمد حياتهن ، وأكبر موارد رزقهن ومسببات ظهورهن ، ولكنى مع ذلك طردته من رفقتى ، وأنبأته بأن ما بيننا قد انتهى .. وهكذا تخلصت من كل من حولى .. وفرغت له ، غير نادمة ولا آسفة .. فقد كان يستحق كل تضحية . وكانت معاملته لى تختلف عن معاملة كل من لقيت .. لقد كان رجلا وكان يحبنى ويحترمنى .. يحبنى حبا قويا جارفا .. ويحترمنى كامرأة نقية طاهرة .. حتى انتهى الأمر بيننا إلى أن سألنى الزواج .

« وغمرتنى السعادة يومذاك ، وأحسست لأول مرة أنى امرأة نظيفة محترمة ، وهجرت الملهى ، وبدأت أتهيأ لحياة جديدة مستقرة .. وكنت أقضى الساعات الطوال وإياه على جوادين يضربان بنا فى عرض الصحراء .. بين التلال والوهاد ، ناعمين بالفراغ والخلوة .. كأننا ملوك الرمال .. وأصحاب الفضاء .

« لقد علمنى أشياء جديدة .. علمنى كيف أطرب لمهبط الشمس الغاربة فى الأفق ، وعلمنى كيف أقف لأتأمل زهرة جميلة .. علمنى كيف أشعر ، وكيف

أحس .. بعد أن كنت أنطلق في الحياة عادية لا ألوى على شيء .

« وهكذا سرنا فى طريق معبد للحب حتى كدنا نصل إلى النهاية الحلوة .. عندما حدث حادث من حوادث القدر التافهة ، التى كان يمكن ببساطة ألا يحدث .. فلا يعصف بحياة إنسان ويقلبها رأسا على عقب .

« حدث ذلك فى يوم كان ينتظر أن يكون نوبتجيا ، ويبيت ليلته فى الثكنات ، ولم يكن هناك ثمة أمل فى لقائنا تلك الليلة ، ولكن حدث أن تبدلت نوبته وحاول الاتصال بى للقائى فلم يفلح ، ودعاه بعض رفاقه إلى قضاء السهرة فى أحد النوادى .

« ولم يكن من هواة المقامرة .. ولكن رفاقه أخذوا يستدرجونه إلى اللعب .. وأخذت الخسارة تدفعه إلى الإمعان فيه رغبة منه فى تعويضها .. وهكذا استمر يخسر ويخسر حتى أضحت خسارته تربو على مائتى جنيه .

« وأنت تعرف قيمة الجنيه وقتذاك ، وتعرف ما كانت تعنيه مائتا جنيه بالنسبة إلى ضابط مثله لا يجاوز مرتبه الخمسة عشر جنيها .

« وكان عليه أن يستر الفضيحة بأية وسيلة .. ولم يكن أمامه من حل عاجل سوى أن يمد يده إلى الخزانة التى كان هو الأمين عليها ، ليسدد منها الدين معتقدا أن المسألة لن تكشف قبل أن يكون قد دبر أمرها .

« ولكن الأمر تعذر تدبيره .. ولم يكن قد أنبأنى بشىء مما حدث ، ولكنى استطعت أن أتبين فى وجهه منذ أول لقاء بعد ذلك مدى ما به من قلق وانزعاج .. وبعد إلحاح أنبأنى بالأمر ، وحاول طمأنتى بأنه سيستطيع تدبير المبلغ بسهولة .

« ولكنى لم أقتنع ولم أطمئن .. لقد كان المبلغ بالنسبة لى يمكن تدبيره .. أما هو .. فمن أين ؟. وكيف ؟

« وإذا لم يستطع تدبيره .. فماذا تكون النتيجة ؟.. إن المسألة جد خطيرة .. ويجب أن تحل بسرعة .

« وكنت أعرف مبلغ كبريائه .. كبريائه التى تصل إلى حد العناد والجنون ، وكنت أعرف سلفا ما سيكون رده لو حاولت أن أعرض عليه تدبير المبلغ .. لم أكن أشك فى أنه سينهرنى ويسبنى . وينبئنى أنه ليس فى حاجة إلى مساعدة امرأة !

« وهكذا صممت على أن أقدم له المساعدة دون أن يشعر . وإمعانا فى الخداع ادعيت أمامه أن المسألة عسيرة ، وأن من الصعب جدا الحصول على مائتى جنيه فى مثل ذلك الوقت وبمثل هذه السرعة .

« ولكنه هز رأسه وقال : « ربنا يفرجها » .

« وتركته فى ذلك اليوم وأنبأته أنى لن أستطيع لقاءه لأن لى خالة مريضة لا بد من زيارتها .. وافترقنا على أن نلتقى فى اليوم التالى .

« وتركته ، مهمومة النفس مضطربة الذهن .. وكنت أحس حينذاك أنى مع الوقت فى سباق .. فقد كان علىّ أن أحصل له على المبلغ فى الليلة نفسها .. وكان علىّ أن أدبر طريقة لإرساله له دون أن أشعره بأنى صاحبة فضل عليه .. خشية أن تدفعه كبرياؤه إلى رفضه .

« لم تكن مشكلة الحصول على المبلغ أنه مبلغ ضخم .. فقد كنت أستطيع بسهولة أن أحصل على أضعاف أضعافه فى لمح البصر .. وبإشارة بسيطة من أصبعى .. ولكن المشكلة كانت فى إحساسى بأنى مقيدة بالوسيلة التى أحصل عليه بها .. أو — بصراحة أكثر — فى إحساسى بأنى ، مهما تكن الدوافع ، يجب ألا أفعل ما يخدش كرامته أو يجرح كبرياءه .. وأنى — بوصفى زوجته المقبلة — يجب أن أصون نفسى عما يشينها حتى ولو كان ذلك فى سبيل إنقاذه !

« وكان المعجبون القدامى على استعداد لأن يهبونى كل ما أطلب .. ولكنى كنت أصور لنفسى ما عساه يحدث إذا علم بذلك ، فتأخذنى الرجفة !

« لقد كنت أحبه ، وكنت أريد أن أنقذه .. ولكنى لم أكن أريد أن أنقذ مركزه لأحطم كبرياءه ، بل كنت أريد أن أحافظ على الثقة التى منحنى إياها ..

والحب الذى أحاطنى به .

« وهكذا ضاقت بى السبل.. ولم أجد أمامى سوى أن أجمع كل دانق أستطيع الحصول عليه .. برهن ما كنت أملك من حلى ، وبيع ما كان يمكن بيعه فى تلك الفترة القصيرة .

« وعدت إلى الدار فى تلك الليلة مكدودة الجسد محطمة الأعصاب .. وكانت ليلة قر عاصفة الريح شديدة البرد .. ولم آو إلى مضجعى ، فقد كان ما جمعته دون المبلغ المطلوب بقليل .. فأرسلت الخادم إلى صديقة كانت تقطن على مقربة منا لعلها تقرضنى بقية المبلغ ، وجلست فى بهمة الليل الصامت الموحش أصطلى نيران المدفأة وأحدق فى نيرانها المتأججة وأخذ الذهن الغارب الشارد يمعن فى الأوهام والتخيلات .

« كان علىّ أن أفكر فى أسلم وسيلة لإرسال المبلغ ، الوسيلة التى تجعله يقبل المبلغ ويؤدى به دينه .. وفكرت أول الأمر فى أن أرسله إليه باسم مجهول .. ولكنى رأيت أن هذا سيقلق باله ويضايقه وأنا أكره أن أسبب له القلق والضيق ، وخشيت كذلك أن تهديه الوساوس والتخمينات إلى حقيقة الأمر .

« ومر بخاطرى فجأة خاطر وجدت فيه خير حل للمشكلة .. وحمدت الله أن هدانى إليه .. وأن جعله يبرق فى رأسى المكدود المتعب.. على غير توقع .

« لقد ذكرت وقتذاك أنه أنبأنى ذات مرة بأن بينه وبين أحد أعمامه خصومة شديدة ، فقد وضع العم يده على بضعة أفدنة ورثها هو عن أبيه ومرت السنة تلو السنة دون أن يعطيه عمه حقه منها مدعياً أن الأرض بور .. ثم اشتراها بعد ذلك منه .. ولكنه لم يعطه سوى جزء ضئيل من الثمن ، وبقى حتى الآن مدينا له ببضع مئات من الجنيهات .

« وذكرت أنه قال لى مازحا فى ذات يوم : إنه لا سبيل إلى الحصول على ذلك الدين ، سوى أن يتزوج من ابنة عمه ، ثم يخيِّره بين دفع الدين أو طلاقها !

« مرّ كل ذلك بخاطرى مرّ البرق .. ووجدت فى عمه خير منقذ للموقف فقد

كان دائما يتوقع أن يرسل له عمه الدين أو بعضه فى أى وقت .. بل كان دائما يدخل الدين فى حساب مشروعاته المستقبلة ويعده شيئا لا بد آت .

« وهكذا استقر بى الرأى على طريقة إرسال المبلغ إليه وأحسست بعد ذلك براحة كبيرة ولا سيما أنى كنت على يقين من أنه لن يحاول سؤال عمه هل أرسل المبلغ أم لا .. بل كنت واثقة بأنه لن يحاول حتى أن يشكره على إرسال المبلغ » .

وتنهدت مرّة أخرى قبل أن تستأنف حديثها وتقول :

« وتنفست الصعداء ، وأرخيت أطرافى على المقعد الذى كنت أجلس عليه أمام المدفأة ، وأسندت رأسى على حافة المقعد .. وأغمضت عينى مستسلمة للراحة والهدوء .. وهاجمنى النعاس فلم أقاوم .. ولم أدر كم لبثت فى إغفاءتى .. ولكن الذى أدريه أنى استيقظت فجأة وأنا أحس بلسعة فى وجهى .. وأشم رائحة دخان و« شياط » تملأ الجو وكأنى أوشك أن أختنق .

« لقد تطاير بعض الشرر من المدفأة دون أن أشعر بذلك . فسرت النار إلى الرياش وإلىّ .. ووجدت النار قد اشتعلت فى كل ما حولى !

« ولم أفكر وقتذاك إلا فى شىء واحد .. نعم لم أفكر فى نفسى .. ولا فى الأثاث المحترق .. بل تركز ذهنى فى شىء واحد .. هو النقود .

« ووجدتها على المنضدة .. فى حقيبة يدى الجلدية .. سليمة كما هى .. لم تمسسها النار فأمسكت بالحقيبة وقذفت بها بعيدا عن النار إلى حجرة مجاورة .

« وبدأت محاولتى فى الاستغاثة وفى إطفاء النار .. وكل همى أن أحصر النيران فى موضعها حتى لا تمتد إلى بقية الدار .

« ووصلت الخادم ، ووصل الجيران .. وتعاون الجميع على إنقاذى ، وعلى إخماد الحريق .. حتى تمكنوا فى النهاية من التغلب عليه .. وانتهى الأمر بسلام .. دون أن أخسر ، إلا شيئا واحدا .. أظنك تستطيع تخمينه » .

ونظرت إلىّ بمنظارها الأسود .. وتخيلت ما يحجبه الستار الزجاجى من بصر خاب وعينين مظلمتين .. وأصابتنى رجفة ، وحاولت جهدى أن أحبس

دمعتين همتا بالانسياب من مقلتى .

وران الصمت برهة .. ووجدتنى أقطعه هامسا :

— وبعد ؟

— رقدت على الفراش .. مغمضة العينين .. إغماضة الأبد .. وكان أول ما فعلته عندما أفقت من إغمائى .. أنى طلبت الخادم .. وأمرتها بأن تأخذ المبلغ من الحقيبة .. وأن ترسله إليه بالبريد على أنه من عمه .. وظللت أتقلب على الفراش متململة .. فلم أهدأ حتى عادت وأنبأتنى بأنها قد أرسلته .

وعادت إلى الصمت مرة أخرى .. وعدت أستحثها لكى تتمم حديثها متسائلا :

— وماذا فعل هو ؟

— وماذا كان يستطيع أن يفعل ؟.. لقد حزن علىّ حزنا شديدا ... واستمر يعودنى كل يوم ... وأنبأنى بأن عمه أرسل إليه النقود وأنه قد سدد بها دينه .

— وزواجكما ؟

— لقد أحللته منه .. ماذا كنت تظننى فاعلة ؟ أألقى عليه عبء امرأة ضريرة لينوء به مدى حياته ؟ لقد عرض علىّ الزواج .. ولكنى رفضت .. فقد اعتبرت عرضه رثاء وعطفا وتأدية للواجب .. ولم أكن حمقاء لأنقذ حياته ثم أدمرها ثانية .. لقد أبيت زواجه .. ورجوته أن يتزوج من يشاء ومتى يشاء .

— وهل تزوج ؟

— أجل ...

— من ؟

— ابنة عمه الذى أنقذه أبوها .. من الدمار والضياع !

— كيف ؟.. ألم تنبئينى بأنه استمر إلى النهاية دون أن يعرف الحقيقة ؟!

— بل لقد عرف .. ولكن بعد أن تزوج وأتى إلىّ ذات ليلة فجثا أمامى راكعا وبلل وجهى بالدمع .. دمع الشكر والحب والتقدير .. وكان هذا خير ما لقيت

من عزاء .. انبأنى مرة ثانية بأنه على استعداد لأن يترك زوجته من أجلى .. ولكنى رفضت وسألته الرحيل .. ثم حاولت بعد ذلك أن أنساه !

ــ ولكن النسيان قد تعذر عليك ؟

ــ لم يتعذر تماما .. إنى أكاد أنسى ، لولا شوق يعاودنى من آن لآخر .. فينكأ القرح ويدمى الجرح .

وساد الصمت ، ومددت يدى متشاغلا بإدارة مفتاح الراديو .. وفى سكون الليل علا صوت أم كلثوم أشبه بأنين قلب مكلوم يهتف :

« وعادها الشوق للأحباب فانبعثت تبكي وتهتف أحيانا بشكواها »

ولم تكن وحدها التى انبعثت تبكى .. لقد كنت أنا أيضا أبكى .. على أنى تمالكت نفسى وتماسكت .. وعدت أستمع إلى الصوت الساحر الذائب الذى يزفر وجدا ويلهث جوى :

يا جارة الأيك أيام الهوى ذهبت كالحلم ، آها لأيام الهوى آها

الشيخ زعرب



الإهـــداء

معجزات هذا البلد فى عصرنا ثلاث :

« أم كلثوم » و« عبد الوهاب » و« الريحانى » .

وقد سبق أن أهديت كتابى « أغنيات » إلى المعجزتين الأولى والثانية . ويبدو لى أن المعجزتين إما تجهلان القراءة ، أو تجهلان الذوق ، لأنهما لم تشعرانى بأنهما أحستا بالإهداء .

وأشعر رغم ذلك أن من واجبى أن أهدى كتابى هذا إلى المعجزة الثالثة . يشجعنى على ذلك أنها خرجت عن نطاق البشر وأضحت فى عداد الأرواح ، وأنها بذلك ستجنبنى ـــ لا محالة ـــ مشقة جحود الأحياء .

فإلى روح « الريحانى » أهدى كتابى هذا . فهو أحق من سواه .

بـ « الشيخ زعرب وآخرون » .

« يوسف السباعى »



مقدمة

هذا الكتاب توأم لـ « أبو الريش » .. والتوأمان مصريان أصيلان منتزعان من صميم الحياة المصرية الأصيلة .. بين الحوارى والدروب .. أو بين « أبو الريش وجنينةناميش » .

ولئن كان رابط القصص فى مجموعة « أبو الريش » هو عامل المكان .. فإن رابطها فى « الشيخ زعرب » هو الشخصية .. والرابط فى كلا التوأمين كما قلت مصرى .. ولذا فليس هناك حد فاصل بين التوأمين .

« فالشيخ زعرب وآخرون » قد يعيشون فى « أبو الريش وجنينة ناميش » وما بينهما ... وكذلك قد تحوى دروب « أبو الريش وجنينة ناميش » الكثير من أمثال « الشيخ زعرب » وزملائه .

ولست أدرى ما إذا كان هذا النوع من القصص المحلى الفكاهى الساخر يرضى جمهرة قراء البلاد العربية كالعراق وسوريا ولبنان ومراكش وغيرها من الشقيقات الناطقات بالضاد والذين يشاركون القراء المصريين فى استيعاب جزء كبير من إنتاج الأدب العربى .

لست أدرى مدى رضاء هؤلاء الإخوان عن مثل هذا النوع من الإنتاج ولكن الذى أدريه هو أن هذا النوع شيء واجب .. فهو لا يعدو تسجيل لوحات كائنة فى حياتنا .. بل إنها هى حياتنا فعلا .. وإذا لم يسجل الكاتب حياة قومه .. فمن يسجلها ؟

بقيت كلمة أحب أن أوردها فى هذا التقديم .. وهى دهشى من ذلك الانزعاج الشديد الذى يصيب البعض عندما يصطدمون ـــ على حد قولهم ـــ هنا وهناك ببعض الأغلاط اللغوية .

وإنى أوافقهم على أن هذه الأخطاء على قلتها أشبه بالأتربة التى قد تؤثر تأثيرا ظاهريا على بهجة الكتاب .. ولكن أعتقد أن مهمة الإزالة هذه توكل دائما إلى المصححين .. وأن الكتاب يمر قبل الظهور على ما لا يقل عن أربعة من ذوى العمائم والتمائم .. فإن بقيت به بعد ذلك أتربة فهو تقصير من مزيلى الأتربة اللغوية أو كناسى اللغة .

ولكن ذلك لا يجب أن يدعو البعض إلى مثل هذا الانزعاج الذى يبدونه ، فاللغة أولا وآخرا لا تزيد عن وسيلة للتعبير . وصحتها تقاس بقدرتها على إفهام الغير ما تود قوله ، والتأثير على نفسه بما فى نفسك وإشراكه معك فى تفكيرك ومشاعرك .

وإذن فمن الخطأ أن نباشرها كشىء معقد فى ذاته ، ثقيل فى مباشرته ، بل يجب أن تكون لدينا الجرأة فى التحلل من كثرة قيودها وتعدد نظمها وقواعدها ، وتشكيلاتها وتصريفاتها .

وإنى أعتقد أن الزمن كفيل بذلك .. فهو جار فى تخفيف اللغة بما يناسب تطور التفكير ، ولست أشك فى أن تسعة وتسعين فى المائة من القراء لا يشعرون قط بما قد يصادف هؤلاء البعض من الأخطاء التى تصدهم وتزعجهم .

وما دامت أمثال هذه الأخطاء وهى غير متعمدة لا تحس بين الأغلبية الراضية .. فليس على الأقلية المنزعجة إلا أحد أمرين : إما تعودها حتى تصبح فى حكم الصواب ، وإما إراحة أنفسهم بتصحيحها فى سكون .

إن مباشرة اللغة العربية كحرفة معقدة مليئة بالنظم والقواعد شىء يجب أن يزول .

وهو أمر يحتاج إلى جرأة قدير كجرأة « دانتى » حينما ترك اللغة اللاتينية جانبا وجعل من الإيطالية المحلية لغة أدب .

وبعد ، أرجو ألا يكون فيما كتبت مزيد من إزعاج لمحترفى اللغة .

« يوسف السباعى »

الشيخ زعرب

ما زالت مصر بلد العجائب والمتناقضات وهذا الخليط في ميدان الغفير خير شاهد على ذلك .. فداخل السرادق وخارجه يبدو أكبر تناقض يمكن أن تقع عليه عين ..
داخل السرادق تصطف الحكومة المصرية الفاخرة ، وخارج السرادق يحتشد الشعب غير الفاخر .

قبل أن أقص عليك قصته .. تعال معى نجول جولة فى وجهه .

رويدا .. رويدا .. حتى لا نضل بين الأخاديد والتجاعيد والوهاد والنجاد .... لنبدأ « من فوق لتحت » .. من أعلى قمة له .. حيث يقوم طرف زر بلا زر .. قصير أشبه بعقب السيجارة .. يعتلى طربوشا .. ليس به من سمات الطرابيش إلا هيكله المنهار الجوانب المطبق الجدران ، أما اللون فأسود أغبر تكون من خليط من تراب وعرق ، ولنهبط بعد ذلك إلى وجهه ، فنستقر على جبينه برهة .. حيث يصادفنا أول نتوء فى منتصف الجبين .. نتوء أشبه بكاللو وارم منتفخ .. رفعت عنه حافة الطربوش التى بدا من أسفلها شيء أشبه بحرف طاقيا بيضاء .. أو منديل رأس .. يعصب به الرجل رأسه حتى لا يكبس ذلك الطربوش على نافوخه ، وتمر بالنتوء البارز أخاديد متعرجة متوازية تنحدر يمينا وشمالا فى جبين الرجل حتى تصل إلى الأذنين .. يقطعها من أسفل أخدودان رأسيان يمران بين العينين ويستقران على أعلى الجبهة فى وجه الرجل ، والنتوء من أهم الظواهر فى جبين الرجل ، وهو لا يستمد أهميته هذه من هيئته الطبيعية بل من قيمته المعنوية .. فهو بمثابة مواهب ومستندات وشهادات على ولاية الرجل ،

وإدمانه الصلاة والعبادة والسجود .

إن هذا البروز .. هو زبيبة الصلاة .. وآية الورع والتقوى .

لنعبر زبيبة الصلاة .. أو كاللو التدين والولاية .. ولنهبط بين العينين فنستقر على أرنبة الأنف ولنقلب البصر ذات اليمين وذات اليسار بين العينين والأذنين .

فأما الأذنان فعريضتان .. كأنهما جناحا خفاش أو أذنا حمار ، وأما العينان فمن الجور أن نسميهما عينين .. فهما لا تعدوان أخدودا أكثر عمقا يتمم أخاديد الجبين ، ولولا ارتجاف فى الجفن بين آونة وأخرى ، ولولا تعودنا أن نجد عينين فى هذا المكان من الخلقة الآدمية ، لما اعترفنا بعينى الرجل ، ولما أحسسنا لهما وجودا !.

أما وقد توقفنا أمامهما ، واعترفنا بوجودهما .. فليس هناك بد من التمعن فيهما ، والتحقق فى أوصافهما .. الرموش أو بقايا الرموش دائمة مسبلة ، والجفون مغلقة مطبقة .. فإذا ما فتحت دفعت إلى الذهن قول شوقى « مقروح الجفن مسهده » . فلا أظن أن هناك مثلا أفضل منه للجفون المقروحة الدامية الذابلة ، ويعلم الله أمن سهد قرحها أم من رمد ..! على أية حال .. إن الرجل من أولياء الله وعشاق الرسول .. فهو والحال كذلك يدخل فى زمرة العشاق ، وسهد العشق لا يستبعد على مثله !.

فإذا ما تركنا العينين إلى الأنف ، وجدنا أنفه هيئة ضخمة محترمة .. تشغل من فرط عرضها وضخامتها ثلثى مساحة الوجه ، وهو من حيث الشكل أشبه بالطربوش السابق الذكر .. ليس له هيئة محدودة .. بل منبعج مفرطح ، ملىء بالمسام والشعيرات .

فإذا هبطنا من الأنف ، وجدنا أنفسنا قد استقررنا فجأة على الشفة العليا .. أو بتعبير أصح الحافة العليا للفم .. دون أن نعبر المسافة المفروض أن توجد بين الأنف والشفة التى ينبت فيها الشارب فى الوجوه الآدمية الأخرى ، ويعلم الله .. إذا كانت لتلك المنطقة المستترة وجود فى وجه الرجل .. أم لا وجود لها ! فإن

طرف الأنف قد تدلى ، حتى أخفى ما وراءه .. فبدا شارب الرجل وكأنه قد نبت من طاقتى أنفه ، واختلط بذقنه البيضاء الشعثاء الهابطة من شحمتى الأذنين إلى منتصف الصدر ، والتى يحيط بها .. المستند الثانى لولاية الرجل ، وهو المسبحة المعلقة حول عنقه المدلاة على صدره ...

استرح برهة ، وخذ نفسك .. فأغلب ظنى أن الملل والتعب قد أصابك من تلك الجولة المنهكة فى هذا الوجه المقفر الخرب .

لا تريد أن تستريح !. ذنبك على جنبك .. هيا بنا وراء الرجل لنرى إلى أين نذهب .

إن اليوم لديه يوم مشهود فقد ارتدى بدلة التشريفة الكبرى ، وأخفى هلاهيله بعباءة فضفاضة حمراء خضراء وأمسك فى يده عصا المرشالية وهى أشبه بالعصى التى تستعمل فى تنظيف الأسقف التى توضع فى نهايتها (رأس العبد) . لا تختلف عنها إلا فى أن زعرب استبدل بالعبد كلمة (الله) منقوشة على صفيحة أشبه بشخشيخة تتدلى منها شرابة كانت فيما مضى (دكة لباس) !.

لنذهب وراءه .. حتى يستقر المقام بنا وبه فى أرض الغفير حيث الاحتفال بالمحمل .

الميدان فسيح .. قد اصطفت فى منتصفه قوات الجيش ما بين فرسان ومدرعات ومشاة ، والجنود متأهبة والمدافع منصوبة .. كأننا فى ميدان قتال ، والنداء يعلو من مكبر الصوت فتهتز الأسلحة وترتفع وتنخفض ، والله وحده يعلم ما صلة كل هذا بالمحمل .

لننتظر .

أين المحمل ؟، وأين الشيخ زعرب ؟.

ها هما هناك .. فى أحد أركان الميدان ، وأمامهما صفت السرادقات المقامة فى واجهة الميدان وقد تكأكأ فيها حشد من القوم يتطلعون بأبصارهم فى لهفة .. إلى لا شىء .. ويتشوقون إلى مشاهدة ما سبق أن شاهدوه عشرات المرات

بلا تغيير ولا تبديل .

وتبدو بضعة جمال .. بينها جمل مصبوغ بالحناء . وقد وضع على رأسه منفضة .. أى والله منفضة ريش لا تختلف قيد أنملة عن المنافض التى يزيلون بها التراب عن الأثاث ، ويأخذ الجمل فى البعبعة والكركرة ، ثم يجذب قائده مقوده إلى أسفل ويبركه على الأرض ، ويأخذ طابور من جنود بلوك الخفر المرتدين الفانلات الصوف البنى فى حمل الهودج المستقر بجوار الجمل ليضعوه على ظهره ويثبتوه به .

ويرفع الجنود الهودج بعد أن يحيطوا به من كل ناحية فى الوقت الذى ينطلق فيه الصياح من حناجر « طقم المحمل »منشدين بصوت نشاز بضعة أناشيد لا يفهم لها معنى .. ملتفين حول الجمل البارك ، وبينهم الشيخ زعرب يهتز مترنحا وقد رفع عقيرته بالغناء .

يظل الهودج يتمايل بين يدى الجنود ، وهم يحاولون تثبيته على ظهر الجمل ، والثلة العجيبة ، من الأولياء وأهل الله تترنح وتتمايل وتنعق فاغرة أفواهها كالغربان وقد تكون منهم خليط مضحك يعجز أقدر المسارح الكوميدية عن إخراج مثله .. ففى خلقهم عجب ، وفى لبسهم عجب .. تراهم ما بين أكرش منبعج ، وهزيل نحيل ، وأعرج وأكتع وأحدب وأعور .. قد غطوا أجسادهم بعباءات صفراء ووضعوا على رءوسهم عمائم بدت فى مجموعها أشبه بقوس قزح .. فهذا قد لف عمامته بشال بنفسجى ، وذاك بشال فستقى ، والآخر بشال أحمر إنجليزى .

وينتهى القوم من تثبيت الهودج على الجمل .. عندما تسمع فى الجو أصوات صفافير وفرقعة متوسيكلات .. ثم تبدو عربة حمراء فخمة أنيقة ، وينطلق صوت المكبر آمرا الجنود :

« سلام نائب الملك » .

فترتفع الأسلحة وتنخفض ، وتبدأ المدافع قصفها والموسيقى عزفها .

ويقف زعرب وسط جمهرة الأولياء .. يقلب البصر فيما حوله .. ثم يرفع شفته السفلى .. اشمئزازا ، ويهز رأسه عجبا !

كل شيء كما هو .. لا جديد فى ميدان الغفير .. ولا فى غير ميدان الغفير .

ما زالت مصر بلد العجائب والمتناقضات ، وهذا الخليط فى ميدان الغفير خير شاهد على ذلك .. فداخل السرادق وخارجه يبدو أكبر تناقض يمكن أن تقع عليه عين .

داخل السرادق .. تصطف الحكومة المصرية الفاخرة ، وخارج السرادق يحتشد الشعب المصرى .. غير الفاخر .

ويأخذ المحمل فى الاستعداد للتحرك ، وتصطف أمامه صفوف من الجند بالملابس البيضاء ، ويعلو صوت المكبر صائحا : « سلام المحمل سلاح سلام » .

وتصدح الموسيقى ، ويبدأ المحمل سيره فى لفة ضيقة ، وقد سار وراءه موكب من الجمال .. يعلوها نافخو المزامير وبعض المشاة من أولياء الله ، واندس بينهم الشيخ زعرب .

وبدأ الشيخ زعرب يعد اللفات فى سره .

طبعا سيلف المحمل سبع لفات كما يفعل كل سنة !

عجبا .. لم كانت سبعا ، وليست ستا أو ثمانى ؟.. هذا شيء علمه عند أهل الدين .

ولكن ما السبب لأن يلف المحمل حول نفسه فى ميدان الغفير ؟. وما السبب فى وجود كل هذا الجيش ؟.

علم ذلك عند الله وحده .

ويبدأ قصف المدافع .. والشيخ زعرب لا يخاف شيئا كهذا الدوى .. فهو يذكره بأيام الغارات .. وأخذ جسده ينتفض عقب كل طلقة .. وأخذ يرفع بصره مستنجدا بالمحمل .. ثم انتقلت عيناه من هودج المحمل إلى الهياكل الخشبية

التى وضعت عليها الكسوة الشريفة وقد طرزت عليها بالقصب آيات قرآنية كتبت بخط جميل تشابكت حروفه .

وهز زعرب كتفيه فى عجب ! وساءل نفسه : ماذا يضيرهم لو كتبوها بطريقة مقروءة ؟! أم تراهم كتبوها غير مقروءة من أجل الذين لا يعرفون القراءة ؟!

وانتهى المحمل من لفاته السبع .. وبدأت القوات العسكرية تتحرك للمرور فى الاستعراض .. ووقف زعرب يرقب ذلك الجمع الهائج المائج ، وشرد به الذهن إلى زمن مضى يبدو له غير بعيد ، كأن السنين الغابرة التى تفصله عنه قد تقلصت وانكمشت ، فبات منه على قيد ليال وأيام أو بات أقرب إليه من أمسه القريب .

كان أول عهده بالمحمل منذ خمسين عاما ، وقد جلس يرقبه من طابونة أبيه فى حى الحسين ، وكان الناس قد تكأكأوا فى الشوارع حتى لم يبق هناك موطئ لقدم .. واشتد الزحام فى النوافذ وفوق الأسطح حتى بات الناس كأنهم ذباب حط على قطعة حلوى !

وبدت بشائر الموكب وظهر المحمل يتهادى ، ووراءه المزامير تنفخ والأناشيد تتلى والدعوات تتعالى ، وبين تلك الأصوات المختلطة كان يعلو صوت صرخات حادة . وأخذ زعرب يبحث عن صاحب الصوت .. حتى وقع بصره على مخلوق عجيب قد لف فى أسمال حمراء خضراء صفراء زرقاء بيضاء سوداء ، وأحاط عنقه بقلائد من الودع وصغار المحار ، وأخذ يقفز ويتواثب ويتراقص وراء المحمل صارخا بأعلى صوته : « أنا فى جاه النبى » !

وسأل أباه عن هذا المخلوق الراقص الصارخ . فأجابه بأنه الشيخ كتكوت أحد مجاذيب الحسين ، وهو رجل به (هفة) تدفعه كل عام إلى أن يعدو وراء المحمل بهذه الهيئة ، ولا يهدأ له بال حتى يشيع المحمل إلى نهايته .

وتعود بعد ذلك أن يرى الشيخ كتكوت كل عام وهو يعدو وراء الموكب مستغيثا بجاه النبى ، وانطبعت صورة الرجل فى ذهنه على هيئته تلك . ولم يعد

يتصور أن الرجل يمكن أن يكون إلا على هذه الحالة من العدو والصياح .. حتى كان ذات يوم وقد جلس فى الطابونة بجوار أبيه يرقب أقفاص العيش الخارجة ويرصد الحساب الداخل ، ويأمر وينهى بين الخبازين والفرانين عندما سمع عواء أشبه بعواء كلب جريح وصيحات متتابعة « حرامى » .

وترك مقعده واندفع إلى خارج الطابونة يتبين جلية الأمر .. فإذا به يرى الشيخ كتكوت يعدو ، ولكنه كان هذه المرة بلا محمل يتقدمه ، بل بموكب من الرجال والصبية يعدون وراءه .. ينهالون عليه بالعصى والطوب وهو يطبق بجنون على رغيف فى يده ويصيح بأعلى صوته ، كما تعود أن يصيح : « أنا فى جاه النبى » ، ولكن كان هناك فى هذه المرة ما يستحق الاستغاثة .

وتكاثر القوم على الشيخ كتكوت .. يحاولون نزع الرغيف من يده .. منهالين عليه بالسباب والشتائم . وكان الرجل قد بلغ باب الطابونة ، ولم يجد ملجأ سواه .. فانحرف فيه فجأة مختفيا داخل الطابونة مبتعدا عن مطاردة الناس له .

وتكأكأ القوم على الباب ، ووقف زعرب فى طريقهم يمنعهم من الدخول ، وصاح به أحدهم :

ـــ امسك الشيخ كتكوت الحرامى .. المجرم .. لقد رأيته بعينى يسرق الرغيف من فوق القفص .

وبلا تفكير مد زعرب يده إلى أحد الأقفاص المرصوصة فى الداخل وأعطاه للقوم ، وصاح بهم :

ـــ ما هذا الضجيج .. إن الرجل لم يسرق شيئا .. هاكم الرغيف المسروق انصرفوا وشأنكم .

وتفرق القوم مخذولين محسورين .. فما كانت المسألة مسألة رغيف .. بل كانت رغبة فى الأذى وحبا فى الشر !.

والتفت إلى الداخل فوجد الشيخ كتكوت يقف وراء كوم من الأقفاص وقد

أطبق بأسنانه على الرغيف يقضمه بنهم وعجلة كأنما يخشى أن يستعيده منه القوم .

ومضت عليه برهة وهو فى مكانه لا يريد الانصراف ، أو كأنه قد أضحى فى مأمن لا يود تركه .

ولكن زعرب أنبأه أنه يستطيع الانصراف بالرغيف آمنا مطمئنا ، دون أن يخشى شيئا .. وعاد إلى داخل الطابونة .. فسأله أبوه عما هناك فأخبره بما رأى وما فعل .

واستحمقه أبوه ، وانهال عليه باللوم والتقريع ، وأنبأه أن هذا الرجل الذى أحسن إليه بالرغيف لا يستحق الحسنة لأنه يملك آلاف الجنيهات .. جمعها من التسول .. إنه يعرفه تمام المعرفة ، وأنه إنما يدعى الجوع والفقر ليأخذ ما يريد .. وأصر على أن يخصم ثمن الرغيف من مصروفه .. حتى يعطيه بذلك درسا لا ينساه .

ومرت السنون ، واختفى المحمل ، واختفى معه الشيخ كتكوت ومات أبو زعرب .. وآلت إليه الطابونة بما فيها وأضحى هو صاحب الأمر والنهى .

وأثمر فيه درس أبيه .. فلم يحاول أن يحسن قط .. بل كان كل همه هو جمع المال .

وانتعشت أعماله ، وزاد رزقه واتسعت موارده .. وبلغ أوج مجده وارتفعت قمة غناه ، واطمأن إلى الدهر .. حتى خذله الدهر فجأة .. عندما حدث حريق فى الطابونة ذات ليلة .. فأتى عليها وأودى بما فيها . وأصبح عليها الصبح التالى فإذا بها خليط من هشيم ورماد .

وكانت صدمة مروعة عنيفة .. لم يفق منها حتى الآن .. وانحدر به الحال .. حتى بات لا يجد له مرقدا ولا مأوى إلا على قارعة الطريق بجوار الحسين وسط تلك الثلة من المجاذيب والأولياء .

وهكذا دخل فى زمرة المجاذيب ، وطبعته السنون بطابع أولياء الله ، وأنبتت

له الزبيبة السالفة الذكر ، واتخذ مكانه المختار على مصطبة قيل له إنها كانت من قبل لرجل يدعى الشيخ كتكوت ، كان من أولياء الله الصالحين لم يرتكب فى حياته سيئة أو يفعل منكرا ، سوى أنه سرق رغيفا ذات مرة عندما ضاق به الحال حتى أوشك أن يموت جوعا !.

وصاح زعرب بمحدثيه :

ـــ إن الشيخ كتكوت لم يسرق .. فقد رد الرغيف إلى أصحابه .

ومن أدرى بذلك سواه ؟!

ووجد زعرب نفسه يسير فى ذلك الطريق الذى سلكه سلفه الشيخ كتكوت ، ولم يكد الاحتفال بالمحمل يعود إلى سابق عهده بعد طول اختفاء .. حتى اتخذ زعرب مكانه وراء الموكب .. يعدو راقصا صائحا « أنا فى جاه النبى » !.

* * *

وعاد زعرب إلى نفسه وأفاق من شروده .. عندما بدأت المدافع تطلق تحية لنائب الملك وهو يهم بالانصراف .. وتحركت العربة الفخمة تليها بقية العربات فى عجلة وتزاحم كأنها فى سباق .

وبدأ الموكب يستعد للمسير .. هابطا إلى شارع العباسية ثم شارع فاروق وقد تكأكأ الناس على جوانب الطريق واحتشدوا فى النوافذ والشرفات .

وأخذ سيل المجاذيب يتدفق وراء المحمل ، وانطلقت الزغايد وتعالت المزامير ، والطبل البلدى ، وأضحى الموكب أشبه بزفة راقصة .

واتخذ زعرب مكانه وسط المجاذيب ، وبدأ فى الرقص والصياح .. عندما مر بذهنه فجأة قول الرسول : (إنى مباه بكم الأمم يوم القيامة) .

وتلفت حوله باحثا فاحصا وحاول أن يجد فيما حوله شيئا يستحق أن يباهى به الرسول ، ثم هز رأسه متشككا وقال لنفسه :

« شد ما أخشى أن نخذلك يا رسول الله » .. وسرعان ما أبعد عنه خواطره ثم

اندفع فى الرقص والصياح : « أنا فى جاه النبى » !.

* * *

وأخيرا انتهى الموكب .. أو الزفة ، ووجد زعرب نفسه يعود فى النهاية إلى جحره متعبا مكدودا وقد نال من الإعياء ، وأحس بقارصة الجوع فما دخلت جوفه لقمة واحدة طول اليوم ، ولم يكن يملك شيئا يستطيع أن يشترئ به طعاما ، ومر بخاطره أن حرفا واحدا من تلك الحروف المختلطة التى طرزت بها الكسوة .. كان يمكن أن يهيئ له ولعشرة من أمثاله وليمة فخمة ، ولكن من يدرى بوجوده أو يشعر بجوعه !

ووقع بصره فجأة على حانوت للعيش قد رصت فى دولاب فى واجهته الأرغفة وقد أخذ سطحها المنتفخ يبرق متوردا .. وخطر له أن يمد يده فيخطف رغيفا ، ولكنه تذكر الشيخ كتكوت وتذكر مصيره عندما سرق الرغيف وتخيل كل سكان الشارع وقد أخذوا يعدون وراءه ، ويشبعونه ضربا ولطما .. كأنه بسرقة الرغيف قد أماتهم جوعا .

ووقف برهة يحملق إلى الأرغفة شارد الذهن غارب البال ... عندما أحس بيد توضع على كتفه وسمع صوتا يناديه :

— تفضل يا شيخ .

وتلفت وراءه فوجد صاحب الحانوت بصديريته المخططة وسرواله الطويل ، وجسده النحيل وقد مد يده إلى الدولاب فأخرج أحد الأرغفة وأعطاه له .

هذا آخر ما كان يتوقعه ..

وأخذ زعرب الرغيف فى إطراق وصمت ، وبدا له كأنه يعرف صاحب الوجه من قبل .. ولكنه لم يتذكر أين رآه !. ولا من هو .

وقبل أن ينصرف زعرب قال له الرجل :

— احضر إلىّ كل يوم حتى أعطيك رغيفا .. سأجعله راتبا يوميا لك .

وتمتم زعرب ببعض الدعوات ثم أدار ظهره وهم بالانصراف .

ولكنه لم يكد يخطو خطوة حتى أبصر صبيا يفد على الحانوت ويصيح بصاحبه :

ـ أعطني أقتين يا معلم كتكوت .

كتكوت !.. كتكوت !.. أجل لقد تذكر .. إن هذا الشبه هو شبه الشيخ كتكوت بعينه .. إن الرجل لا شك ابنه .

عجبا !.. أبعد هذا العمر الطويل .. يرد الدين بالربح المركب !؟

حقا .. « افعل المعروف وارمه البحر ، فهو لا شك مردود إليك وإلى ذريتك من بعدك !!.. » .

حسن أفندى

هذه قصة يرويها « طربوش حسن أفندى » . هل سمعتم عن حسن أفندى ؟ أجل .. أجل .. إنه هو حسن أفندى الشهير صاحب النكتة إياها .

ماذا تقولون ؟.. إن بعضكم لا يعرفها !! وتطلبون منى أن أرويها لكم .. لا .. لا .. عيب جدا .. هذا كلام لا يروى .. إن كل ما أستطيعه هو أن أدع « طربوش حسن أفندى »يروى قصته .

أنا لا شك طربوش قدير .. طربوش « بهلوان »ولو لم أكـن كذلك لما استطعت أن أستقر لحظة على رأس حسن أفندى .. من فرط « ما عوجنى » على حاجبه الأيمن .. إنى لا أكاد أبصر نفسى فى المرآة حتى يصيبنى الذعر ويخيل إلى أنى سأهوى من فوق رأسه .. ومع ذلك . فما هويت قط .. بل استطعت أن أحتفظ بتوازنى دائما ، حتى فى الأوقات الحرجة التى ينهمك فيها حسن أفندى فى تلعيب حواجبه على سبيل « البصبصة » .

إن حسن أفندى رجل بصباص .. لا يشغل رأسه فى الحياة شيء كالنساء .. وهو لذلك شديد « العياقة » .. وكل « عياقته » تنصب علىّ وعلى شاربه .

إنى أبصره الآن أمامى ، وقد تمدد فى فراشه .. وعلا شخيره وصفيره .. وبدا منظره كأقبح ما يكون إنسان .. وقد تعرى جلبابه عن ساقين كالجريد .. ومال كرشه على أحد جوانبه ، وانفرجت شفتاه الغليظتان فى بلاهة لتخرج أنفاسه الصاخبة .. وتهدل شارباه .. وأسبل جفناه ، وغطى رأسه بطاقية بيضاء مخططة .

كانت الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر .. وقد تناول حسن أفندى غداءه

فى « المسمط »القائم على ناصية الشارع والذى تعود أن يتناول فيه غداءه كل يوم حتى لقد مللت أنا نفسى منظر لحمة الرأس وفتة الكوارع .

وبدأ حسن أفندى يتقلب على جنبيه .. ويفرك بيديه أجفانه ، ويتثاءب ويتمطى ، ثم نهض من فراشه أحمر العينين منتفخ الوجه ، ودس قدميه فى القبقاب .. وسار يقرع به أرض الحجرة متجها إلى الحمام .

وسمعته يتنخم ويتمخط ، ثم بدأ يرفع عقيرته بالغناء صائحا بصوته النشاز :

« يا مالك قلبى بالمعروف .. حبك كوانى تعالى شوف » .

وأخيرا خرج من الحمام ، وقد أغرق رأسه ووجهه بالمياه ، وأمسك بمنشفة ، أو على الأصح بمسحة — فقد كانت من فرط قذارتها لا تصلح إلا لمسح البلاط — ووقف أمام المرآة يمشط رأسه بتؤدة وعناية .

وخلع الرجل جلبابه .. ووقف بالقميص « الكريشة »واللباس « البفتة »الواصل إلى ما تحت ركبتيه وأخذ يتحسس عضلاته ، ويحرك يديه إلى أعلا وإلى أسفل فى شبه تمرينات رياضية .

ومد يده فسحب القميص من فوق المشجب وأخذ فى ارتدائه ، وأحكم ربط الكرافتة حول الياقة المنشاة التى قد علاها إطار من العرق والقذارة ، ثم دس ساقيه الرفيعتين فى بنطلون أخرجه من تحت مرتبة السرير .

وأتم الرجل ارتداء ملابسه .. واطمأن على المنديل الحريرى فى جيب الجاكتة .. وعلى كتينة الساعة فى جيب الصديرى .. وأخذ يفتل شاربه بعناية بالغة ، واضعا عليها بعض الكوزماتيك .

وبدا عليه الرضا التام .. ومد يده إلىّ فنقرنى بأصبعه بضع نقرات أثار بها من جسدى هاجع الأتربة .. فعلتنى سحابة قاتمة من الغبار .. وأخذ يمسحنى بكمه بشدة حتى انجلى عنى معظم ما بى ، وأحسست بشىء من الخفة والنشاط .

ونظر إلى المرآة ووضعنى على رأسه بعناية بالغة ، وميل شديد على أحد حاجبيه .

وخيل إلىّ أن ميلى على حاجبه فى هذه المرة أكثر من المعتاد .. وبدا لى من حركاته أنه مقدم على أمر جلل .. وخاصة بعد أن أبصرته يمسح حذاءه فى ساق بنطلونه .

وأخيرا .. وبعد أن اطمأن على منظره تماما .. تناول عصاه ، وغادر الحجرة هابطا الدرج فى ثقة واعتزاز .

وكنت أعرف طريقه الذى لا يحيد عنه ، ووجهته التى لا يقصد سواها .. وهى دكان الأسطى زكى المزين ، الكائنة فى شارع خيرت ، فهو يهبط من البيت فى شارع الناصرية ، فيلقى التحيات ذات اليمين وذات اليسار ويرفع بصره خلسة إلى النوافذ علّ بها ما « يشبرق » به نظره .. ثم يتمهل أمام « المقلة » .. حيث يحشو جيوبه باللب الجرنة والفول السودانى ، ويتحرك بعد ذلك قاصدا « عم على الشربتلى » .. حيث يتوقف أمام البرطمانات الزجاجية الشفافة .. المليئة بالليمون والخروب والعرقسوس والتمر هندى ، ويتحسس بيده « السطل » النحاسى الذى تندى سطحه المثلج بقطرات الماء ، ويطلب كوبا من الخروب .

ويرحب به « عم على » أيما ترحيب ويمد يده إليه بشوب الخروب ، فيأخذ فى تناوله بتمهل وترو .. وعيناه ترقبان نافذة « أم زكية »الكائنة أمام دكان الشربتلى ، فلا يكاد يلمح ابنتها زكية .. وقد عصبت رأسها بمنديل تدلت منه « الأوية »الملونة على جبينها ، وأخذت « تطرقع » باللبانة بين شدقيها ، حتى يبدأ عملية البصبصة ، وأرتجف أنا فوق حاجبيه وأهتز وأحس كأن أسفلى زلزال .. ويأخذ حاجباه فى الصعود والهبوط .. وأنا أتمايل كأنى بهلوان على حبل ، أطلب من الله السلامة .. وأخشى بين لحظة وأخرى أن أفقد توازنى ويختل مقامى ، فأهوى على الأرض .

وأخيرا .. وبعد أن أكون قد أنهكت من فرط الاهتزاز وتلعيب الحواجب .. تصل إلينا ضحكة رنانة منطلقة من شفتى « زكية »مستقرة فى قلب

حسن أفندى .. فتثبت حواجبه ، ويتصلب جسده ، كأنه « مريوح » ، وتظل عيناه عالقتين بالنافذة والكوب مثبت على شفتيه .. حتى تختفى الفتاة من النافذة .

ويتمالك الرجل نفسه ويستعيد قواه .. فيتحرك بعد ذلك متجها إلى شارع خيرت .. فإذا صادفه أحد باعة التين الشوكى ، توقف أمامه وأخذ فى انتقاء التينة بعد التينة حتى يزدرد عشر تينات ، ثم يستقر بعدها على مقعده أمام دكان الحلاق .

كان هذا هو برنامج صاحبى اليومى الذى لا يحيد عنه .. وكان فى جلسته عند الأسطى زكى .. لا يفعل شيئا سوى البصبصة .

وبصبصة حسن أفندى تكون بإحدى طريقتين : إما بصبصة فى حالة الثبات .. أو بصبصة فى حالة الحركة .

ففى الحالة الأولى .. يجلس حسن أفندى على المقعد منتفخ الأوداج .. وقد وضع ساقا على ساق .. وأخذ يرقب الغاديات والرائحات ، مستعينا فى مغازلتهن بلسانه وحاجبيه .

والرجل لا يستثنى فى مغازلته عجوزا أو صبية .. فهو مندفع فى بصبصته بلا تمييز ولا روية .. كأن عليه واجبا لا بد من تأديته .. وهكذا تندفع التشبيهات من فمه كأنها السيل .. « يا بت ياللى زى الجوزية » .. « يا باشا ياللى زى البغاشة » .. « هز يا وز » .. « أنا أموت فى المهلبية » .. « نظرة يا ست يا ام العواجز » .. « إيه ده يا سى محمد .. إحنا سمنّا قوى » .

ويستمر حسن أفندى فى مغازلته .. حتى تمر به امرأة تدخل فى « مزاجه »وتثير نشوته فينتقل من حالة الثبات إلى حالة الحركة ، ويتحول من المغازلة الشفوية إلى المغازلة العملية .. فيترك مقعده ويهرول وراء المرأة .. ويظل يطاردها حتى بيتها .. وأحس حينذاك بالعرق يتصبب دونى وأرانى قد تزحلقت حتى صرت فى مؤخرة رأسه وأخيرا يعود من حيث أتى .

ورغم هذه المغازلات من حسن أفندى .. ورغم جريه فى الشوارع وراء النساء ، فقد كنت أعلم أن واحدة فقط هى التى تسيطر على تفكيره ، وتتحكم فى زمام قلبه .. وهى « زكية » بنت « أم زكية » .

* * *

خرج حسن أفندى من باب الدار .. وانتظرت أن يتجه إلى « المقلة » كما يفعل كل يوم .. فيحشو جيوبه باللب والفول ، ولكن لم يفعل .. بل رأيته قد تجاوز المقلة .. واتجه إلى دكان المعلم حسونة الحلوانى ، وأخذ ينقل بصره فى محتويات الدكان .. من بسبوسة ، وكنافة ، وجوزية ، وعلب ملبن ، وملبس ، وشربات .

وأخيرا طلب من المعلم حسونة أن يزن له رطلا من البسبوسة ، وآخر من الكنافة ، وأن يلفهما له مع علبتين من الملبن ، وخرج الرجل من الدكان حاملا اللفة .. وأنا فى دهشة مما ينوى أن يصنعه بذلك ، وزادت دهشتى عندما رأيته يتجاوز حانوت الشربتلى ، ثم ينتقل إلى الرصيف الآخر ، ويدخل بيت أم زكية .

إذاً فهذا هو الأمر الجلل الذى ينوى فعله .. وهذه الحلوى هدية للفتاة .

ما شاء الله .. أية جرأة تلك التى أصابت الرجل .. وماذا تراه مختلقا من أسباب للزيارة ؟

وصعد الرجل الدرج ثم توقف أمام باب الشقة ، ونقر الباب بأدب فأجابه صوت نسائى : « مين » ؟

وفتح الباب .. فإذا بنا أمام زكية وجها لوجه .

كان أول ما لفت نظرى ونظر صاحبى .. فى زكية هو مجرى العبير من نهديها فلقد كانت الفتاة ترتدى قميصا واسعَ فتحة الصدر بحيث أبدى ما بين النهدين فى وضوح وجلاء .

ووقف حسن أفندى مبهوتا مأخوذا ، وقد ثبت بصره على صدرها ،

ومضت لحظة وهو لا ينبس ببنت شفة .. حتى صاحت به الفتاة :

ــ ده إيه يا ختى ده .. ما تتكلم !! عايز إيه !!

وتكلم حسن أفندى فأنبأها فى صوت متلجلج أنه يريد الست أم زكية .

وعادت الفتاة تسأل متخابثة :

ــ نقول لها مين ؟

ــ حسن .. حسن أفندى المناويشى .. جاركم ومفتش مراجيح القاهرة بوزارة الشؤون الاجتماعية .

وعلا صوت من الداخل يصيح :

ــ اتفضل يا سى حسن .. أهلا وسهلا .. خليه يخش يا بنت فى أودة المسافرين .

وأفسحت البنت الطريق وسارت أمام حسن أفندى وقد انتقل بصره من نهديها إلى ردفيها .. وقد أخذا يهتزان فى رجرجة منتظمة داخل القميص المتسع .

وأخذت أطل على الفتاة من فوق رأس الرجل ، وقد أصابتنى أنا الآخر النشوة .. إننى ما توقعت قط أن أراها بمثل هذا النضج والامتلاء .. إن الرجل والله معذور .

وعلا صوت أم زكية مرة أخرى يصيح :

ــ اعملى قهوة يا بت لسى حسن ، دى خطوة عزيزة .

وخرجت زكية من الحجرة وحسن أفندى محملقا ببصره مأخوذا مذهولا .

وأنا حائر فيما ينوى الرجل طلبه من المرأة .

وبعد لحظات أشرقت عليه أم زكية بأكداس اللحم والشحم التى علت جسدها والكحل الذى أغرق عينيها .. والأساور التى رصت فى معصمها .. ولسانها الذى لا يهدأ فى فيها لحظة واحدة .

وبدأت المرأة حديثها مرحبة بحسن أفندى بقولها :

ــ أهلا وسهلا .. أهلا وسهلا .. داحنا زارنا النبى يا سى حسن أفندى .

ـــ أهلا بك يا ست أم زكية .. محسوبك حسن أفندى المناويشى مفتش ...

ـــ عارفاك يا خويا عارفاك .. وهوا فيه كام حسن أفندى فى حتتنا .. اسم الله عليك وعلى مقامك .. دانت نورت البيت .

ـــ الله ينور عليكى .

ـــ يا مرحبا .. يا مرحبا .

واستمر الطرفان يتبادلان التحيات بلا توقف ، وكنت على حال من القلق ، جعلنى أضيق ذرعا بهذه التحيات المتتالية كأنها طلقات مدفع ماكينة .. وتمنيت لو يدخل صاحبنا فى الموضوع رأسا ، حتى أعرف أى أمر جلل ، قد دفعه إلى المغامرة بدخول بيت أم زكية .

ولم يكن هناك شك فى أن إقدام مثل صاحبنا الذى أستقر على رأسه على دخول بيت مثل بيت صاحبتنا التى تستقر أمامى بطياتها وثنياتها .. أمر يعتبر فى الحقيقة مغامرة كبرى .

حقيقة أن حسن أفندى رجل بصباص .. وحقيقة أن مظهر الست زكية لا ينم على كثير وقار أو حشمة ، ولكن ذلك لا يمنع من اعتبار دخوله بيتها مغامرة .. لأن قدرة حسن أفندى فى مسائل البصبصة قدرة نظرية ، وأسلحته فى معارك الغزل لا تعدو الحواجب واللسان ، وهجماته فى ميادين الغرام لا تزيد على العدو فى الطرقات والتوصيل إلى الأبواب .

والست زكية ليست بالمركب السهل ، ودخول دارها قد يكون هينا لبصباص عملى « ابن حنت » .. أما السيد حسن أفندى ، الخائب إلا من بعيد ، الغريق فى شبر من الماء ، فقد كان دخوله للدار بمثابة إلقاء بنفسه إلى التهلكة .

وأحسست بالعرق يتصبب من أسفلى ، وأخذت أنزلق هابطا رويدا رويدا على الأذنين ، وازداد الارتباك بصاحبى بعد أن انتهى سيل التحيات المتدفق من فم المرأة ، وران الصمت ، وأخذت المرأة تتطلع ببصرها إلى حسن أفندى ، منتظرة أن يفصح عن رغبته .. وكان على صاحبنا أن يقول شيئا ، ولكنه لم يفعل سوى

أن مد يده ودفعني إلى الوراء ثم إلى الأمام بحركة عصبية ، كأنما يريدني أن أتحدث عنه .

وما لي أنا وهذا الشأن .. أنا لم أقل له اذهب إلى أم زكية وما كان لي أي علم بما ينوي أن يفعله .

قل ما شئت يا حسن أفندي .. تحدث .

وأخيرا تحسست يده علبة الحلوى التي بجواره .. حيث وجد فيها منفذا إلى حين ، فدفع بها إلى الست أم زكية قائلا :

ـــ اتفضلي يا ست .. حاجة بسيطة .. على ما قسم .. شوية حلويات .

ـــ من يد ما نعدمها ، وليه يا خوية التعب ده ؟

ـــ تعبك راحة يا ست أم زكية ، إحنا خدامين .

ـــ والنبي أمير وزي السكر ، ولا يجيب الحلو إلا الحلو .

واحمر وجه حسن أفندي ، حتى أصبح في مثل لوني ، وبدأ سيل آخر من المديح المتبادل .. ساعد على إنقاذه من ورطة الصمت .

وأخيرا انتهى المديح كما انتهت التحيات .. وعادت المرأة تتطلع ببصرها إلى وجه حسن أفندي .

تكلم يا سي حسن الله لا يسيئك ، قل ماذا تريد ؟ وأرحني وأرحها .

وأخيرا ، وبعد جهد مشكور ، أخذت شفتاه تنطبقان وتنفتحان استعدادا للحديث ، ثم بدأت الكلمات تخرج من بين شفتيه مضطربة مترددة ، قال لا فض فوه :

ـــ والله يا ست أم زكية ، أنا أصلي طول عمري .. من غير مؤاخذة ..

ثم كف الرجل فجأة عن الحديث ، وأخذ يحملق بعينيه إلى الباب ..

معذور .. معه حق .. لقد حملقت أنا الآخر .. فقد بدت زكية تحمل بين يديها صينية عليها شراب أحمر أغلب ظني أنه شربات ورد .

إن هذه الزيارة لن تنتهي على خير ، هذا الأحمق القابع أسفلي لن يخرج من هذ

سليما .

لقد أقبلت زكية بعد أن أبدلت ثوبها .. لا بأكثر احتشاما ، بل أكثر عريا .

كان الثوب الجديد أحمر إنجليزى فى لون الشربات الذى تحمله ، وكان بلا أكمام ولا صدر ، ولا شيء أبدا .. لقد تدلت ذراعاها بيضاوين ناصعتين ممتلئتين من فتحة كم متسعة أبدت كل ما حول منبت الذراعين من أعلى الكتف إلى أسفل الإبط .

وتقدمت الفتاة نحونا وكأنها خطر داهم .. وأخذت تقترب من صاحبنا الواجم الشارد الفاغر الفم ، ثم انحنت مقدمة له كوب الشربات .

وفى انحناءتها المقصودة انحسر صدر ثوبها وهبطت كرتا ثدييها مستندتين على صدر الثوب المنحسر وخرج شعاع البصر من عينى حسن أفندى متجاوزا الشربات عابرا فتحة الصدر ، مستقرا على الكرتين البيضاوين .. المتدليتين فى تثاقل كأنهما كرتا عجين .

وازدرد الرجل ريقه ، ومد يدا إلى الكوب ويدا إلىّ يدفعنى بها إلى مؤخرة رأسه ، وانطلقت منه تنهيده طويلة .

وما لى أنا ، إنه وحده السبب ، ليتحمل نتائج مغامرته ، إنه ليس حمل زكية ولا أم زكية .

وعندما تناول الكوب ، استدارت متجهة إلى الباب ، وحسب الخطة الموضوعة لم تكد تسير بضع خطوات حتى انحنت لتلتقط شيئا من الأرض .. لست أدرى ما هو .. على أية حال ، الشيء لم يكن بذى أهمية ، المهم هو الانحناءة نفسها .. فكما انحسر صدر الثوب فكشف الثديين ؛ انحسر ذيله ، فكشف عن الساقين ، وما أدراكم ما الساقين .

أما عن اللون فأبيض مخدوم ، أعنى أبيض بياضا ممسوحا كالرخام .. ليس به أثر لمسام ولا شعيرات ، أما عن التركيب أو الكسم ، فامتلاء مسحوب إلى أسفل مع غمازتين فى باطن الركبة ، واستدارة دقيقة فى الكعب ، وقد بدا جزء

من باطن الفخذين بادي الاكتناز ، ناصع البياض .. تتخلله شعيرات من عروق دقيقة متشعبة من غمازتي ثنيتي الركبتين .

يا هوه !!

كان ذلك هو لسان حال صاحبنا ، وقد وضع شفتيه على كوب الشربات ، وعينيه على كيزان العسل .

واختفت زكية .. وحسن أفندى ما زال محملقا والكوب فى يده لم يذق منه قطرة .. وابتسمت « أم زكية »فى خبث ورفعت أحد حاجبيها .. وقد ملأتها الثقة فى نجاح خطتها الهجومية الرائعة بالثديين والساقين .. وقالت فى لهجة ملحنة :

ــ ما تشرب يا حسن أفندى يا خوية .. الشربات ده مش عاجبك والا إيه ؟

ــ عاجبنى ، عاجبنى أوى .. يا ست أم زكية .

ومرة أخرى ران الصمت وعادت أم زكية تنتظر .. كما ينتظر القط .. فأرا على وشك الوقوع .

وطال الصمت بصاحبنا وهو غريق فى وجله واضطرابه وأخيرا قالت أم زكية :

ــ خير يا سى حسن أفندى خير .

ــ خير يا ست أم زكية .. أنا أصلى جاى .. علشان .. أصلى كنت بقول لو كان ممكن ...

ــ إيه هوا بس اللى لو كان ممكن ؟

ــ أتجوز بنتك زكية .

يا نهارك أسود .. يا حسن أفندى !.. كده مرة واحدة .. جواز خبط لزق !.

ويبدو أن المرأة لم تكن تتوقع قط أن يبلغ انتصارها هذا الحد ، فقد بدت عليها دهشة سرعان ما أخفتها ثم قالت فى لهجتها المنغمة :

ـــ يا سلام يا حسن أفندى .. غالى والطلب رخيص .. زكية ، وأم زكية ، وأهل زكية كلهم فداك .

ولم أدر ما قال حسن أفندى بعد ذاك .. فقد كان فى حالة ذهول وارتباك ، ولم أكن أقل منه ذهولا ولا عجبا .

وهكذا اتضح فى النهاية أن صاحبنا الغبى قد أتى ليطلب القرب من أم زكية .

ودهشت وأصابنى حنق على الرجل ، فقد كنت أعلم أن القرب من أم زكية ، وزكية ، شيء غير مأمون العاقبة ، وأن البعد عنهم كما يقول المثل غنيمة .

لا أطيل عليكم .. لقد رحبت المرأة بحسن أفندى أيما ترحيب ، ولم تمض بضعة أيام حتى حدث القرب فعلا .. وانتقلت أنا وصاحبى وبقية الكراكيب إلى بيت أم زكية .

مرت الأيام ، وبدا لى أن حسن أفندى لم يعد كما عهدته من « العياقة » والانشراح ، فقد أضحى موضعى الدائم فى رأسه هو المؤخرة .. وهو الموضع الذى كنت أستقر فيه عندما يصبح فى حالة ضيق وتبرم .

وفى ذات يوم عدنا إلى البيت .. وقذف بى صاحبى فى ضيق ، فاستقر بى الحال على أحد المقاعد ، ودخل هو إلى حجرة النوم .. فاصطجع فى الفراش وعلا شخيره .

ونظرت حولى فأدهشنى أن أجد هناك طربوشا آخر قد استقر على مقعد آخر ، وتملكنى الأسف ، فقد أدركت أن حسن أفندى قد مل صحبتى وابتاع لنفسه طربوشا جديدا ، وأنه ينوى أن يطردنى من خدمته .

ولكن أسفى قد تحول إلى حيرة شديدة عندما أبصرت برجل يخرج من داخل دولاب الملابس .. ويتسلل على أطراف أصابعه .. ويتقدم إلى فيضعنى على رأسه ، ويترك طربوشه لحسن أفندى .

واستقر بى المقام على الرأس الجديد .. ومنذ ذلك اليوم وأن لا أرى حسن أفندى أو أسمع عنه .. حتى كان ذات يوم أرسلنى صاحبى الجديد إلى المكوجى ،

وجلست مع غيرى من الطرابيش نقطع الوقت بالدردشة .. وقلت لجارى فى معرض القول :

ـــ هذه أول مرة أحضر إلى هنا . إنى لم أبصر المكوجى قط عندما كنت على رأس حسن أفندى !

ونظر إلى الطربوش فى دهشة وقال متسائلا :

ـــ ماذا تقول ؟ أنت كنت على رأس حسن أفندى ؟

ـــ وأى شيء فى ذلك يبعث على الدهشة ؟

ـــ لأنى أنا أيضا مررت برأس حسن أفندى !

وهنا تدخل طربوش ثالث ، فأنبأنا بأنه قد جرب رأس حسن أفندى بضعة أيام ، ثم تدخل طربوش رابع وخامس وسادس ، حتى اتضح أنه ليس هناك طربوش فى المحل إلا ومر على رأس حسن أفندى .

وقلت لنفسى متسائلا :

« ماذا جرى لصاحبى المسكين « البصباص »لقد طالت صحبتى له دهرا طويلا ؟! ماذا يجعل الطرابيش لا تستقر على رأسه .. وتتبدل عليه الواحد تلو الآخر » .

ركبـيّـة الحنش

هذا حديث شبشب .. عليم بما فى الخدور ، وما فى الصدور .. قد يتشابه حديثه مع ما تخبئه بطون غيره من الشباشب .. وقد يظن أحدهما أننا نعنيه بحديثنا .. ويتهم من أصحابه بأنه هتك سترها وأذاع ما خفى من أمرها .. ولكننا نؤكد أن شبشبنا هذا من نسج الخيال .. وأنه ليست له أية صلة ــ من قريب أو بعيد ــ بشباشبهم الموقرة ، وعلى ذلك فلسنا مسئولين عما قد يحدث من تشابه أو التباس .

وأخيرا خرجت من الظلمات إلى النور ، وتربعت على عرش أطل منه على هذا الحشد العجيب من المخلوقات الآدمية تمر بى رائحة غادية .

لقد تم خلقى منذ بضعة أيام .. وأصبحت مخلوقا أنيقا فاخرا .. بهذه البشرة الناعمة اللامعة من الستانيه الأزرق ، وتلك « الفيونكة »التى تحتل مكانها فى صدرى ، وهذا البوز الرفيع الدقيق ، والباطن اللين الطرى ، والكعب العالى المرتفع الذى يرفع هامتى ويزيد قدرى ويملؤنى غرورا وكبرياء على غيرى من شباشب العباد التى لا كعب لها ولا بوز ولا فيونكة .

وجلست فى ركن من « الفاترينة »الزجاجية الأنيقة .. وسط خليط من الأحذية والشباشب ، التى اختارها صاحب المتجر لتعرض فى الفاترينة .. وأخذت أرقب المارة والمتسكعين فى شارع فؤاد الذين لا عمل لهم إلا التطلع إلى واجهات الحوانيت والتأمل فى معروضاتها .

وظلت الوجوه تتواتر علىّ .. ما بين محملقة وعابرة .. ومتمنية وزاهدة ..

ويائسة وحالمة .. حتى أطل علىّ وجهها أخيرا .. وقد بدت فيه نظرة إعجاب .. ولمحتها تدفع صاحبها بمرفقها فى جانبه لتلفت نظره الذى شغل بتتبع ساقين تعبران الطريق .

والتفت إليها متسائلا عما تريد فأشارت إلىّ قائلة :

ـــ شبشب لطيف .

وأحسست بالفخر والغرور .. فالشباشب كالغوانى .. يغرها الثناء .

وقلت لنفسى مجيبا تحيتها : « ده من أصلك » .

وهز الرجل رأسه موافقا على أنى « لطيف » .. وهم بمعاودة السير .. ولكنها نظرت إليه نظرة تأنيب .. فهى لم تقصد بتقريظى أن يجاوبها بتقريظ مثله .. بل رمت إلى أكثر من ذلك .

وتوكل صاحبها على الله ، ودخل وإياها الدكان .. وبعد لحظة امتدت إلىّ يد من الداخل ، ثم أدخلت فى قدمها لحظة على سبيل التجربة وسمعت التاجر يقول « مبروك » .. وبعد هنيهة ضمتنى ظلمة معتمة داخل صندوق من الورق تمددت فيه .

ولم أبصر شيئا مما حدث بعد ذلك .. حتى أحسست بنفسى أخرج من الصندوق .. وأترك ظلمته الدامسة .

وتلفت حولى فإذا بى فى غرفة نوم أنيقة فاخرة الرياش توسطها فراش مكسو بالستان الأزرق وأبصرت النوافذ مغطاة بستائر زرقاء ، وبدا لى كل ما فى الغرفة قد غلبت عليه الزرقة فأدركت سر اختيار صاحبتى لى وأن لونى هو الذى أغراه بى .. إنها لا شك امرأة فنانة .

وكانت تجلس وحيدة فى الغرفة على مقعد صغير منخفض أمام التسريحة ، وقد نضت عنها ثيابها إلا من قميص داخلى أزرق شفاف .. وأمسكت بى تتأملنى برهة ثم دستنى فى قدمها وشغلت عنى بعد ذلك بتأمل وجهها فى المرآة .

وضايقتنى رائحة القدم لأول مرة إذ لم تكن تتناسب كثيرا مع تلك العطور

التى تفوح من الزجاجات التى رصت على التسريحة .. ولا حتى مع رائحة النفتالين التى كانت تفوح من الصندوق الذى كنت أرقد فيه .

وألقيت على القدم التى دست فىّ تحية مقتضبة .. إذ لم أحس لصحبتها كثير فرحة .. لقد كنت أتوقع أن أجدها خيرا مما هى .. لقد تصورتها طرية ناعمة منتظمة كقالب الزبدة .. ولكنى فوجئت بأصابعها المعقلة وبالكلو ينخس جانبى كالسكين .. وبباطنها الجاف وعروقها النافرة .

قلت لها متأذيا :

— سعيدة .

— سعيدة مبارك .

— إنى أشم رائحة كريهة .

— ستتعودها بمضى المدة .

— ولكن هذه العطور المرصوصة ما فائدتها ؟.

— لا فائدة منها .. إنها لا تجدى معى نفعا .. الحمد لله .

— على ماذا ؟.

— على ما صرنا إليه .

— لست أرى بك ما يستحق الحمد . اللهم إلا الحمد على المكروه .

— وهذا الطلاء الأحمر الذى يزين أظافرى .. ما رأيك فيه ؟

— لا بأس .. ولكن الأظافر نفسها .

— ما لها ؟

— مش ولا بد .

— ماذا كنت تقول إذاً لو رأيتها فيما مضى .. وقد كستها الحنة ولوثها الطين والأتربة ؟

— حنة وطين وأتربة فى أظافرك أنت ! ومن أين لك هذا ؟.

— وأكثر من هذا .. الحمد لله على المانيكير والبديكير ، الحمد لله على

وجودك .

ـــ وجودى أنا ؟!

ـــ أجل .. بعد طول الحفاء .. وبعد طول العدو على الأسفلت المحرق فى هجير بؤونة .. والوقوف على البلاط الرطب وسط مياه الغسيل فى الرطوبة .. رحم الله القبقاب .. لقد كان أفخر ما ارتديت وقتذاك .. كنت أطرقع به على سبيل التفاخر وانتزاع الإعجاب من خدم الحى وبوابيه .. أبعد كل هذا لا تريدنى أن أحمد الله على وجودك أنت وأمثالك من علية الشباشب الأنيقة والأحذية الفاخرة والجوارب النايلون ؟!.

ـــ هذا أمر عجيب .. أنت قد عدوت على الأسفلت عارية حافية ؟. ونقعت فى مياه الغسيل .. قولى شيئا غير هذا .. إنك لا شك تسخرين منى .

وهنا سمعت صوتا أجش ينادى من الخارج :

ـــ زيزى هانم .

وكانت زيزى هانم ما زالت جالسة أمام التسريحة تفحص وجهها فى المرآة وتصلح الرتوش فأجابت بصوت ناعم ممدود :

ـــ حاضر يا شيرى .

وعدت أوجه القول للقدم التى أخذت تحرك أصابعها فى باطنى :

ـــ أجل .. أنا لا أستطيع أن أصدق شيئا من قولك هذا .. هل يعقل أن زيزى هانم التى لا يحتمل مزاجها إلا اللون الأزرق تجرى حافية على الأسفلت .. وتنتزع إعجاب الناس بطرقعة القبقاب ؟.. هذا منتهى التشنيع .

ـــ أى تشنيع ؟.. أنت شبشب غشيم مستجد .. أنا لم أقل غير الحقيقة .

ـــ ولكن كيف يحدث هذا ؟ كيف ينقلب الحفاء .. إلى نايلون ؟

ـــ ليس هذا وقته .. سأخبرك بعدين .

وكانت زيزى هانم قد أتمت إصلاح الرتوش ونهضت فارتدت روبا من الحرير الأزرق وغادرت الحجرة .. وسارت تطرق الأرض طرقات منتظمة

ذكرتني بطرقعة القبقاب التي قالت القدم إنها كانت تنتزع به إعجاب خدم الحي .

وتوقفت أمام باب أطلت منه قائلة :

ـــ اتفضل يا شيرى .

ونظرت إلى « شيرى »فوجدته قد حجب عنى كل شيء عداه .. أو بوجه أدق .. عدا كرشه المنتفخة التي تدلى فوقها الصديرى ذو الكتينة الذهب .

وجلس الاثنان على المائدة .. وحجب عنى المفرش الذى تدلى من فوق المنضدة كل شيء عدا ساقيها وساقيه .. ووجدت الفرصة سانحة لأن أعاود حديثي مع القدم علّى أستبين منها بعض ما خفى علىّ .

قلت لها :

ـــ خبريني كيف كانت زيزى هانم تعدو حافية على الأسفلت ؟

ـــ لم تكن وقتذاك قد أضحت زيزى هانم .. فقد كانت زكية الحنش .

ـــ زكية إيه ؟.

ـــ الحنش .. بنت المعلم مىء مىء بياع الكسبة !!.

ـــ ما هذا الذى تقولينه ؟. حنش .. ومىء مىء .. وكسبة !!.

ـــ طبعا .. أنت شبشب ذوات .. لا تعرف الكسبة ولم تسمع عن مىء مىء الحنش .. الله يجحمه .. لقد ذقت منه الأمرين .. طالما اكتويت بخيزرانته .. عندما كانت زكية تهرب من البيت الذى تخدم فيه .. أو كانت تتصرف فى بضعة قروش من أجرها .. ألا تحس بذلك البروز فى عرقوبى ؟.. إنه أثر التواء حدث لى عندما قفزت زكية من النافذة بعد أن كاد أبوها يقتلها من الضرب ذات مرة .. أفهمت لمَ أحمد الله .

ـــ مفهوم .. ولكن ..

ـــ ولكن ماذا ؟!

ـــ كيف حدث هذا الانقلاب ؟ كيف أضحت زكية الحنش زيزى هانم ؟.

وهنا أحسست بقدم الرجل « شيرى » تقترب منى متسللة ثم وجدتها تضغط عليّ .. وأحسست أن القدم فى باطنى تتلوى من الألم .. وهمست بها فى خوف :

ــ ماذا يريد هذا الحيوان ؟.

ــ غزل .. هو دائما يبدأ غزله هكذا !.

وانسحبت القدم من تحت قدمه ولكنه عاد يقترب بساقه .. أو ساق الفيل كلها .

ووصل إلى صوته من فوق المنضدة يقول وفمه محشو بالطعام :

ــ عبد الحميد بك قال لى إن الفيلم مدهش .

ــ متى رآه ؟.

ــ رآه فى العرض الخاص الذى عرضناه له أمس .. لقد انتظرناك طويلا ولكنك لم تحضرى .. لقد قال إنك بلغت القمة .

ــ حقيقى !

وسمعت طرقعة قبلة .. أغلب الظن أنها منها هى لأن فمه كان فى حالة من الامتلاء لا تسمح له بالتقبيل .

وعدت أسأل القدم :

ــ لم تخبرينى بعد .. كيف حدث الانقلاب العجيب ؟. ماذا حدث لزكية الحنش بنت المعلم مأ مأ ؟

ــ مئ مئ .

ــ مئ مئ .. مأ مأ .. كله يتساوى .. نحن لم نغلط فى البخارى .. قولى ماذا حدث ؟

ــ هذا حديث طويل .

ــ دعينا نقطع به الوقت .. دعينا نتسلى .

وأحسست بها تنسحب منى قليلا وأبصرت بأصابعها تتلوى فسألتها :

— ما بالك تتباعدين ، وما بال أصابعك تتلوى هكذا ؟

— لقد أطبقت على .. ما لك تضغط على أصابعي هكذا .. حتى جعلتني أضيق بك .

— معك حق .. بعد طول الحرية والانطلاق على الأسفلت .. لا بد أن تضيقى بى .

— أقصر لسانك .. ولا تكن قليل الأدب .

— أقلت شيئا من عندى ؟.. ألم تعترف أنت بذلك منذ لحظة ؟

— أجل . ولكن هذا شيء مضى .. يجب أن تتناساه تماما .. وتنكره تمام الإنكار .. يجب ألا تذكر إلا أنى لم أتعود السير إلا على السجاجيد العجمى فى بيت بابا .

— ميء ميء الحنش ؟

— لا .. لا .. بابا .. محمد باشا الحنكاش .. صاحب عقارات وأطيان .. وسليل أكبر عائلات الدقهلية .. وابن ..

— مفهوم .. مفهوم .. ابن زكى باشا الحنكاش .. الذى ينتمى إلى الدوحة الكريمة المفضلة .

— تستطيع أن تقول هذا .. ويجب أن تذكر أيضا أن هذا النتوء فى العرقوب نتيجة للوقوع من على الحصان .. فى إحدى النزهات الخلوية فى العزبة .

— والكاللو ..؟

— من ضيق الأحذية البالى .

— والعروق .. والقشف .. والزرقان ؟

— لا تذكر شيئا من هذا .

— والرائحة ؟

— تناساها .

— لا .. لا .. كله إلا هذا .. أرجوك أن تبقى بعيدة عنى .. أجل ..

هكذا .. دعينى أشم نفسى .. إن البعد عنك غنيمة .

ــ غنيمة يا عرة الشباشب .. خذ .

ثم عادت تندس فىّ بعنف وقلت مهدئا :

ــ لا تريدين مزاحا ؟

ــ أكنت تمزح ؟.

ــ بالطبع .. ما دام قد حكم علىّ بعشرتك المؤبدة .. أأستطيع أن أضيع العمر معك فى خصام ؟. قولى ماذا حدث لصاحبتك زكية الحنش ؟

ــ قلت لك انس هذا الاسم .

ــ زكية الحنكاش ؟

ــ زيزى هانم كفاية .

ــ ماذا حدث لزيزى هانم ؟

ــ هربت من بيت أبيها .

ــ بيت أبيها ؟!.

ــ أبيها ؟! أيها الغبى .. من قال لك إن لأبيها بيتا .

ــ لم يكن له بيت !!.. الحنكاش باشا لم يكن له بيت ؟! أين إذاً كان يضع السجاجيد العجمى .. أكان يفرشها على الرصيف ؟

ــ أيها الأبله .. لم يكن أصبح بعد الحنكاش باشا .. كان لم يزل مئ مئ الحنش .

ــ ليكن مئ مئ الحنش .. أين كان يبيت ؟.

ــ فى الإسطبل .

ــ إسطبل ؟!!.

ــ أجل فى الإسطبل .. غريبة هذه ؟

ــ أبدا .. أبدا .

ــ إذاً علام الدهشة ؟

ـــ لا شيء .. لقد كنت أظن أنه من بنى آدم .. لم يخطر لى على بال أنها ابنة حمار .

ـــ حمار ؟.. من قال لك إن أباها حمار ؟

ـــ ألم تقولى أنت الآن .

ـــ أنا قلت هذا ؟.

ـــ ألم تقولى إنه ينام فى الاسطبل .

ـــ وهل كل من ينام فى الإسطبل حمار .. يا بن الحمار ؟

ـــ أنا ابن حمار ؟.

ـــ لا .. ابن عجل .. ابن معزة .. أستكون شيئا أكثر من هذا .

ـــ عيب اختشى إن أبى ميت .. ولا أحب أن يذكر أحد سيرته بالسوء .

ـــ ميت ؟!!.. أتريد أن يكون أبوك حيا .. لقد تعودت أن أعامل الشباشب هكذا .. أتعجبك المعاملة .. إذا كان شبشب سيخبرنى أن أباه ميت فكيف أسبه وكيف ألعن أباه ؟

ـــ على أية حال دعينا من هذا .. قولى لى كيف كان ينام المعلم مىء مىء فى الإسطبل وهو ليس حمارا ولا بغلا ولا حصانا .. ماذا كان يدفعه إلى هذا ؟

ـــ عمله .

ـــ أكان خادم إسطبل ؟

ـــ قطع لسانك .. خادم إسطبل ؟! المعلم مىء مىء الحنش على سن ورمح .. خادم إسطبل ؟

ـــ ماذا كان عمله إذاً .. قولى وأريحينى ؟

ـــ مدير شركة .

ـــ شركة ؟

ـــ أجل .. شركة نقل ؟ كان لديه حماران وعربتان كارو .

ـــ مدير شركة كارو ؟!. يعنى عربجى كارو ! والله يرحمه كان يملك وسائل

نقل أخرى .. يعنى ترمايات .. سكك حديد ؟

ـــ الله يرحمه ؟.. فال الله ولا فالك .. إنه ما زال على قيد الحياة .

ـــ كان ؟! وما زال يقوم بإدارة شركاته ؟

ـــ شخصيا بنفسه .. يسير وراء الحمار من مصر القديمة إلى مصر الجديدة .

ـــ وماذا يقول عنه الناس ؟

ـــ ومن أدراهم أنه أبوها !

ـــ ألا يزورها ؟

ـــ أبدا .

ـــ ألا تزوره ؟

ـــ أبدا .. أبدا إنها تسكته عنها ببضعة جنيهات من آن لآخر كلما هددها بإعلان أبوته .

ـــ شيء جميل .. إعلان الأبوة قد أضحى جريمة فى حق الأبناء !

ـــ فى مثل هذه الحالة .. نعم .

ـــ كنت أقول إنها هربت من البيت .

ـــ بيت من إذن ؟

ـــ بيت أسيادها التى كانت تعمل عندهم .. لقد هربت منه فى إحدى الليالى ، وصممت ألا تعود إليه ..

ـــ وماذا فعلت إذن ؟

ـــ هامت على وجهها ، واشتغلت ببضعة أعمال مختلفة كجمع الأعقاب ، والشحاذة .. ثم انتهى بها الأمر أخيرا إلى الاشتغال بالأعمال الحرة .

ـــ أجل .. اشتغلت حرة ؟

ـــ حرة .. ماذا تعنين ؟

ـــ أعنى حرة فى جسدها ، تفعل به ما تشاء .. وكان جسدها قد أضحى فى ذلك الوقت صالحا للبيع ، والإيجار ، وعرضته فى السوق .. فدرَّ عليها شيئا من

الربح .

ـــ وماذا حدث بعد ذلك ؟

ـــ استمرت فى عرضه حتى حلت الحرب .. فارتفع سعره ضمن بقية البضائع التى ارتفع سعرها .. واستطـاعت بذلك أن تضع قدميها على أول درجات الكادر .

ـــ كادر ؟!

ـــ أجل .. كادر الأرتستات .

ـــ ألهن كادر ؟

ـــ بالطبع .. كادر ذو درجات وعلاوات .

ـــ لست أفهم !. لم أسمع عن هذا الكادر من قبل !

ـــ يبدأ الكادر بخادمة ، وهى تقابل عامل خارج الهيئة .

ـــ وبعد ؟

ـــ متشردة .. تقابل درجة ثامنة مخفضة .

ـــ وبغد ؟

ـــ تتدرج .. إلى فتاة شارع .. ومن فتاة شارع إلى أرتست حرب .

ـــ ومن أرتست حرب ؟

ـــ إلى أرتست صالة وهى تقابل تقريبا الدرجة الرابعة .

ـــ وبعد ؟

ـــ يحتاج الأمر لشيء من الكفاءة .

ـــ كفاءة ؟

ـــ أجل .. فبدلا من أن يكون عملها مجرد الجلوس مع الزبائن والفتح وتأدية الواجب .. يصبح عملها راقصة أو منولوجست .. وهو أمر يحتاج إلى موهبة فى تلعيب الوسط والأرداف .. أو فى الصراخ بصوت مقبول .

ـــ ما شاء الله .. وعندما تصبح راقصة ؟

— يحتاج الأمر بعد ذلك إلى واسطة .. أجل لا بد من الواسطة لكى تنتقل إلى الدرجة التى تليها .. فالموهبة وحدها لا تكفى .

— وما هى هذه الدرجة التى تليها ؟

— تقابل مدير عام .. وقد يصادفها الحظ وتضحى فى درجة أرفع من ذلك .

— لست أفهم .

— ترتقى إلى درجة نجمة سينمائية .. حرف جـ ثم ب ثم أ .

— أهذا يحتاج إلى واسطة ؟

— أجل .. وهذا هو ما حدث لصاحبتنا .. لقد صادفت الواسطة .

— ومن كان واسطتها ؟

— هذا الحلوف الكبير الجالس أمامك .. لقد كان الواسطة التى رفعتها من راقصة إلى نجمة .

— كيف ! أهو من كبار المخرجين ؟

— لا .

— من كبار الممثلين ؟

— لا .

— من كبار أصحاب الشركات السينمائية ؟

— لا .. لا .. لا شيء من هذا مطلقا .

— ماذا يكون إذن ؟

— تاجر خردة .

— تاجر خردة ؟! ألم أقل لك إنك أكبر « مشنعاتية » ؟ كيف يستطيع تاجر خردة أن يرفعها من راقصة إلى نجمة ؟

— رآها ترقص ذات مرة فى كباريه .

— ثم ؟

— أعجبته .. دخلت مزاجه .. فتح لها زجاجة بيرة ..

— وبعدين ؟

— زجاجة شمبانيا .

— وبعد ذلك ؟

— فتح لها هذا البيت ، ثم فتح لها شركة سينمائية وعمل لها فيلما لتكون بطلته . مسألة طبيعية جدا لا تعدو سلسلة من الفتوحات .. أما زلت ترى فى الأمر غرابة ؟

— كلا .

وأخيرا نهضت زيزى هانم و« شيرى بك » خردة إذ لا أعرف له اسما غير هذا .. فالهانم لا تدعوه إلا بـ « شيرى »، والقدم لم تذكر لى عنه إلا أنه تاجر خردة .

وبعد فترة راحة فى حجرة الصالون دخلا معا إلى غرفة النوم .

ولم أبصر شيئا بعد ذلك ، فقد دفعت بى القدم إلى أسفل السرير .

* * *

مرت الأيام والحياة تسير على وتيرة واحدة حتى بدأ الفيلم بعرض .

وفى ذات ليلة حضر خرده بك وقد بدت على وجهه أبلغ علامات اليأس .. وعلمت مما دار بينه وبين زيزى هانم أن الفيلم سقط سقوطا شنيعا وأنه قد خسر الجلد والسقط .

وفى الليلة التالية حضر إلى الدار شيرى جديد ولنسمه دوبارة بك ، فقد فهمت من حديثه أنه يملك أكبر مصانع الدوبارة والخيش ، وفهمت كذلك أنه ينوى أن يفتح لها هو الآخر شركة سينمائية ويخرج لها فيلما .

دخل الشيرى الجديد حجرة النوم .. كما دخل صاحب له من قبل ، واتخذت أنا مجلسى المعتاد تحت السرير .

وفجأة سمعت طرقات شديدة على الباب ونهضت زيزى فى فزع لترى من الطارق .

كان الطارق هو الشيرى القديم .. خردة بك .

سألها من الذى عندها .. فأجابته : « مش شغلك » . وصرخ فيها فصرخت فيه .. لعن أباها فلعنت سنسفيل أجداد أبيه .. صفعها صفعته ، ثم دارت المعركة . حامية الوطيس .. مستعرة الأوار .

ولم تخفنى المعركة فى أول الأمر .. بل لقد وجدت فيها شيئا يبعث على التسلية .. ما دمت أقف فيها موقف المتفرج .. المحايد .. أو غير المحارب .

ولكنى فجأة وبدون سابق إنذار وجدتنى أنتقل من القدم إلى اليد .. وإذا بى أستعمل استعمالا لم يخطر لى قط على بال .. فقد أصبحت سلاحا فتاكا للقتال .. ووجدت نفسى أخوض غمار المعركة فأهوى على أصداغ صاحبنا بالكعب .

ولم أكن أظن فى نفسى تلك القدرة على القتال .. فقد كنت السبب فى تحول دفة المعركة ، وتقهقر الخصم وانطلاقه لائذا بالفرار .

وعادت زيزى هانم بعد أن أغلقت الباب بشدة ودخلت غرفة النوم .. وأبصرت دوباره بك قد تكوم واختبأ فى ركن الغرفة ، ولكنه لم يكد يراها حتى ظهر مبرزا شجاعته ونظرت إليه وإلى أصداغه وإلى قفاه .. وأحسست برغبة جارفة فى القتال .. فقد فتح منظرهما شهيتى .. ولكن زيزى هانم دفعت بى تحت السرير .. وهمست للقدم قبل أن أفارقها : قولى لدوبارة بك إن اللقاء بيننا آت لا ريب فيه .

عبد البر أفندى

لم يكن سخط عبد البر أفندى ناتجا عن تعلقه بوظيفته الحكومية ، فقد كان هو الآخر متبرما بها كارها لها . بل لأنه لا يرى فى وظيفة الشركة خيرا من وظيفته الحكومية .. وأكثر من هذا .. كان سخطه لأنه يرى نفسه مخلوقا لا إرادة له ، وأنه يحرك هنا وهناك كأنه إحدى قطع الشطرنج .

لو تجسدت الخيبة فصارت رجلا لما كان سوى « محمود أفندى عبد البر » .. فقد كان مخلوقا غير مستقل ، مسلوب الإرادة فاقد الحرية ، مقيدا إلى إنسان آخر .. يحركه كما يريد ، وهو صاغر راض .. لا يريد التخلص لأنه لا يعرف كيف يعيش إذا تُرك لنفسه .

وكان هذا المخلوق الذى شد إليه محمود أفندى هى أخته « بهية » .. وهى مفتشة فى وزارة المعارف ، وقد تولت أمره منذ الصغر بعد أن ماتت أمهما ، ولم يكن الفارق فى السن كبيرا إلى الحد الذى يجعلها تسيطر عليه وتهيمن على كل أموره ، ولكن الخيبة التى رزىء بها جعلته يبدو كطفل فى حاجة إلى من يدبر أمره .. حتى بعد أن أضحى رجلا صاحب عمل وصاحب وظيفة .. لا يكاد يتصرف فى أتفه أموره ، ولولا بقية من حياء لانتهى الأمر ببهية هانم لأن تذهب به كل صباح إلى عمله وتعود به فى الظهيرة إلى بيته ، وماذا يمنعها من ذلك ؟! وهى التى تطعمه ، وهى التى تكسوه ، وهى التى تذهب به إلى هذه الزيارة أو تلك .. أو هذا الموعد أو ذاك .

ولقد أصابته نوبة التذكر والسخط على حالته هذه وهو يغادر الدار

بمصر الجديدة قاصدا إلى المترو ليحمله إلى شارع فؤاد،فقد طلبت منه أخته أن يسبقها إلى جروبى حيث دعت « على بك رحمى »مدير إحدى شركات الغزل الكبرى (الذى تعرفت عليه أخيرا فى إحدى الحفلات المدرسية) أملا منها فى أن يجد له وظيفة فى الشركة خيرا من وظيفته الحكومية التافهة .

ولم يكن سخط عبد البر أفندى ناتجا عن تعلقه بوظيفته الحكومية فقد كان هو الآخر متبرما بها كارها لها .. بل لأنه لا يرى فى وظيفة الشركة خيرا من وظيفته الحكومية . وأكثر من هذا .. كان سخطه لأنه يرى نفسه مخلوقا لا إرادة له ، وأنه يحرك هنا وهناك كأنه إحدى قطع الشطرنج ، وهو أجبن من أن يثور على حالته أو يعلن رغباته .. لقد كانت قصارى أمانيه حقا أن يترك وظيفته الحكومية ليفتح حانوتا لبيع طوابع البريد القديمة ، وهو يعرف حانوتا فى شارع فؤاد كان صاحبه يرغب فى بيعه .. أى مستقبل ينتظره لو انتهز الفرصة وأقبل على شراء الحانوت ؟ ولكن هل يجسر على أن يقول ذلك لأخته ، وهى التى تعتبره مخبولا لمجرد غوايته جمع الطوابع ؟

وركب صاحبنا المترو وقد شرد ذهنه ، وبعد لحظة خيل إليه أن هناك من يحملق فيه بنظراته ، والتفت فجأة فوجد عينين ترمقانه فى استطلاع ودهشة كأنه حيوان غريب ، ولم يكن صاحب العينين المحملقتين سوى طفل قد تمدد فى حجر أمه .

وأحس محمود أفندى بشىء من الحياء .. فقد أخجله أن يكون منظره غريبا أو مضحكا بحيث يسترعى نظر الطفل دون سائر خلق الله الراكبين فى المترو ، وضحك الطفل فزاد خجل محمود أفندى ، ولكنه حاول إخفاءه بأن ضحك هو الآخر فى وجه الطفل .. ليوهم من حوله بأنه هو البادئ بإضحاك الطفل ، وأخذ يشير إليه بأصبعه .

ولم تمض لحظة حتى توثقت عرى الصداقة بين الطرفين : محمود أفندى طرف أول ، والطفل طرف ثان ، وقد شجع محمود أفندى على هذه الصداقة ما لمحه

بطرف عينيه من ملاحة الطرف الثالث .. وهى أم الطفل ، وأخيرا وقف المترو فى محطته الأخيرة بشارع عماد الدين ، وأخذت الحسناء تحكم لف طفلها وحملته على ذراعها ثم مدت اليد الأخرى لتحمل الحقيبة القماش التى وضعت بها ملابس الطفل ، وبدا لمحمود أفندى أنه يجب أن يتقدم لمساعدتها فيحمل الحقيبة عنها .. فأجابته بابتسامة عذبة وتمتمت ببضع كلمات شكر ..

ووقف الرجل وسط الازدحام وقد حمل الحقيبة المنتفخة وأمامه المرأة وقد أخذت تتلفت حولها فى حيرة . وتنحنح عبد البر أفندى وتساءل فى تردد :

ـــ أأستطيع أن أوصلك إلى أى مكان ؟

ـــ أشكرك .. إنى أبحث عن زوجى فقد أنبأنى أنه سينتظرنى عند محطة المترو لكى يرافقنى إلى الطبيب .

ولم يدر عبد البر بم يجيب .. إن الموقف يستدعى أن يقول شيئا على سبيل « جبر الخاطر » .. فالسيدة ذاهبة إلى الدكتور فلا بد أن تكون مريضة .

ماذا يقول الناس للمريض ؟.. لا بأس عليك ؟!! الله يشفيك ؟ ربنا ياخد بيدك ؟ تقوم بالسلامة ؟!!

لا .. لا .. هذه كلها أقوال تبدو ركيكة مضحكة .. إن خير ما يفعل هو أن يهز رأسه بأسف ، وفى هذا الصمت الآسف خير معبر لتمنياته الطيبة للسيدة .

وكانت السيدة ما زالت مستمرة فى التلفت فى حيرة ، وأخيرا سألته فى لهجة نافدة الصبر :

ـــ كم الساعة معك من فضلك ؟

وكانت الساعة فى جيب البنطلون الصغير .. ساعة جيب كبيرة ورثها عن أبيه ، ولما كان يحمل الحقيبة بيده اليمنى ، وإخراج الساعة من جيبه لا بد أن يحتاج إلى يده اليمنى .. فقد اضطر إلى أن ينقل حمله أولا إلى اليد اليسرى ثم يدفع أصابعه فى جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء . ويحه من غبى أحمق .. لقد نسى الساعة كعادته !

ماذا يقول للسيدة ؟: ستظنه بلا ساعة .. مع أنه يملك ساعة محترمة .. مشرفة . ولم يجد بدا من محاولة البحث فى جيوبه الأخرى حتى تدرك السيدة أن معه ساعة ولكنه لا يجدها ، وأخيرا .. وبعد أن نقل الحمل بضع مرات من يده اليمنى إلى اليسرى ومن اليسرى إلى اليمنى .. صاح فى أسف :

ــ الظاهر أنى قد نسيت الساعة .. خسارة .. إنها ساعة فاخرة متينة لا تقدم ثانية ولا تؤخر ثانية .

ــ على أية حال كان يجب أن يكون موجودا الآن ، لست أدرى ما الذى أخره ؟

ــ الغائب عذره معه .. لا بد أن يكون قادما فى الطريق .

ــ يجب أن أحدثه فى التليفون .. فربما ما زال فى المكتب .. إنه دائما ينسى نفسه .

وأخذت السيدة تدير بصرها فيما حولها .. وتنقلت عيناها بين الحوانيت على الرصيف الآخر وبين المارة المتزاحمين فى الطريق والعربات المتلاحقة ، وأخيرا استقر بصرها على الطفل ثم انتقل منه إلى عبد البر أفندى .

كان واضحا أنها فى حيرة من أمرها كيف تعبر الطريق المزدحم وتخوض وسط العربات بالطفل فى يدها ، ثم كيف تستطيع بعد ذلك أن تطلب النمرة وتتحدث فى التليفون .

وهنا تحركت النخوة والشهامة فى نفس عبد البر .

يجب ألا يقف هكذا متسمرا فى مكانه « كاللوح » .. يجب أن يعرض المساعدة ، وينقذ السيدة من حيرتها .. ولم يطل به التفكير حتى قال فى كرم وأريحية :

ــ هاتى « المحروس »وتفضلى أنت للحديث فى التليفون وسأنتظرك هنا .. إنك لا تستطيعين أن تعبرى الشارع وأن تتحدثى فى التليفون وهو معك .

ونظرت إليه السيدة نظرة فاحصة .. لقد كان من المتعذر حقا أن تتحدث فى

التليفون والطفل معها ، ولكن هل يبرر ذلك أن تترك الطفل مع رجل لا تعرفه ؟ ولكنه يبدو رجلا طيبا مأمونا .. لا تبدو عليه مخايل شر أو سيما احتيال .. على النقيض إنه أقرب إلى البلاهة والعبط ، وليس هناك من بأس على الطفل إذا ما تركته معه .

وأخيرا استقر رأيها ومدت يديها إليه بالطفل .

وفوجئ عبد البر بالطفل فى يديه .

لقد عرض على السيدة من باب الكرم أن يحمل عنها الطفل ، ولكنه كان مجرد عرض لم يخطر له ببال وهو يعرضه أنه يمكن أن يصبح موضع التنفيذ .. لقد كان عرضه أشبه بعرض عابر سبيل يمر بحمال ينوء ظهره بحمل ثقيل فيقول له من باب المجاملة « عنك » فإذا بالحمال يقذف إليه بالحمل .

لقد كان خيرا لعبد البر أن يقذف بأى حمل ثقيل من أن يتولى حمل هذا المخلوق اللين الهش .

كانت المرة الأولى التى يحمل فيها طفلا ، وحمل الطفل فى نظره ليس بالأمر السهل .. إنه يحتاج إلى صنعة وإلى مهارة ومران .. هذا العظم الطرى ، لا بد أن يحمل بطريقة فنية وإلا تهشم وتفتت .. إنه يحتاج إلى مثل طريقة الحجاج بن يوسف الثقفى « شدة فى غير عنف ولين فى غير ضعف » .

لعنة الله عليه .. أى حماقة دفعت به إلى هذا المأزق الحرج ؟! إنه يعرف أنهم يحملون الأطفال برقة فوق الذراعين أو فوق الكتف ولقد كان يمكن أن يقدم على مثل هذه المحاولة لو أن كلتا يديه خاليتين ، ولكن ما حيلته وإحداهما مشغولة بالحقيبة .. إنه لم يعد أمامه سوى وسيلة واحدة ، هى أن يحمل الطفل كما يحمل الحقيبة تحت إبطه .

وهكذا طوى الطفل تحت إبطه كما يطوى حزمة فجل ، وأدار الطفل عينيه ونظر إليه فى دهش وتساؤل كأنما يقول له :

ـــ ما هذا أيها الغبى .. إنى لم أتعود أن أُحمل هكذا .. لا تكن حمارا ، ودعنى

أعتدل .

ولم يملك عبد البر إلا أن يهز رأسه ويتمتم معتذرا للطفل :

ــ لا بأس عليك .. احتمل .. أنت ترى أنى لا أستطيع حملك خيرا من هذا .. إن يدى مشغولة بحقيبة ملابسك ، ولا أستطيع تهشيكك وتدليلك .. اصبر .. إن أمك آتية بعد برهة قصيرة .. إنها تحدث أباك فى التليفون .. فكن رجلا واحتمل .

ولكن الطفل الأحمق أخذ يتململ فى موضعه ويضرب بقدميه ..

وعاد عبد البر يخاطبه بقوله ناصحا :

ــ عيب .. عيب .. اثبت ، وإلا أفلت من يدى ووقعت على الأرض .. كن عاقلا .. ماذا ترانى كنت فاعلا ــ لو أن أحدا حملنى كما أحملك ــ لا شىء .. أتوكل على الله ، وأستقر فى مكانى .

وتصور نفسه محمولا بتلك الطريقة تحت إبط عملاق ، فأزعجته الفكرة وسرعان ما طردها من رأسه .

وعاد الطفل يضرب بساقيه ، وخشى عبد البر أن يفلت منه ، وتصوره قد سقط على الأرض وشجت رأسه وقتل لساعته .. ثم تصور المرأة قد عادت لتجد طفلها قتيلا ، وتصورها قد أنشبت أظافرها فى عنقه ، وتصور الصحف وقد ظهرت وبها عنوان بالخط العريض « سفاح عماد الدين »وبعناوين فرعية كتب فيها « موظف يقتل طفلا فتقتله أمه » .

ترى ماذا يمكن أن تفعل أخته بهية ؟! هل ستبكيه أم تتبرأ منه .. باعتباره سفاحا يجلب لها العار ؟

وروعته الأفكار فاشتد تمسكه بالطفل وضغط عليه تحت إبطه بشدة حتى لا يفلت وتقع المأساة التى دارت برأسه .

وهنا فاض بالطفل .. فانفجر باكيا صارخا .

هذه هى الفضيحة الكبرى .. لم يكن ينقص الموقف إلا هذا الضجيج الذى

يحدثه هذا الحيوان الصغير .. فيجذب إليهما أنظار المارة .

إنهم يرمقونه شزرا ، والبعض يضحك عليه .. كأنه « أراجوز » ، ولم يجد بدا من مخاطبة الطفل ونصحه بالسكوت ، فقال له فى لهجة جادة منذرة محذرة :

— عيب يا جدع .. اختشى .

ولكن الطفل لم يختش ، بل ازداد صراخا وازداد ضربا بساقيه ، وازداد تبعا لذلك ضغط عبد البر عليه .

وعاد عبد البر يقول ناصحا :

— هذا لا يصح .. لقد فضحتنا بين الناس .. اختشى يا سيدنا .. لا ترفص هكذا برجليك .. هذا ليس شغل رجال ..

وفجأة سمع صوتا يناديه فى دهشة ، والتفت خلفه فإذا بها أخته قد حضرت فى المترو التالى وبدأت تحملق فيه ذاهلة متسائلة :

— ما هذا ؟.

— طفل .

— أنا أعلم أنه طفل ، ولكن ما دخلك به ؟

— إنى أحمله عن أمه حتى تتحدث فى التليفون .

— أيها الأحمق .. اذهب وأعطه لها .. لقد تأخرنا عن الموعد .. أين ذهبت ؟

وتلفت الرجل حوله ثم أجاب ببساطة :

— لست أدرى بالضبط .

— ما شكلها ؟.. وماذا ترتدى ؟

— شكلها ؟ حلو . ولست أذكر بالضبط ماذا كانت ترتدى .

ونظرت إليه المرأة فى يأس وقالت :

— رجل فى مثل سنك يقف فى شارع عماد الدين حاملا طفلا وحقيبة سيدات ، وطفل من ؟. لا يدرى .. ماذا شكل أمه وماذا ترتدى ؟ لا يدرى .. ماذا أفعل بك حتى لا ترتكب أمثال هذه الحماقات .. أأربطك بسلسلة ؟!

كم مضى عليك وأنت واقف هذه الوقفة ؟

ــ خمس أو عشر دقائق .

ــ عشر دقائق ؟.. أؤكد لك أن المرأة لن تعود .. إنها « تلقيحة » وأغلب ظنى أنها لم تجد حمارا يمكن أن تلقى إليه بالطفل غيرك وتفر هاربة .. لا شك أنها خادمة أو مربية .. وقد هربت وألقت إليك بالطفل . هيا بنا إلى القسم نسلم لهم الطفل فليس لدينا وقت لهذه « المسخرة » .

ــ القسم ؟! إن أمه لا بد ستعود بعد لحظة .. أمسكى الطفل حتى أبحث عنها فى أحد تلك الحوانيت .. إنى أذكر أنها كانت ترتدى فستانا أزرق .

وبدأ محمود أفندى يعدو من حانوت إلى حانوت يسأل كل من يصادفه عما إذا كان قد رأى امرأة مليحة ترتدى ثوبا أزرق ، وعلى حين غرة أبصر بتاكسى قد وقف على جانب الطريق وقد تدلى منه ذراع امرأة ذات ثوب أزرق فهجم على التاكسى صائحا وقد أمسك بذراع المرأة :

ــ سيدتى .. لقد نسيت طفلك معى !

وأطلت من العربة امرأة عجوز ونظرت إليه شذرا وتمتمت فى دهشة :

ــ مجنون !.

وأخيرا عاد محمود أفندى إلى أخته يخفى حنقه ولم يجد هناك بدا من أن يتبعها صاغرا إلى أقرب قسم بوليس . ووصلا إلى ميدان العتبة ودخلا قسم الموسكى ، ووقفا أمام الباشجاويش الذى أخذ يسألهما أولا عن اسمهما وسكنهما ثم أخذت المرأة تشرح القصة ، وعندما انتهت من شرحها نظر إليها الرجل ببلاهة دون أن يفهم شيئا وسألها فى غيظ :

ــ ماذا تريدين إذا ؟

ــ أريد أن أترك الطفل هنا ...

ونظر إليهما الرجل فاغرا فاه من فرط الدهشة :

ــ تتركين الطفل هنا ؟.. لكى نضعه فى الزنزانة ... أم نختمه ونجعله حرزا ؟

أم نحضر له سريرا ونطلب من البيه المأمور أن يحضر لإرضاعه ؟. إننا لا نستطيع أن نعمل أكثر من مذكرة .. هنا قسم بوليس ، وليس ملجأ أطفال !.

ــ أنا أعلم أنه قسم بوليس ، وأرجو أن تكون فى حديثك أكثر أدبا .

ولم يجب الباشجاويش بأكثر من أن يأمر جنديا بأن يطردهما خارج القسم .. فخرجا . ووقفا برهة فى حيرة ثم طلب منها محمود أفندى أن تذهب هى إلى الموعد حتى يعود هو مرة أخرى إلى محطة المترو لعل المرأة تكون قد عادت فيعطيها الطفل ويلحق بها فى جروبى .

وعاد محمود أفندى حاملا الطفل والحقيبة ، وعندما وصل إلى محطة المترو كانت صورة المرأة قد تبخرت من رأسه تماما فكان من العبث أن يحاول البحث عنها .. ولم يجد خيرا من أن يضع الحقيبة على الأرض ويجلس عليها ويضع الطفل فى حجره وينتظر .

وانتظر محمود أفندى ، وطال انتظاره .. حتى أحس بماء دافئ ساخن يسيل على ساقيه فأدرك أن الطفل قد (عملها ...) وأصابه ارتباك شديد . وأدرك أنه لا بد من تغيير ملابس الطفل وإلا أصابه برد ، وسحب الحقيبة من أسفله وافترش الرصيف وبدأ يبحث فيها عن غيار للطفل . فأخرج كل محتوياتها حتى عثر على ما يريد .. ثم بدأ يبدل ملابس الطفل ، وسط عاصفة من البكاء والصراخ ، وهو يزجره آونة ويدلله أخرى ، وأخيرا انتهى من مهمته الشاقة ، وبقيت مهمة أشق منها وهى إعادة الملابس التى تناثرت على قارعة الطريق إلى داخل الحقيبة .. وبدأ محمود أفندى عملية « الحشر » فإذا بالحقيبة لا تسع الملابس .

وأصابه اليأس واشتدت به الحيرة .. وبدأ يشك هو الآخر فى أن المرأة قد « استكردته » فتخلصت من الطفل بإلقائه إليه ، ومن غيره يمكن أن تجده المرأة .. أكثر خيبة وأشد حمقا ؟!!

ولم يسؤه الخاطر .. بل على النقيض .. أحس منه بفرحة ملأت قلبه ، إنه سيصبح مالك الطفل .. طفل لطيف لم يتعب فى الحصول عليه ، ويهيئ له هذا

الطفل الضئيل فرصة طيبة للثورة على أخته والتخلص من قيودها ، فيسترد حريته المسلوبة .. أجل .. سيعلنها أنه سيبتاع حانوت الطوابع ويستأجر الطابق الذى فوقه ليكون على مقربة من الطفل .

ونهض محمود أفندى من مكانه ، وقد عرته نشوة هزت جوانحه .. و« لفع »الطفل على كتفه ، وسار يهز الحقيبة فى يده من فرط الطرب .. إنه ما تخيل قط أن أمله يمكن أن يتحقق ، ولكن ها هو قد انتصر أخيرا .. مع هذا الطفل اللطيف .. ترى ما اسمه ؟. لا بد له من أن يطلق عليه اسما من الآن ، وليكن عنتر .. مثلا .. « إزيك يا سى عنتر .. مبسوط يا سى عنتر » !

ووصل إلى جروبى .. ولا أظن من اليسير بحال من الأحوال على أى إمرئ ... أن يصف حال أخته وقد جلست مع الرجل المحترم « على بك رحمى » .. تحدثه عن كفاءة أخيها ونبوغه ، وأنه مقبول فى وظيفته الحكومية .. ثم تبصر بأخيها المذكور وقد « هل »عليها من باب جروبى يخوض بين العيون المحملقة والأفواه الفاغرة مبتل البنطلون حاملا الطفل على كتفه بطريقة لم يسبق لها مثيل فى عالم حمل الأطفال .. وأخذ يهز الحقيبة .. المتفخة المنبعجة ، وقد افتر ثغره عن أعرض ابتسامة يمكن أن يفتر عنها ثغر .

ومضت لحظة ذهول قبل أن تفيق المرأة لكى تعرف الرجل بأخيها ، ومضت لحظة ذهول أخرى قبل أن يفيق الرجل ليعرف أن هذا المخلوق هو أخوها العبقرى النابغة ، وجلس محمود أفندى وهو فى حالة رضاء تام عن نفسه وكان أول ما فعل هو أن مد يده فأمسك بإناء اللبن ودفع به فى فم الطفل قائلا فى غبطة « اشرب ياعنتر » . وأخذ عنتر يجرع اللبن وقد بدت عليه هو الآخر أتم حالات الهدو والاغتباط .

وبعد فترة صمت استعادت « بهية هانم »نفسها وبدأت تدخل فى الموضوع فأنبأت على بك أن محمود أفندى على أتم استعداد للتخلى عن عمله الحكومى فى سبيل خدمة الشركة ، ولكن محمود أفندى قاطعها على حين غرة بقوله ببساطة

ـــ لا .. لا .. لقد قررت أن أبتاع حانوت الطوابع وأن أستأجر الطابق الذى فوقه لأكون دائما على مقربة من عنتر .

وكانت صدمة ثانية للمرأة .. لم تفق منها هذه المرة إلا بعد أن استأذن على بك وتحركت وأخاها قاصدين إلى المترو للعودة إلى الدار .

وفى المترو جلست أمامه ترمقه بأقسى نظرات الحنق وقد وضع عنترا فى حجره وأخذ فى تدليله ، وبدأت هى تهمس إليه مفرغة جام غضبها :

ـــ أقسم أنك لست آدميا .. هل يمكن أن يفعل إنسان غيرك ما فعلت ؟! إنى لأعجب كيف بقيت إلى الآن فى عملك دون أن تفصل .

ونظر محمود أفندى إلى عنتر يستلهمه شيئا من الشجاعة ، ثم أجابها :

ـــ لا فائدة .. لقد قررت أن أستقيل وأبتاع الحانوت فأريحى نفسك .

ووصلا إلى الدار وهو يحس بسعادة تغمره .. فقد شعر لأول مرة أنه أضحى سيد نفسه وأن فروض السيطرة قد زالت عنه . وصعد السلم حتى وصل إلى الباب .. فإذا به يبصر منظرا جعله يهبط من علياء أحلامه ، منظرا أصابه بفجيعة ما بعدها فجيعة .. لقد أبصر أم الطفل تنتظر أمام الباب ومعها جندى بوليس .

وهجمت الأم تحتضن طفلها ناحبة باكية ، وهجم الجندى بدوره يقبض على محمود أفندى ليسوقه إلى القسم متهما بسرقة الطفل .

وكان على الأخت أن تقضى ليلتها فى محاولة الإفراج عنه ، وإفهام المأمور بأن محمود أفندى لا يمكن أن يسرق .. وأنه ليس إلا رجل خيبة .

وعاد محمود أفندى إلى داره فى الصباح .. بعد أن بات ليلته على الأسفلت ، وبعد أن تخلى عنه عنتر فى اللحظة الأخيرة .

ميدو قلب الأسد

كان ميدو رغم صغر سنه فى الثانية الثانوية ، وكان نموذجا للشقاوة الصبيانية ، أو كما كانت تسميه أمه « معجون بمية العفاريت » . ولم يكن هناك ما ينغص عيشه سوى وجود أبيه مدرسا للغة العربية فى مدرسة شبرا الثانوية التى كان ملحقا بها .. فقد كان بعمامته وجبته وقفطانه .. مصدر متاعب له ومورد سخرية .

الساعة السابعة صباحا فى أحد أيام ديسمبر .. منذ ما يقرب من الخمسة عشر عاما .. وقد خيم فى الجو ضباب ثقيل ، وسار عبد الحميد على شحاته أو « ميدو قلب الأسد » كما كان يسمى نفسه ويسميه رفاقه وعصبته .. يطوح بحقيبته إلى الأمام وإلى الخلف « على طول ذراعه » وهو يجتاز دهليز طوسون ، الموصل بين شارع روض الفرج وشارع طوسون المؤدى إلى مدرسة شبرا الثانوية .

وكان « دهليز طوسون » ممرا ضيقا لا يزيد اتساعه على مترين يخترق المزارع ، ويقوم على أحد جانبيه سور شائك من أشجار الفتنة وغيرها من الشجيرات الشائكة المتكاثفة المتربة المليئة بالزواحف والحشرات .. ويكون هذا السور الحد الشرقى لحدائق المانجو المحيطة بمدرسة شبرا والتى كانت فيما مضى سراى الأمير عمر طوسون ، أما الجانب الآخر من الدهليز فتمتد بجواره مزارع القصب والخبيزة والسلق .

وكان أهم ما يشغل « ميدو » فى ذلك الصباح ـــ غير مرجحة حقيبته ـــ ذلك الدخان المتصاعد من فمه كلما نفخ فى الهواء .. لقد كان شيئا مسليا حقا أن

يرى نفسه « مدخنا » كأنه وابور حلوان ، وأن يخرج الدخان من فمه بغير حاجة إلى أن يسرق من أبيه سيجارة يتسلى بتدخينها .

ووصل ميدو إلى نهاية الدهليز ، وقبل أن يلف على يمينه فى الطريق المؤدى إلى المدرسة عبر الشارع متجها إلى الساقية الكائنة فى الجانب الآخر من الطريق ووقف برهة يتسلى بمشاهدتها ويقذف بعض الحجارة فى البئر الذى ترفع منه الماء حتى نهره الفلاح من داخل الكوخ المجاور للساقية ونعته بابن الحرام ، فعدا إلى البوابة الكبيرة المفضية إلى طريق المدرسة .

ولم يكد يحتويه الطريق العريض حتى توقف برهة ومد يده فى جيب بنطلونه فأخرج زلطة مستديرة وانطلق يدفعها بقدمه حتى وصل بها إلى باب المدرسة عندما أفلتت من قدمه إحدى القذفات فأصابت ساق عم فضل البواب .

وصرخ عم فضل وأمسك بالزلطة ، وأقسم أن يعطيها لحضرة الناظر ويبلغه كيف كان ميدو يوشك أن يخرق بها عينيه .

وكان ميدو رغم صغر سنه ، ورغم أنه لم يتجاوز السنة الثانية بعد ، من أبرز الشخصيات وأشهرها فى مدرسة شبرا الثانوية ، وكانت سنه وقتذاك لا تزيد على الرابعة عشرة .. أبيض الوجه ، دقيق التقاطيع ، كبير الأذنين ، به شبه كبير من الأرانب ، غزير الشعر ناعمه ، أنعم الله عليه بشيء من الوسامة ، لو أحسن استغلالها لبدا من أبناء الذوات ، ولكنه لم يحاول ذلك قط ، فقد كان شديد البهدلة دائم العراك ، وكان نموذجا للشقاوة الصبيانية ، أو كما كانت تصفه أمه « معجونا بمية العفاريت » ولم يكن هناك ما ينغص عيشه سوى وجود أبيه الشيخ على شحاته مدرسا للغة العربية فى مدرسة شبرا ، فقد كان بعمامته وجبته وقفطانه ، مصدر متاعب له ومورد سخرية .

واجتاز ميدو فناء المدرسة بعد أن انتهت معركته مع عم فضل بعقد صلح مؤقت استعاد به الزلطة ، وسار يطوح بحقيبته وينفخ فى الهواء ، وقد تدلى شرابه على حذائه الأجرب ، ذى النصف نعل ، والدوبارة بدل الرباط ، وبدت ركبتاه

مليئتين بالجروح والكدمات .

وكان ميدو لا يرتدى قميصا قط ، بل يكتفى دائما بحشر الجلباب داخل البنطلون بعد أن يلفه جيدا حول وسطه ، وكان يرى فى ذلك توفيرا للقمصان وللوقت .

ووصل ميدو إلى فناء الجمباز ، حيث تقوم الأجهزة من عقلة ومتوازيين ، وحصان ، وحيث توجد فى أحد أركان الفناء الحجرات الخشبية التى يستعملها فريق الكرة فى خلع ملابسه ، وحيث توجد حجرة علوى أفندى مراقب الألعاب الرياضية التى كانوا يدخلون إليها بسلم خشبى مركب على نافذة .

واستقر ميدو على إحدى الدكك الخشبية فى الفناء .. ووضع حقيبته بجواره وأخذ يرقب بعينيه الباب الآخر المؤدى إلى فناء الكرة كأنه ينتظر مجىء شخص بين آونة وأخرى .

وكانت الوقت مبكرا ، والمدرسة قد خلت إلا من بضع فراشين تناثروا فى أرجاء المدرسة ، والضباب قد تكاثف فى فناء الكرة وبين أشجار الجوافة المتناثرة فى الفناء الخلفى .

وفجأة سمع صفيرا حادا فأجاب ميدو على الصفير بصفير مثله ، وبدا شبح قصير يتسلل من باب ملعب الكرة إلى فناء الجمباز مقبلا فى اتجاه ميدو .

ونهض ميدو يصافح الصديق ، وأفسح له محلا بجواره وبدأ الاثنان الحديث همسا .

كان القادم هو زكى إبراهيم جاد الله ، أو « أبو الزيك » .

وكان أبو الزيك — رغم أنف أبيه — وكيلا لجمعية التمثيل فى المدرسة ، فقد كان ممثلا بارعا ، لا يعيبه إلا قصر قامته ، وإن كان طول لسانه وشدة مكره قد عوضاه خيرا عن قصر قامته .

ولم يكن أبو الزيك فى مثل شقاوة ميدو ، بل كان أكثر منه هدوءا وتؤدة واتزانا ، وكان الاثنان يكونان شركة يعتبر أبو الزيك فيها العقل المدبر ، وميدو

القوة المنفذة .

وجلس أبو الزيك على الدكة بقامته القصيرة ، ورأسه الكبير ، وأنفه الضخم ، وعينيه المتفختين ، وساقاه مدلاتان لا تصل قدماه إلى الأرض ، وقد بدا حذاؤه لامعا وشرابه مثبتا على ساقه بأستك وبدت حلته نظيفة لا أثر فيها لتلك البهدلة التى تكسو حلة صاحبه .

وبدأ أبو الزيك الحديث بلهجة تمثيلية وقور :

ـــ كل شىء قد بات على تمام الأهبة يا قلب الأسد .

ـــ ماذا فعلت بالأمس ؟

ـــ فعلت كل خير ، لم يعد ينقصنا شىء إلا الإقدام على الخطوة الأخيرة .

ـــ وعم سعيد ؟

ـــ لقد أضحى أطوع لنا من بناننا .. إنه لم يعد يشغل رأسه سوى عمارة سيف الدين ، وقد جلست معه فى حجرته بالأمس بعد انصراف الطلبة ، وأفهمته أن من الجنون أن يضيع عمره سدى ، وأن عمل بواب فى مدرسة عمل لا يليق بعم سعيد ، وأن مكانه اللائق هو فى عمارة سيف الدين ، وجلست أحسب له أجره ، وأجمع المبالغ التى سيدفعها له السكان ، عشرة جنيهات أجرا شهريا وبالقليل خمسين قرشا بقشيشا من كل ساكن ، خمسين قرشا فى مائة ساكن بخمسين جنيها وبإضافة الجنيهات العشرة تصبح ماهيته ستين جنيها ، أى أكثر من ماهية حضرة الناظر .

ـــ وصدقك ؟

ـــ طبعا ، وقلت له إن خالى سيف الدين صاحب العمارة سينتظرنى غدا فى الظهر لأجل الحديث معه فى هذا الموضوع ، ولكنى لا أعرف كيف أخرج ، فأجابنى بأنه يستطيع أن يخرجنى فى أى وقت أريد .

ـــ وأنا ؟

ـــ سيخرجك معى .

ــ هل أخبرته ؟

ــ لا ضرورة لإخباره .. سأقول له إنك معى وكفى .

ــ أنت تعلم أن العلاقة بينى وبينه ليست على ما يرام وأننى بالأمس فقط خطفت عمته .

ــ اطمئن .. دع أمر عم سعيد لى ، سأدعى أنك خارج معى لمقابلة عمك بهلر ، حتى إذا لم تنفع عمارة سيف الدين استبدلنا بها عمارة بهلر .. ولكن ماذا فعلت فى المسألة الأخرى .. إنها أهم ما فى الأمر ؟

ــ لقد أعددت كل شيء .. واتفقت مع أم سيدة الغسالة أن أحضر لها الطفل لترعاه وترضعه حتى نأخذه منها ، وقلت لها إنه ابن فراش فى المدرسة ، توفى أبوه ومرضت أمه ، وإننا تطوعنا للعناية به .. حتى تبل أمه .. فنعيده إليها .

ــ فكرة هائلة .. ولكن .. ألا تخشى أن تشى بنا أم سيدة ؟

ــ ومن أدراها ؟ وما فائدتها من الوشاية ؟

ــ ومتى سنبدأ الهجوم ؟

ــ اليوم ظهرا ، نخرج فى الساعة الثانية عشرة من بوابة عم سعيد ، ونتسلل إلى البيت من الباب الخلفى .. وعليك أن تنتظر أمام باب الحديقة .. لتعطينى إنذارا إذا ما رأيت أحدا ، أما أنا فسأظل أيضا فى الحديقة حتى تحين الفرصة .. هذه مسألة تحتاج إلى سرعة وجرأة .. وأنت إنسان بليد بطيء .. هذه المغامرة الجريئة لا ينفع فيها غير قلب الأسد .

ــ سأنتظر فى الخارج ، حتى أتسلم منك الطفل ، ماذا تنوى أن تفعل إذا صرخت الخادمة ؟

ــ لا تتدخل فيما لا يعنيك ، سأعرف كيف أتصرف ، إن مهمتك تبدأ عند تسلم الطفل .

ــ ولكن ألا تخشى أن يكون البيه الناظر موجودا فى البيت ؟

ــ غير معقول ، إنه لا يترك المدرسة للغداء قبل الواحدة ، وأنا أعرف

الخادمة قد اعتادت أن تضع الطفل فى شرفة البيت المطلة على الحديقة ، وأعرف أن المهمة لن تحتاج إلى كبير عناء وحذر ، لقد أحضرت شال العمة معى فى الحقيبة .

ــ وماذا تنوى أن تفعل به ؟

ــ هذه أسرار المهنة ، إنك لا تدرى شيئا عن فوائده ولا أبى يدرى ، إن كل ما يفعله هو أن يلفه على عمامته ، أما أنا فسأعرف كيف أستفيد منه .. هل تعرف حبل الكشافة وفوائده ؟.. إن هذا خير منه .. سأستعمله أولا كقناع أخفى به وجهى ، فإذا حاولت الخادمة أن تصيح فسأكممها به ، وكذلك يمكننى أن ألف فيه الطفل .. أشياء كثيرة يمكن فعلها به .. على أية حال أعتقد أن المسألة ستنتهى دون حاجة إلى استعمال العنف ، فقد راقبت الخادمة بضعة أيام فرأيتها كثيرا ما تترك الطفل فى الشمس وتدخل إلى البيت لمغازلة عبد ربه الطباخ .. سأحاول أن أنتهز إحدى هذه الفرص وأخطف الطفل بهدوء دون أن يحس بى أحد .

ــ لو تمت العملية لأصبحنا من الأثرياء .

ــ أثرياء فقط ! إننا سنذل الناظر ، ونكسر أنفه .. ونحصل على كل مطالبنا منه .. سننتقم لأنفسنا شر انتقام .. هل كتبت الخطاب الأول ؟

ــ أجل .

ــ أعطه لى .. إذ يجب أن أضعه مكان الطفل عندما آخذه ..

وأخرج أبو الزيك ظرفا من جيبه وسلمه إلى ميدو وبدأ ميدو القراءة :

« من الزعيم المخيف قلب الأسد رئيس عصابة الموت بالحانة السوداء إلى البائس المسكين على عبد المتعال ناظر مدرسة شبرا الثانوية » .

وقلب ميدو شفتيه وقال معترضا :

ــ ولكن هل تظن أن من العقل أن نذكر فى الخطاب صراحة اسم قلب الأسد ؟! إن الناظر قد يعرفنا بمجرد اطلاعه عليه .

ــ ليس هناك من يعرف اسمك هذا إلا أفراد العصابة ، على أية حال من باب الحرص لنجعله مخلب القط ، أو عين العنكبوت .

ــ العنكبوت ليس له عين . لنجعله مخلب القط ، فهو أروع وما مسألة الحانة السوداء ؟

ــ هذه هى مقر ملتون توب ، وابن جونسون .. لا تخف من الرسالة .. فقد نقلتها بالضبط من الجزء الثانى من ابن جونسون .

ويعاود ميدو القراءة :

« لقد أخذنا طفلكم ، ولن يعاد إليكم حيا إلا إذا نفذتم الشروط التالية :

١ ــ إرسال مبلغ مائة جنيه .. وذلك بوضعها فى صندوق .. ودفنها تحت النخلة الموجودة فى نهاية دهليز طوسون .

٢ ــ إعطاء المدرسة إجازة شهر .

٣ ــ حذف مادة التاريخ الطبيعى والجبر والهندسة .

٤ ــ رفت على أفندى كفته الضابط بالمدرسة .

٥ ــ جعل وكيل فرق التمثيل رئيسا لها .

وهنا نظر ميدو إلى أبو الزيك وهز رأسه مغتاظا :

ــ أيها الأنانى ، إنك لم تذكر إلا نفسك ، أضف شرطا سادسا ، وهو أن يجعلنى كابتن فريق الكرة .

ــ ولكنك لا تلعب كرة .

ــ هذا لا يهم . لن يعاد الطفل إلا إذا أصبحت كابتن للكرة ، وأعطونى جزمة كنج ، وجوز أناكل ، وجوز شناجير .

ــ أمرك .

وتناول أبو الزيك الخطاب وهم بإضافة الفقرة الجديدة ولكن ميدو صاح به فجأة :

ــ أيها الغبى ، سيعرف الناظر من هذا أن لنا علاقة بالعصابة .. إننا يجب ألا

نذكر أى شيء يستدل به على أشخاصنا ، اشطب فقرة التمثيل والكرة ، واجعل المبلغ مائتى جنيه .

ـــ لنجعله ثلاثمائة .. مائة جنيه للتعويض عن رئاسة فرقة التمثيل .

ـــ أخف الخطاب الآن ، فإنى ألمح فرج أفندى قادما .

ـــ اسمع .. لقد تذكرت .. أضف بندا بترقية فرج أفندى فهو رجل غلبان .

ـــ أجل .. معك حق .

ـــ وأضف أيضا ترقية الشيخ على شحاته ، فالأقربون أولى بالمعروف .

وبدأ الطلبة يتوافدون على الفناء ، وافترق الصاحبان على أن يلتقيا فى الساعة الثانية عشرة أمام بوابة عم سعيد .

* * *

الساعة الآن الثانية عشرة والحصة الرابعة لم تنته بعد .. وبدأ ميدو وأبو الزيك يحومان حول بوابة عم سعيد ، ثم دخلا إلى حجرته .

وجلس ميدو على دكة بجوار الرجل الأسود السمين ، وأخرج من جيبه علبة سجائر ، وأعطى سيجارة لعم سعيد وسيجارة لأبى الزيك ، ثم أخرج من الجيب الآخر فم سجاير ووضع به سيجارته وبدأ التدخين .

ونظر أبو الزيك إلى الفم فى إعجاب وسأل ميدو :

ـــ من أين أتيت به ؟

ـــ سرقته هو والعلبة من قفطان أبى ، إن اسمه منقوش عليه .. إنه فم ثمين أهدى إليه من الشيخ خميس .

ثم وجه القول إلى عم سعيد :

ـــ سنخرج الآن يا عم سعيد لمقابلة خالى سيف الدين .

ـــ ستخرج أنت وحدك .

ـــ وميدو ؟!! إنه لا بد أن يأتى معى .

ولكن الرجل نظر إلى ميدو فى غيظ ، وهز رأسه فى عناد وإصرار .

وغمز ميدو أبو الزيك أن يخرج هو ويدعه ينصرف مع الرجل حتى يقنعه .

وخرج أبو الزيك من الباب .. وعاد ميدو إلى فناء المدرسة وقد بدا عليه الأسف والضيق ولم يتجه إلى الفصول ولكنه ذهب إلى دورة المياه وخرج منها وقد خلع الجاكتة والبنطلون وسار بالجلباب واضعا بدلته على كتفه ، ولمح عربة العيش تهم بالخروج من بوابة عم سعيد فعدا إليها بجوار الحصان كأنه صبى بائع العيش ، وبعد لحظة كان يقف مع أبو الزيك خارج المدرسة ، وأبو الزيك ينظر إليه فى دهشة شديدة .

* * *

لنترك قلب الأسد وزميله ينفذان مؤامرتهما ، ولنذهب إلى الشيخ على شحاتة مدرس اللغة العربية بعد بضع ساعات وقد أخذ يجمع كراريس التحضير وهو يهم بمغادرة المدرسة ذاهبا إلى البيت ولا يكاد الرجل يفتح الباب ، حتى يبصر الناظر وقد اقتحم عليه الغرفة فى هياج شديد ، ويصيح به :

— أين الولد أيها المجنون ؟ أين هو قل لى ؟ إنك لا شك قد جننت ، ما هذا الهراء ؟!

ثم يدفع إليه بالخطاب .

ويذهل الرجل ويقرأ الخطاب وهو لا يفهم منه شيئا .. ويستمر الناظر فى هياجه الشديد صائحا :

— رجل فى مثل سنك يلجأ إلى مثل هذا الجنون ؟.. أتريد الترقية بمثل هذه الوسائل الصبيانية ؟ أتخطف أولاد الناس من أجل درجة ؟ إنك لا شك قد جننت ! أين الولد ؟ أين الولد ..؟

— أى ولد يا سيدى الناظر ؟ أرجوك أن تهدأ ، إنها لا شك وشاية أو نميمة .. إنى لم أغادر المدرسة قط .

— لا فائدة من الإنكار .. انظر ، أليس هذا الفم لك ؟ أليس هذا شال عمتك ؟ لقد وجدنا الفم ملقى بجوار عربة الولد فى الشرفة ، ووجدنا شال العمة

قد ربط به الباب حتى لا تستطيع الخادمة فتحه لتعدو وراءك وتستعيد الطفل .. إن الخادمة تقسم أنها رأت طرف جبتك وأنت تعدو بالطفل .

ـــ حرام عليك يا سيدى الناظر ، أقسم لك أنى لم أفعل شيئا من هذا .

ـــ إذن فلا بد أن ألجأ إلى البوليس .

ـــ أرجوك أن تهدأ وتفهمنى ما حدث .. اجلس قليلا لنتفاهم .

ـــ أجلس !؟ ابنى مفقود يا أستاذ ، وتقول لى اجلس لنتفاهم ؟! ابنى ضايع .. مسروق .. مخطوف !

ـــ كان الله فى عونك .. إنى أقدر مشاعرك .. ولكن أرجوك أن تهدأ .. حتى نستطيع التفكير قليلا .. نبتنى كيف حدث الحادث ؟.. وأين كان الطفل ؟.. وكيف وجد الشال والفم ؟

ـــ لست أدرى شيئا عن التفاصيل .. لقد كنت جالسا فى مكتبى عقب فسحة الغداء حوالى الساعة الثانية تقريبا .. عندما فتح باب الغرفة ووجدت عبد ربه الطباخ يندفع إلىّ زائغ البصر ، أصفر الوجه .. ويطلب منى الذهاب إلى البيت لأن بهاء ابنى قد سرق والسيدة تكاد تجن .

ـــ معذورة .. كان الله فى عونها ، وماذا فعلت أنت ؟

ـــ انطلقت بلا وعى وراء الطباخ .. وعبرت فناء الكرة وأنا أهرول ، وفى لمح البصر كنت فى حديقة البيت .. فإذا بزوجتى تندفع إلىّ صارخة وهى أشبه بالمجنونة .. وحاولت عبثا تهدئة روعها .. فقد كنت أنا نفسى فى حاجة إلى من يهدئ روعى ، ولكنى تمالكت جهدى وسألتها عما حدث فأنبأتنى أن سنية الخادمة كانت تجلس بالطفل فى الحديقة .. وكانت هى فى الدور العلوى ، فلم تشعر إلا والخادمة تصيح بأعلى صوتها « الحقونى . الحقونى . الحرامية سرقوا الولد » .

ـــ كيف سرقوه .. هكذا فى رابعة النهار وأمام عينيها ؟ هذا شىء لا يصدق !

ـــ لقد قلت لك إنهم هجموا عليها من باب الحديقة ثلاثة رجال بجلاليب

وشيخ معمم .

ـــ ولماذا لم تصرخ وتستنجد ؟

تقول إنها ذهلت ، وأن الدهشة والخوف عقدا لسانها ، وأنهم هددوها بالقتل إن هي صرخت .

ـــ وهكذا سرقوا الطفل أمام عينيها وهي ساكتة دون أن تبدى أية استغاثة ؟

ـــ لقد صرخت .

ـــ بعد أن فروا ؟

ـــ هكذا تقول .. وهي تقول أيضا إن الشيخ المعمم قد ربط الباب بشال عمامته حتى لا يفتح .. وأنه قد ترك هذا الخطاب في سرير الطفل ، وقد سقط منه هذا الفم وهو يهرول به إلى الخارج .

ـــ وهذا الشيخ مفروض فيه أن أكون أنا ؟ ما شاء الله وهكذا قد انقلبت على آخر الزمن لأكون سارق أطفال ، المجرمة بنت المجرم .

ـــ من هي ؟

ـــ ومن تكون سوى الخادمة ، أؤكد لك أنها شريكة في الجريمة .. وسأثبت لك سوء نيتها وكذبها .. بما لا يقبل أدنى شك .

ـــ كيف ؟

ـــ سأدلك بواسطة الشهود .. على أني لم أغادر المكتب طوال فسحة الظهر وأني كنت منهمكا في تصحيح الكراريس وسأذهب معك إليها .. فإذا قالت لك إني لم أكن ذلك الشيخ .. فماذا يكون رأيك ؟

وبدت الحيرة على وجه الناظر .. ولكن الشيخ شحاته جذبه من يده قائلا :

ـــ هيا بنا أولا نرى الخادمة ، ونناقشها .

وسار الاثنان يستحثان الخطى إلى بيت الناظر ، ووقفا في الحديقة يستجوبان الخادمة ، ومن وراء الباب كانت تصلهما نهنهة الأم .

وأخذت الخادمة تشرح الحادثة وهي وجلة خائفة ، وأخيرا سألها الناظر :

— هل تستطيعين تمييز الرجال إذا عرضوا عليك .

وأجابت الخادمة فى قلق وتردد :

— أظن ذلك .

وسألها الناظر وهو يشير إلى الشيخ شحاتة :

— هل هذا هو الشيخ المعمم الذى كان يصحب الرجال والذى رأيت طرف جبته ؟

وزاد القلق على وجه الخادمة واشتدت حيرتها وأخذت تتفرس فى وجهه ، ولكنها ما لبثت حتى تشجعت وقالت فى تردد :

— أجل .. إنه هو .

ثم ما لبثت حتى عادت تؤكد :

— أجل .. أجل .. إنه هو بعينه .

— أرأيت يا سيدى الناظر .. ألم أقل لك .

ووقف الناظر يقلب البصر فيما بينهما ، وقد ازدادت حيرته وشكوكه .. وأخيرا قال فى لهجة حازمة :

— على أية حال .. وأيا كان السارق ، سأعطى لها مهلة ربع ساعة ، وإذا لم يعد الطفل فسأبلغ النيابة .

وهنا تدخل عبد ربه الطباخ صائحا :

— لا داعى للكذب يا سنية .. قولى الحق . إنك لم تكونى مع بهاء ساعة أن خطفوه .. لقد كانت تسألنى عن الساعة فى المطبخ وتركت الطفل فى الحديقة ، فلما عادت إليه لم تجده فى عربته ، وهى لم تر أحدا من اللصوص .. بل كل ما رأته هو الفم والخطاب والشال .

وصاح الناظر :

— هكذا ؟!

وصاح الشيخ شحاته :

ــ ولِم لم تقولى الحق يا بنت الصرمة .. لِم تدعين على الناس كذبا وتتهمين الأبرياء ؟

وقاطعه الناظر قائلا :

ــ على كل حال .. الشال .. والفم والخطاب .

ــ أرجوك يا سيدى الناظر .. أنا لم أجن بعد حتى أفعل هذا .. ولكن دعنى أفكر قليلا : أين كان الفم .. فى الدرج .. وأين كان الشال .. فى الدولاب .. والخطاب .. ما سره .

ثم صمت لحظة وهو ينظر إليه وأخيرا قال :

ــ اللعين .. ابن اللعينة .. لا بد أن يكون هو الذى قد فعلها .

ــ من هو ؟

ــ عبد الحميد .. ابنى .. فلنبحث عنه ، ولنسأل عليه فى الفصل ، فإذا لم نجده فلا شك أنه هو الذى خطفه وسأعرف كيف أحصل عليه وأربيه .

واندفع الاثنان إلى فصل عبد الحميد ، فإذا بميدو جالس فى الحصة وقد بدا عليه منتهى الهدوء والبراءة والطيبة .

وجذبه أبوه من قفاه خارج الفصل ووقف هو والناظر يسألانه :

ــ أين الطفل ؟

ــ طفل ؟ أى طفل ؟

ــ الطفل الذى سرقته .. ابن البيه الناظر .

ــ أنا سرقت ابن الناظر ؟ وماذا أفعل به ؟ آكله ؟

ورأى أبوه أن يأخذه بالحسنى فقال متوسلا :

ــ يا بنى يا عبد الحميد .. أعد الطفل .. ولن يفعل بك أحد منا شيئا .

ــ قلت لك إنى لم أغادر المدرسة .

ــ وما رأيك فى هذا الخطاب ؟

وأمسك بالخطاب يقرؤه وهو يتصنع الدهشة وأخيرا هز رأسه وقال بأسف :

ـــ وما لى أنا ومخلب القط .. كل هذا ليس لى به شأن .

وقال الناظر يائسا :

ـــ ليس أمامى إلا تبليغ النيابة .

ولكن الشيخ شحاتة قال وهو يضرب سهمه الأخير :

ـــ ليسمح لى حضرة الناظر بالذهاب إلى البيت فقد يكون المجنون ذهب به إلى هناك ؟

وقال الناظر فى لهفة :

ـــ أجل ! أجل ! ربما قد فعل ذلك .

وذهب شحاتة إلى البيت ووقف يطرق الباب ولم تكد امرأته تفتح له حتى فوجئ بصراخها فى وجهه :

ـــ يا ضلالى ، يا فلاتى .. هذا الولد ، إيه حكايته ؟ هل تزوجت وأنجبته دون أن أدرى ؟

ـــ ولد ! الحمد لله ، هاتيه بسرعة .

ـــ متلهف عليه ؟ وحشك ؟

ـــ هاتيه أولا .

ـــ لقد أعدته معها .

ـــ مع من ؟

ـــ مع أم سيدة الغسالة ، لقد قالت لى إنها ذهبت إلى بيتها فوجدته هناك وأنبأها الجيران أن ابنك عبد الحميد تركه لها لكى تربيه .

ـــ عبد الحميد .. ابن الكلب . لقد كنت أعرف أنه هو الذى فعلها .

ـــ طبعا ، هو الذى فضحك .

وأطبقت على زمارة رقبته ، ولكنه تخلص منها صائحا :

ـــ اتركينى الله يستر عرضك ، إنه ابن الناظر وسيبلغ النيابة إذا لم أعده له بعد ربع ساعة .

وانطلق يعدو إلى أم سيدة .

وأخيراً أعاد الولد إلى أبيه ، وبقيت عليه مهمة أخيرة هى البحث عن ميدو ..

قلب الأسد .

الذى كان يجلس تحت النخلة فى انتظار الفدية .

أم نجيّة

حقيقة أنها تعصب رأسها بمنديل بأوية ..
وحقيقة أننا نلمح فوق ركبتيها ــ أو ما انحسر عنهما الجلباب ــ كورنيشا لسروال ملون .
ولكن أيكفي هذا لجعلها من الجنس اللطيف ؟ ولكي نقول عنها « أم نجية » ؟

تعال معى نشاهد « أم نجية »فى أول فم (بضم القاء) . تبـدأ المعمعة بالتحضيرات الأولية .. حيث تنحنى أم نجية على وابور الغاز فتدفع فى جوفه بضعة أنفاس سريعة قوية متلاحقة ثم تمد يدها بالإبرة فتحشرها فى الثقب .. وتمر فترة قصيرة يبدو الوابور خلالها وقد كتمت أنفاسه وخبا أواره وانطفأ لهيبه .. ثم ترفع الإبرة .. فينطلق الدخان فى فحيح شديد ويبدو الوابور وكأنه قد نفس عن كربته بعد طول خنق وكبت .. وتسرع المرأة فتشعل عود ثقاب وتدفع به فى عجلة إلى ثقب الوابور الزافر الصافر ، فتنطلق النيران متأججة مستعرة ، ويدوى صوتها فى زئير وهدير .

وتزيح أم نجية الوابور جانبا ثم تجذب الصفيحة الفارغة فتدفع بها تحت الحنفية وتفتح الصنبور فتندفع المياه من فوهته وتتدفق هابطة إلى قرار الصفيحة محدثة مزيدا من رنين وصخب ومزيدا من ضجيج وقعقعة لو كان هناك ـــ بعد صوت الوابور ـــ من مزيد .

وتترك المرأة الصفيحة لتمتلئ بالمياه وتلتفت إلى سبت الغسيل ، وقد كدست فيه الملابس وتعالت فوقه مكونة منه كوما هرمى الشكل ينافس فى ضخامته أهرام

الفراعنة وتناثرت حوله بضعة مناديل وجوارب وخرق .

وزفرت أم نجية زفرة حارة وهى تقلب السلة بما فيها .. وأخذت تعبث فى الملابس بيدها باحثة فاحصة .. وكانت الصفيحة قد قاربت الامتلاء فنهضت من مكانها ورفعتها بين يديها ووضعتها على الوابور وبدأت تنتقى من الملابس ما يستحق الغلى فتكومه على حدة . ثم سحبت الطشت لترص فيه الفم الأول « ع البارد »واتخذت مجلسها أمامه مشمرة عن ساعديها حاسرة قميصها عن ساقيها .. وقد أحاطت بهما الطشت .

وتبدأ المرأة المعمعة .. وبيمينها سلاحها الماضى البتار قطعة من صابون الغسيل « أبو ميزان » .. تحك بها الملابس لتفنى ما علاها من أوساخ وبقع وعرق وأتربة .. وتثير بها من الرغوة البيضاء ما يملأ رحاب الطشت .. فتبدو كأنها زبد الموج فى بحر هائج مائج .

وتبدو أم نجية وقد انحنى ظهرها وأخذ ساعداها يتحركان فى الطشت حركة مستمرة منتظمة كأنها آلة لا تكل ولا تمل .

ولست أشك فى أن أول ما يطرأ على ذهن الإنسان حين يقع عليها بصره .. هو : لم كانت المرأة « أم نجية »ولم تكن « أبو نجية » ؟.

كيف أمكن حشرها فى زمرة النساء ؟.. وبأى حق نطلق عليها اسم الجنس اللطيف ؟.

ومن يكون الجنس الخشن إذا لم تكن أم نجية ؟.

هذه الوجه « القرودى » .. ذو العينين الضيقتين والأذنين الكبيرتين والأنف المفرطح والشفة العليا العريضة والسفلى المدلاة والأسنان المتناثرة والعنق الغليظ القوى المعروق المركب على جسد صلب متحجر « مقلحف »كأنه قد من صوان .. أو كأن العصارة التى به قد جفت فأضحى أشبه بجذوع الشجر التى لا تنفذ فيها البلط أو المناشير والتى لا تصلح إلا لكى تكون حطبا لنيران آكلة .

وهاتان الذراعان المفتولتان والساقان العجفاوان اللتان تستطيع أن تميز

تركيبهما عضلة عضلة ، وعرقا عرقا ، وهى تتحرك وراء طبقة الجلد السمراء الرقيقة .

أبعد كل هذا .. نقول إنها امرأة .. وجنس لطيف ؟

حقيقة أنها تعصب رأسها بمنديل بأوية .. وحقيقة أننا نلمح فوق ركبتيها — أو ما انحسر عنهما الجلباب — كورنيشا لسروال ملون .

ولكن أيكفى هذا لجعلها من الجنس اللطيف ؟.. ولكى نقول عنها « أم نجية » ؟!

وما قيمة منديل الرأس والسروال الملون فى أن يجعلاها « أم » نجية .. إذا كان « أبو » نجية .. يشاركها فيهما .

إى والله .. إن « أبو نجية » نفسه .. كثيرا ما ضبط متلبسا بالسروال الملون .. ومتعصبا بمنديل الرأس .

أفيستطيع المنديل والسروال بعد هذا أن يكونا علامة مميزة للجنس اللطيف ؟

لنترك « أم نجية » منهمكة فى الغسيل .. محنية الظهر .. متحركة الساعدين مفتوحة الساقين بين والوابور والصفيحة والطشت وأكوام الغسيل ، ولننطلق فى ربوع الدار لنبحث عن الفردة الثانية .. أو « أبو نجية » .

كان الزوجان .. « أم وأبو نجية » مثلا لنقيضين .. فالمرأة عبوس متجهمة لا تعرف الابتسامة طريقها إلى وجهها ، والرجل مهزار خفيف الدم « ابن نكتة » لا يكف عن الضحك قط .. ولم يكن هناك ما يخيف الرجل وينغص عليه حياته كامرأته .. وكان الاثنان يعملان كخادمين فى بيتنا الكبير بحارة الروم بالدرب الأحمر ، وإنى أعنى بالبيت الكبير .. أنه كان كبيرا فقط .. لا فخما ولا وجيها ولا عظيما .. وهل هناك أكبر من بيت يحوى فى داخله مسجدا وضريحا .. يرقد تحت قبته ولى من أولياء الله الصالحين يدعى « الشيخ ريحان » .. يزوره الناس للتبرك ولوضع النذور فى صندوقه .

ولقد كان صندوق النذور هذا مبعث « تشنيع » بين الأصدقاء .. فلقد كانوا

يدعون أننا نعيش من نذور الجامع وأننا بنينا الضريح لكسب الرزق .

ألا يعتبر كبيرا ذلك البيت الذى يحوى بين رحابه مجاهل خربة .. لم نحاول استكشافها قط .. بدعوى أنها مسكونة !

هيا بنا ننطلق فى البيت الكبير .. ذى المشربيات والسراديب والدهاليز والدور المسروقة والمنادر والأقبية المظلمة ذات الجن والشياطين .. لنبحث فى كل ذلك عن أبو نجية .. وهى مهمة لو تعلمون عسيرة .. فالرجل لا يكاد يستقر له قرار فهو أشبه « بفرقع لوز » .. متواثب قفاز .

ها قد وجدناه أخيرا ، وقد تسلق التكعيبة ، وبدأ فى قطف « ورق العنب » .

وأى عجب فى ذلك ، والرجل يعيش فى الصيف على ورق العنب ، وفى الشتاء على إبر الوابور ، ومشابك الغسيل والشحاذة .

مفهوم ؟!. أم تريدون بعض الشرح والتفصيل ؟

كان الرجل يعيش فى الصيف على ورق العنب ، فهو لا يكاد يستيقظ من النوم ويطمئن إلى أن أم نجية ، أو « أم قويق » كما كان يسميها قد غادرت المندرة الملحقة بالبيت التى كانا يسكنانها معا ، وصعدت إلى أعلى لترعى شئوننا وتقضى حوائجنا ، حتى يتسلل على أطراف أصابعه ويخرج إلى الحديقة المترامية الأطراف المشعثة المتكاثفة المهملة المتربة فيتسلق التكعيبة ويبدأ فى جمع الورق ، حتى يملأ حجره ، ثم يذهب إلى « الفسقية »الواسعة المهدمة ، فيغطس فيها الورق لغسله ويبدأ فى رصه ثم لفه فيما يتيسر من مناديل الرأس ، وينطلق فى الطرقات لبيعه ، مناديا « صباحى يا ورق العنب » .

ولا تستغرق عملية البيع سوى دقائق معدودات ، فهو لا يدقق فى السعر ، لأنه لا يريد أكثر من ثمن « القرعة » ، فلا يكاد يحصل عليه حتى يرمى ببقية الورق على قارعة الطريق أو يهبه لأى إنسان ، ثم ينطلق إلى أقرب « بوظة » .

ويعب «أبو نجية»من البوظة كفايته، حتى «يستمخ»أو — على حد قوله —

« يوزن راسه » ثم يعود إلى البيت مبسوطا أربعة وعشرين قيراطا ، مترنما مترنحا ، يضىء بياض أسنانه سواد وجهه ، ويهتز جسده الضئيل الأعجف من فرط الطرب ، وتلتف ساقاه المعوجتان النحيلتان إحداهما حول الأخرى ، وينثر النكات ذات اليمين وذات اليسار .

هذا فى الصيف ، أما فى الشتاء فالمسألة أعوص من هذا وأكثر تعقدا ، فالتكعيبة قد تجردت من أوراقها ، فحرمت « أبو نجية »من مورد رزقه السهل ، وأضحى الحصول على القرعة يحتاج منه إلى كثير جهد ومشقة .

ويفكر أبو نجية ، حتى يضنيه الفكر ، ثم ينتهى به دائما إلى أمر واحد ، هو أن أم نجية سترفض رفضا باتا أن تعطيه مليما واحدا ، وهو لا يستطيع أن يسأل أحدا من أهل الدار ، لأنها قد حرمت عليهم أن يعطوه شيئا ، وهم لا يجسرون أن يعصوا لها أمرا ، وهو كذلك لن يستطيع الوصول إلى كيس نقودها ، فهى تربطه فى تكة سروالها .

إذن لم يبق أمامه سوى أمر واحد ، وهو سرقة إبر الوابور ومشابك الغسيل .

أجل هذه أشياء يستطيع أن يسرقها منها دون أن تحس . وهكذا يبدأ أبو نجية فى جمع الإبر والمشابك ، والتسول على باب الضريح حتى يخرج من كل هذا بثمن القرعة .

لنترك الرجل يتواثب على التكعيبة كالقرد ليجمع فى حجره ورق العنب اللازم لبيعه ثم نصعد مرة أخرى إلى أم نجية .

المعمعة دائرة على أشدها ، نحن الآن فى « الفم »الثانى ، وأم نجية كزبانية جهنم تقلب الغسيل بالنشابة فى الماء المغلى وقد تصاعد حولها الدخان وسالت من وجهها قطرات العرق .

لم يكن أبو نجية وحده هو الذى يخشى المرأة ، بل كان أهل الدار كلهم يخافونها ، ورغم أنها كانت تقوم فى البيت بكل أعمال الخدم من غسل وطبخ وكنس ومسح وتنفيض فإنها لم تكن قط خادمة بل كانت مهيبة أكثر من أسياد

البيت ، وأذكر أنى لم أكن أخشى أبوى كما أخشاها .

كيف لا ، وجدى وجدتى وأبواى وأعمامى وعماتى يخشونها ويعملون لها ألف حساب ، لقد كانت خادمة جدى منذ الصغر وهى التى قامت بتربية أولاده جميعا ، ولها على أهل الدار حق التربية .

* * *

وعاودت أم نجية « الفم الثانى »وتبعته بالثالث ثم رصت الملابس « المعصورة » فى السبت .. وحملتها على كتفها .. وصعدت إلى السطح لتبدأ عملية النشر .

وشدت الحبال ومسحتها .. وبدأت فى النشر ، ومدت يدها لتأخذ كيس المشابك حيث تعودت أن تضعه ولكنها لم تجده ، وهنا عضت على نواجذها ، وانطلقت من فمها زفرة تهديد ونفاد صبر ، وصاحت بأعلى صوت تسأل عن المشابك ، فلم يجبها أحد .

ونظرت من أعلى السطح فوقع بصرها على أبو نجية ، وقد أقبل يترنح فى الحديقة بوجهه الأسود وجسده النحيل الضئيل وهو يصيح بأعلى صوته مترنما : كيد العواذل كايدنى .

وصرخت المرأة بأعلى صوتها ، منادية الرجل بصوت يشبه الزئير :

— أبو نجية .

ونظر الرجل إلى أعلى ثم هز رأسه ببساطة فى تساؤل عن سر هذه الضجة .

وعادت المرأة تهدر صائحة :

— هات المشابك قوام لحسن انزل لك ، أخلى يومك زى وشك .

وعاد الرجل ينظر إليها فى بلاهة ، وصاح ضاحكا :

— يا ام قويق .. يحمُّوا ابوكى فى كنكة .. أبوكى نشروه على الحبل من غير مشابك طار .. هع .. هع .. يا ام قويق قولى اشمعنى .

وهنا فاض بالمرأة غضبها ، وغلى مرجلها ، واندفعت الصرخات من فمها

كطلقات المدافع وصاحت به :

ـــ والنبى واللى نبًّا النبى .. لافرَّج عليك اللى ما يتفرج ، يا حرامى المشابك ، يا اسود الوش .

وتركت الغسيل واندفعت على السلم هابطة كالقذيفة .. وقد أمسكت بيمينها نشابة الغسيل .

وبعد لحظة كانت تمسك الرجل من عنقه ، وتهزه فى عنف صائحة :

ـــ فين المشابك ؟

ـــ مشابك إيه يا ولية ؟

ـــ مشابك الغسيل اللى سرقتهم .. عشان السم الهارى اللى بتحطه فى جوفك .. والنبى لاطفحولك .. انطق .. فين المشابك ؟

ـــ سيبينى يا ولية .. ماشفتش مشابك .. المشابك بتوعك دول ما يلزمونيش فى الصيف .. العنبة مخضرة .. والورق كتير ، والأشيا رضا .

ولكن أم نجية لم تقتنع .. فالمشابك لا يمكن أن تضيع إلا إذا كان أبو نجية قد سرقها .

ورفعت يدها بالنشابة وبدأت الضرب ، وعلا الصياح .

وهبط أهل الدار جميعا على صوت الصياح ، وحاولوا تخليص الرجل من براثن المرأة عبثا فقد أقسمت ألا تتركه إلا إذا أعاد المشابك .

وبدأت المحاولات لإقناع « أبو نجية »بأن يعيد المشابك بالتى هى أحسن ، ولكنه جلس يبكى وأقسم أنه لم يرها .

واستمر الضرب .. واستمر الصياح .. حتى تمكن الأهالى فى النهاية من أن يخلصوا الرجل من يدها بعد أن كلت من فرط الضرب .

واقتنع الأهل أن أبو نجية مظلوم وأن المرأة قد افترت عليه بالضرب .. وحاولوا أن يقنوعها بأنه لم يسرق المشابك وأنه ليس فى حاجة إلى السرقة ما دام ورق العنب موجودا ومع ذلك فقد أصرت على أنه لم يسرقها سواه ، واستمرت

تضربه كل صباح حتى يعترف .

وهكذا أصبح ضمن أعمال أم نجية ، التى تواظب على أدائها يوميا .. علقة لأبو نجية « على الريق » تصبحه بها ، بغية استعادة المشابك .

وعندما أفكر الآن أجزم بأن الزوجين كانا على نوع من العته ، فالمرأة قد استمرأت عملية الضرب الصباحى ، والرجل قد تعوده حتى بات يستسيغه ولا يعترض عليه ، ولا يشكو منه كما يتعود المؤمن المصاب قضاء الله فيه .

إن المسألة قطعا لم تعد على مر الأيام مسألة مشابك مسروقة ، بل أضحت عادة ، وإن ظلت محتفظة من ناحية الشكل بمسبباتها الأصلية ، فلا يكاد يرتفع صياح « أبو نجية » فى الصباح ويتساءل أحدنا عن السبب ، حتى يجيبه الآخر ببساطة :

ــ المشابك .

ولقد ضقنا نحن ذرعا بالضرب والصياح حتى قال جدى ذات يوم للمرأة زاجرا ، وكان أقدر أهل الدار عليها :

ــ أنت يا ولية مش تبطلى بقى الزيطة اللى بتعمليها على الصبح .. كل يوم لازم تقلقى منامنا وتصحينا على صوت الصريخ والصوات .

ونظرت المرأة إلى الجد ، ولوت رقبتها مشيحة برأسها إلى الناحية الأخرى كأنها تتقزز من منظره وحديثه .. ولم تجب عليه بكلمة . ولكنها « زامت » كالحيوانات .. علامة على أن الحديث لا يعجبها .

وعاد جدى ينهرها بقوله :

ــ انت يا ولية .. أنت سامعة الكلام الى أنا بقوله ده والا لأ .

ــ بتقول إيه ؟.

ــ بقول لك كفاية ضرب بقى فى الراجل الغلبان المسكين .

ــ مسكين ؟.. يا خى جه سكينة تخرط مصارينه ؟.. والمشابك اللى سارقها علشان السم الهارى اللى بيحرق جوفه برضه مسكين ؟

ــــ ما قال لك انه ماسرقهاش .

ــــ ضلالى ابن ضلالى .. وكداب ابن كداب .

ــــ ليه بس يام نجية .. وهو يسرقهم ليه .. وقدامه ورق العنب مالى التكعيبة .. الراجل يا دوبك ما بيعوزش غير القرش الأبيض ثمن قرعة البوظة .. واحنا فى الصيف والتكعيبة مكفياه وأشيته رضا ، فلزومه إيه بقى يسرق المشابك .. يعنى حايعمل إيه بتمنها ؟

ــــ مين يعرف ؟ دا أصله غويط .. ما حدش يعرف له تيه .. يمكن راح يتجوز ؟.

ــــ بتمن المشابك ؟!!.

ــــ يعنى هوا حايتجوز إيه ؟ مش شحاته زيه . هو دا يستبعد عليه حاجة .. أنا مش فى الشتا اللى فات قافشاه رابط وابور الجاز فى دكة اللباس وخارج بيه .

ــــ على العموم .. إذا كان على المشابك .. أنا جبت لك مشابك بدالهم .. ومستعد أجيب لك كل يوم دستة مشابك .

ــــ أبدا .. لازم يرجع هوّا المشابك اللى خدها .. حاتنى وراه بالنشابة لغاية ما ادوبها على جتته .. أو يرجع المشابك بالتى هى أحسن .. يا نا يا هوَّا .

ويئس جدى من ردعها عن غيها .. واستمر الضرب واستمر الصراخ .. فلم يجد بدا من أن يحاول أن ينهى المسألة بواسطة الطرف الآخر المعتدى عليه .

وأذكر أنه هبط ذات مرة إلى المندرة .. وهبطت فى أعقابه .. وكانت ساعة ظهر وأم نجية منهمكة فى الطبخ فى أعلى الدار . وأبو نجية راقد فى ركن مظلم على قفص من الجريد وبالقرب من قدميه وعاء أشبه بقلة صغيرة من الفخار وضع فى أحد جوانبه قطعة من الغاب .

وأيقظه جدى فانتفض فزعا وبدأ الصراخ .

وصاح به جدى ضاحكا مهدئا :

ــــ بس .. بس .. بتصرخ ليه ؟

وقال الرجل وهو يدعك أجفانه بيده وينتفض مرتجفا :

ــ هي لسة مبتدئتش الضرب ؟.

ــ لأ لسة .. ماتخافش .

ــ أنا مش خايف .. خليها تضرب وتخلص .

ــ طيب يا أخى ما توفر على نفسك الضرب ، وترجع لها المشابك .

ــ ما خدتش حاجة .

ــ على العموم ، خدت والا ماخدتش أنا حاجيبلك دستة مشابك ترجعها لها وتستريح .

ــ مش مرجع لها حاجة أبدا .. وانا وهى والزمن طويل .. أما اشوف مين اللى حايغلب .

ــ هى بتضربك مش عشان المشابك .. هى خايفة لتكون بعتهم وحاتتجوز بتمنهم .

ــ أنا حااتجوز ؟ ليه اتجننت ؟ بعد اللى شفته من ام قويق .. اتجوز تانى !! ياأخى دول بيقولوا .. لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين .. وانا مش مؤمن .. الا فى الحكاية دى بالذات .

ــ يعنى أنت مبسوط من العلقة اللى بتاخدها كل يوم ؟

ــ لا مبسوط ولا زعلان .. أهى زى كل حاجة بنعملها فى عيشتنا .. أنا مادام عندى القرعة والجوزة .. أهى كل حاجة محتملة .

ولما لم يجد الجد فائدة من الحديث معه ، فوض أمره إلى الله .. ولم يجد هناك حلا .. خيرا من أن نعود نحن أنفسنا على علقة المشابك الصباحى ، كما كنا نسميها .

وظل الصياح يعلو من المندرة كل صباح .. حتى كان ذات يوم انقطع فيه الصياح ، فاعتقد أهل الدار أن الرجل لا بد قد اعترف ، وأعاد المشابك .. وانتظروا أن تصعد أم نجية حاملة المشابك .. ولكن أم نجية لم تصعد .. لسبب

بسيط .. هو أنها قد ماتت .

وفوجئ الأهل بموتها وتملكتهم الدهشة والحزن .

ولم يشكوا فى أنها راحت نتيجة ظلمها للرجل المسكين ، الذى اتهمته كذبا بسرقة المشابك وظلت تضربه كل يوم .

وخرج أبو نجية متسللا كعادته إلى التكعيبة فجمع منها ما تيسر من الورق ، وانطلق من الدار .

وبعد برهة رئى وهو يعود مترنحا كعادته ، ثم اختفى فى الحديقة ليظهر بعد لحظات .. وقد حمل كيس المشابك المسروق .

وبهت الأهل وسألوه فى دهشة :

ـــ ولما المشابك كانت معاك المدة دى كلها .. مادتهاش ليه لام نجية ووفرت على نفسك الضرب ؟

ـــ أصلها كانت ندر للشيخ ريحان .

ـــ عشان إيه ؟

ـــ عشان ربنا ياخد أجلها ويريحنى .

ثم رفع يديه إلى السماء وتمتم قائلا « الحمد لله » .

وتحرك أبو نجية مترنحا إلى الضريح ، وفى صندوق النذور ألقى بكيس المشابك .. وقرأ الفاتحة على روح « أم قويق » وعندما التقى بجدى بعد ذلك سأله ضاحكا :

ـــ شفت بقى يا عم !! مين فينا اللى غلب ؟!

الـــواد عطوه

عطوه ؟! ولكن أين عطوه ؟
يا للحمق !! ويا للغباء !!
إن عطوة الآن .. لابد أن يكون غارقا فى أية « غرزة »أو على أحسن الفروض يغط فى نومه فى بيت خالته « أم نفيسة »بائعة الفول النابت فى سيدى زينهم فهو شديد التقرب منها فى هذه الأيام من أجل ابـــنتها « نفيسة » .

استيقظ « بيومى أفندى »على ضجيج الحمالين والركاب عندما وصل القطار فى النهاية إلى محطة مصر .

ومضت فترة وجيزة نفض عن نفسه خلالها غبار القطار ودعك وجهه وعينيه وتثاءب بضع مرات .. ثم خلع المعطف الأبيض الشبيه بمعطف الحلاقين .. والذى يلازمه فى كل سفره ليقى بذلته شر السفر .. وليصد عنها عوادى الغبار والهباب .. ويجعلها فى غير حاجة إلى كى أو تنظيف .

وبدأ الركاب ينزلون من الديوان ، ووقف هو على أطراف أصابعه ومد يده فجذب الحقيبة المنتفخة الموضوعة على الرف ثم طوى المعطف بعناية وفتح الحقيبة فوضعه فوق المنشفة والجلباب والملفات المليئة بالأوراق ، ثم حمل الحقيبة ، وهبط من القطار مندفعا بين أفواج الركاب المتحركين على الرصيف .

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة مساء وميدان المحطة قد خفت فيه الحركة وبدت فيه بضعة تاكسيات متناثرة تصايح أصحابها بين آونة وأخرى :

« تاكسى يا بيه ؟ » .

وذابت جماهير الركاب فى الميدان وتشعبزا فى الطرقات والمركبات وعربات الترام . واتخذ بيومى أفندى طريقه إلى الأتوبيس الأزرق المتجه إلى الزيتون ، واستحث الخطى حتى يحجز لنفسه مقعدا قبل أن تشغل العربة بالركاب .

واستقر به المقام على المقعد ، ودس الحقيبة فى أسفله ، وأسدل زجاج النافذة حتى يتقى شر ريح صرصر كان يحس بها تنفذ إلى عظامه .

اطمأن بيومى فى مقعده ، وأعد النقود فى يده انتظارا للكمسارى ، وأحس بالدفء والراحة .. فعاد النوم يهاجمه بلا هوادة .

لم يكن الرجل قد تعود السهر إلى تلك الساعة المتأخرة ولا سيما فى ليالى الشتاء .. لقد كان الليل يوشك أن يتصف وهو يحس بجسد منهك وذهن مكدود بعد أن أمضى اليوم كله فى عمل مستمر ، وكان المفروض أن يكون الآن راقدا فى الفراش ينعم بالدفء والراحة .. ولكن ما حيلته وقد خذله حسين ابن عمه الذى كان ينوى أن يقضى الليلة عنده فى طنطا وسافر فجأة إلى دمنهور .

لقد أحس بخيبة شديدة عندما طرق الباب دون أن يجيبه أحد ، وعندما أنبأه البواب أن حسين أفندى رحل إلى دمنهور وأنه لن يعود الليلة .

كانت الساعة تربو على السابعة .. ولم يكن أمامه سوى أحد أمرين : إما أن ينزل فى أحد الفنادق وإما أن يعود إلى القاهرة . ولم يطل به التفكير حتى استقر رأيه على العودة إذ لم يجد هناك مبررا لأن يغرم أجر الفندق بعد أن انتهى من قضاء حاجته .. ولم يعد به من حاجة إلى البقاء .

أجل .. لقد حصل على معظم ما يبغى الحصول عليه من أوراق لازمة للقضية ، ولم يبق إلا بضعة أوراق تافهة يمكن المطالبة بها بالبريد .. فهم ليسوا فى حاجة ملحة إليها فى الوقت الحاضر .

وأحس بيومى أفندى وهو يتنهد فى مقعده فى الأتوبيس بشىء من راحة الضمير .. فقد استطاع أن ينهى عمله فى يوم واحد .. ولا شك أن عبد الرحيم بك

سيقدر مجهوده خير تقدير ، وسيشكره على سرعة الحصول على الأوراق المطلوبة .. لأنه سيهيئ له وقتا كافيا لدراسة تلك القضية المزعجة المعقدة .

وهنا شرد ذهنه فى القضية ، وأخذ يستعرض ما يعرفه من تفاصيلها ، وأحس بقشعريرة تسرى فى بدنه .

لقد كانت جناية مروعة .. قتل فيها المجنى عليه بسكين حزت رقبته من الأذن إلى الأذن ، وتركت الرأس يتدلى من الجسد معلقا على بضعة عروق .

لقد شاهد بنفسه منظر الجثة ، وقد تجمدت الدماء من حولها ، وبدا المجنى عليه أشبه بخروف الضحية ، وقد وجد بجواره السكين التى ذبح بها .. سكين مطبخ مشحوذة السلاح ، مدببة الأطراف .

أى وحشية هذه التى دفعت القاتل إلى أن يرتكب تلك الفعلة المنكرة ؟. ولِم ؟! وما هى الدوافع ؟

إن الرجل لم يكن شديد الثراء حتى يطمع قاتله فيه .. ولا كان بالرجل المشاكس حتى يقال إنه قتل لثأر قديم .

إن المسألة تخفى وراءها كثيرا من الأحاجى والألغاز ، أو من يدرى ؟

ربما كان الرجل قد ذهب ضحية ظن خاطئ وقد يكون القاتل لصا توهم بالرجل ثراء فسطا على داره .. فلما قاومه الرجل ذبحه ذبح النعاج .

على أية حال .. لقد حامت الشبهات حول البواب ، وألقى القبض عليه فعلا ، ولكن الرجل يبدو بريئا ويقسم أنه مظلوم .

وأحس بيومى بالأتوبيس قد توقف .. وفتح عينيه وحملق فيما حوله فاستطاع أن يميز أنه قد وصل إلى العباسية وأبصر بالساعة التى تتوسط الميدان .. فإذا بها تشير إلى الثانية عشرة إلا ربعا .. بعد ربع ساعة سيصل إلى الدار وربع ساعة أخرى سيكون راقدا تحت اللحاف فى فراشه الدافئ ، وهو يستطيع أن يتأخر فى الاستيقاظ كما يشاء .. فيعوض سهر الليلة .

وأحس بيومى بانقباض فى معدته وحركة فى أمعائه ، وتلك أولى دلائل

الجوع عنده .

إنه لا شك جوعان .. بل جوعان جدا .. فهو لم يتناول لقمة واحدة منذ أن تناول غداءه فى أحد مطاعم طنطا فى الساعة الواحدة ظهرا .

عشر ساعات لم يتناول فيها لقمة واحدة ؟. هذا كثير !

لا بأس عليه .. إنه سيعوض معدته خيرا بعد طول الصبر والانتظار .. إن خادمه عطوة يستطيع أن يرضيها بطبق من البيض المقلى ، وشىء من الجبن والزيتون .

أجل .. أجل .. إنه يذكر أن فى التملية ما لا يقل عن عشر بيضات ، ونصف أقة جبن ، ونصف أقة زيتون ، وهو لا يعتقد أن الخنزير عطوة قد سطا عليها .. أو على الأقل لا بد أن يكون قد ترك له بعضها — خمس بيضات مثلا ، وبعض الجبن والزيتون — ولكن ترى هل سيجد هناك خبزا ؟ لقد سبق أن نبه عليه مئات المرات ألا يترك البيت بلا خبز ، وأنه لا بد أن يكون هناك رغيفان للطوارئ .

وهل يمكن أن يكون هناك طوارئ أكثر من هذا ؟

حمدا لله ، إن الرغيف الأبيض ينفع فى الليلة السوداء هذا إذا كان عطوة الحمار قد تذكر الأمر وقام بتنفيذه .

عطوة !! ولكن أين عطوة ؟!

وفجأة ضرب بيومى أفندى جبينه بيده .. كمن تذكر أمرا خطيرا .

يا للحمق .. ويا للغباء .. إنه لن يجد عطوة فى البيت . لعنة الله عليه من غبى ضعيف الذاكرة .. أو قد نسى أنه قد أعطى لعطوة إجازة اعتقادا منه أنه سيبيت ليلته فى طنطا .

إن عطوة الآن لا بد أن يكون غارقا فى أية « غرزة » أو على أحسن الفروض يغط فى نومه فى بيت خالته أم نفيسة بائعة الفول النابت فى سيدى زينهم .. فهو شديد التقرب منها فى هذه الأيام من أجل ابنتها « نفيسة » .

كيف يستطيع العثور عليه الآن .. أو كان لا بد له أن يحب فى سيدى زينهم ؟

هذا من فرط غبائه ، ومن غضب الله عليه .

إذا كان يعمل فى الزيتون فلم لا يحب فى الزيتون ، أو على الأقل فى كوبرى القبة .. أو فى منشية البكرى .

وفجأة مد بيومى أفندى يده وتحسس مفتاح الشقة فى جيبه حتى يتأكد من وجوده ، وإلا كان المصاب أخطر شأنا ، واضطر إلى كسر الباب ، أو قضاء ليلته فى هذا البرد بلا مأوى .

وأطلق من صدره تنهيدة ارتياح عندما اطمأن إلى المفتاح ، وحمد الله الذى يلهمه دائما فعل الصواب .

ماذا يمكن أن يحدث لو لم يكن يحمل فى جيبه مفتاح الشقة ؟

وهنا توقف الأوتوبيس .. وحملق بيومى خلال الزجاج فتبين أنه قد وصل إلى المحطة التى يجب عليه النزول فيها .. فوثب من مكانه ، ودفع جاره بمنكبه حتى يخلى له الطريق قائلا فى عجلة : « عن إذنك » ، ثم مد يده فجذب الحقيبة من أسفل المقعد ، وهرول هابطا من الأوتوبيس وهو يصيح بالسائق محذرا بين آونة وأخرى « حاسب .. حاسب من فضلك » .

وأخيرا .. أنال بيومى أفندى قدميه ظهر الأرض .. وأحس بالاستقرار عليها .. وانتظر حتى تحرك الأوتوبيس ثم عبر شارع سليم إلى الرصيف الآخر .. ودلف فى أحد الشوارع المتفرعة التى تؤدى إلى السكة الحديد حتى وصل إلى مزلقان الزيتون ثم عبره إلى الناحية الأخرى .

وكان أمامه ما يقرب من خمس دقائق ، فقد كان البيت كائنا فى طرف الضاحية .. لا يفصله عن المزارع الممتدة شىء .

لقد كان البيت مثاليا من الناحية الصحية والناحية المالية فهو خلوى إلى أبعد حدود الخلاء . رخيص إلى أبعد حدود الرخص .. ولكنه مع ذلك لا يعدم السيئات .. فهذا الإفراط فى الخلاء يسبب لبيومى أفندى كثيرا من المخاوف والمتاعب .. وهو لا يجسر إلا فى القليل النادر ، وتحت الظروف الطارئة أن يعود

إليه فى ساعة متأخرة من الليل . لأنه يخشى عواء الذئاب والظلمة والوحشة وفرط السكون ويتوهم فى حلكة الليل أشباحا ولصوصا تجوس فى المزارع وفى الطرق المعتمة .. ولا يجسر أيضا مهما اشتد الحر فى ليالى الصيف أن ينام والنوافذ مفتوحة .. فهو يخاف أن يهبط إليه اللصوص .

وأخذ بيومى يقترب من الدار وقد شملته ظلمة حالكة وهبت عليه من المزارع ريح رطبة باردة أصابته بقشعريرة فى جسده ، وأسرع الخطى تجاه البيت ، وقد أصابه وهم بأن هناك من يطارده .

وأخيرا وصل إلى البيت ، ودلف من الباب الخارجى ووقف برهة فى « بير السلم »وقد تكاثفت فيه الظلمة حتى لم يعد يرى أبعد من أنفه .

وبدأ يتحسس طريقه صاعدا الدرج بالتوجيه وبحكم العادة ومر بالطابق الأسفل فلم يلمح من بابه بصيص ضوء .

ويحه .. إن البيت قد خلا الليلة إلا منه .. فقد تذكر فى تلك اللحظة أن جاره الذى يقطن فى الطابق الأسفل مسافر هو الآخر فى مأمورية منذ بضعة أيام .. وسرى الخوف فى نفسه .. فقد كانت المرة الأولى التى يبيت فيها وحيدا فى البيت .. لقد كان عطوة ــ لعنة الله عليه ــ يؤنس وحشته ، ويبعث فى نفسه كثيرا من الطمأنينة .

وانتهى من صعود الدرج .. وأخرج المفتاح من جيبه ووقف أمام باب شقته ليتحسس فتحة المفتاح ، ودفعه فيها وأداره دورتين .. ثم دلف إلى الداخل .. ومد يده فى الظلمة حتى استقرت على مفتاح الكهرباء ثم ضغط عليه .

ولكن الكهرباء لم تضىء .. لقد كان بها خلل .

ياللنحس ! ويالليلة السوداء ! حتى النور !.

ودفع بيومى بيده فى جيبه فأخرج علبة الثقاب .. إنه يذكر أن فى أحد أدراج البوفيه شمعة صغيرة يستطيع أن يشعلها ويستعين بها على تبديد تلك الظلمة المروعة ، وأشعل الثقاب فأحدث حوله دائرة من الضوء كشفت عن الأشياء

المحيطة .. وكان أول ما وقع عليه بصر بيومى أفندى هو سكين كبيرة .. مشحوذة الحد .. مدببة الطرف .. وتذكر الرجل القتيل .. وتذكر عنقه المعلق على بضعة عروق .. ودماءه المتجمدة حوله .. وندت عنه صرخة مكتومة .. وأحس كأنه يوشك أن يخر مغشيا عليه .

ياللجبان الرعديد !! ماذا أصابه ! هذه سكين المطبخ قد نسيها عطوة على المنضدة ! ماذا روعه منها !؟

الكلب عطوة !! والله ليرينه عاقبة إهماله عندما يعود ، لقد أمره بألا يترك الملاعق والسكاكين مبعثرة على المنضدة بل يضعها فى دولاب « المطبقية » ومع ذلك لا فائدة من نصحه فهو لا يلتفت إلا « للمسخرة » .

وسار بيومى متمهلا على ضوء الثقاب ، ولكنه توقف فى مكانه مرة أخرى .. لقد وجد الدولاب القديم الموضوع فى ركن الصالة مفتوحا .. وبدا له كأن هناك شبحا يكمن داخل الدولاب .

وأحس بخوف شديد .. ما الذى فتح الدولاب ؟ من يكون هذا الذى يتحفز داخله ؟! لص ولا شك !

ولكنه تذكر أن الدولاب دائما يفتح من تلقاء نفسه لأنه ليس به قفل ، ولأن ضلفته يميل ثقلها إلى الخارج فهى لا تستقر إلا مفتوحة .. أما الشبح الأسود فليس سوى صرة الملابس القديمة البالية يحفظها عطوة لكى يمزقها ويصنع منها سجادة .

وتمالك الرجل نفسه حتى وصل إلى البوفيه .. وفتح الدرج وهو يرتجف وقد تلاحقت أنفاسه حتى لم يعد يسمع فى السكون الشامل سواها وانطفأ الثقاب ، وسادت الظلمة برهة ولكن سرعان ما بددها ضوء الشمعة .

ووقف بيومى ممسكا بالشمعة ، وأحس بأمعائه تنقبض وتتلوى .. إنه الجوع !

لا .. لا .. ليس هذا وقت أكل .. إنه لا يجسر على الذهاب إلى المطبخ ..

خير له أن يسرع فينكمش فى فراشه وإلا مات رعبا .

ولمح الدولاب القديم على ضوء الشمعة .. فسرت فى جسده القشعريرة مرة أخرى ، وأسرع فدفع الضلفة بيده وأغلقها جيدا ، ثم سحب مقعدا فأسنده إلى جوارها حتى لا تفتح مرة أخرى فهو لا يطيق النظر إلى الشبح الأسود الذى تظهره صرة الملابس .

كل هذا من عطوة ؟! أية سجادة تلك التى يريد الغبى صنعها من الملابس القديمة ؟ والله ليقذفنها من النافذة بمجرد شروق الشمس .

واطمأن بيومى إلى غلق الدولاب المخيف ثم اتجه إلى غرفة نومه ممسكا بالشمعة فى يد وبالحقيبة فى اليد الأخرى .

ووضع الشمعة على منضدة صغيرة فى حجرة النوم ، ثم أسرع يخلع ملابسه بسرعة البرق ولم تمض بضع ثوان حتى كان قد أطفأ الشمعة وانطوى فى فراشه مخفيا رأسه تحت الوسادة وقد أخذت أسنانه تصطك وأطرافه ترتعش .

وبدأ يطمئن نفسه بعد أن استقر فى الفراش قائلا لنفسه إنه ليس هناك ما يستدعى منه كل ذلك الخوف والرعب ، وأن الدار هى هى التى يبيت فيها كل ليلة .

وبدأت أعصابه تهدأ ، وجفونه تتثاقل عندما سمع فجأة صوتا جعله يرهف السمع ، وجعل أعصابه تتوتر من جديد .

أيمكن أن يكون هذا صحيحا ؟

لقد سمع صوت الدولاب يفتح ، ولم تكن الضلفة فى هذه المرة تفتح من تلقاء نفسها بل بفعل فاعل .. لأنه سمع صوت المقعد الذى يسندها وهو يدفع عنها .

إذن لم تكن هى الصرة بل كان شبحا رابضا .

لا .. لا .. إن ما سمعه ليس سوى من فعل الأوهام .

على أية حال خير له أن يغلق باب الحجرة عليه بالمفتاح زيادة فى الحرص والاطمئنان .

ونهض الرجل متسللا فى الظلمة المعتمة على أطراف أصابعه وأغلق الباب وأدار المفتاح فيه دورتين ، وهم بالعودة إلى الفراش .. عندما أحس بوقع خطوات تقترب من خارج الباب .. ثم أبصر بأكرة الباب تتحرك ببطء .

وأحس كأنه يوشك أن يتهاوى على الأرض .

هذه المرة لم يعد هناك شك لأن الأكرة تتحرك أمام ناظره والباب يهتز .

ووضح له الأمر فى سرعة البرق .. وأدرك لم كانت السكين موضوعة على المنضدة !

وتذكر القتيل .. والسكين التى حزت عنقه .

أيمكن أن تتكرر المأساة .. وتختتم حياته بمثل هذه الخاتمة التعسة ؟

لا .. لا .. يجب أن يتمالك وينفض عنه ذلك الرعب ، يجب أن ينجو بنفسه .

ونظر حوله كفأر حبس .. وتخيل اللص وهو يدفع الباب وقد أمسك السكين فى يده وهجم عليه فحز رقبته من الأذن إلى الأذن .

ولم يكن أمامه وسيلة للنجاة سوى النافذة .

وأحس بالباب يهتز .. وخشى لو طال الانتظار أن يتهاوى الباب أمام قوة الرجل ، فأسرع فى لمح البصر وفتح النافذة فهبت منها ريح صرصر عاتية .. ولكنه لم يشعر بأية برودة لأنه فقد فى ذلك الوقت كل إحساس إلا بالخوف المميت .

ووقف بيومى على حرف النافذة كريشة فى مهب الريح وتذكر أن هناك كورنيشا يحلى واجهة الدار ويمر من أعلا النوافذ وأسفلها وتبين أن هذا الكورنيش يمكن أن يهيىء له وسيلة للنجاة لو استطاع أن يسير على الحافة السفلى ممسكا بيده الحافة العليا .

ولم يستغرق منه التفكير فى ذلك سوى ثوان معدودات وبدأ ينفذ مشروع النجاة .. وأخذ يتحرك بخطوات جانبية بطيئة على حافة الكورنيش السفلى ..

وقد تعلق بيديه فى الكورنيش العلوى .. وأخذت الريح الباردة تضرب ظهره وبدا كأنما هو عنكبوت مغلق فى حائط الدار .

على أية حال .. إن هذا خير من أن ينتظر حتى يجز الرجل رقبته بالسكين .

وفجأة أحس أن الكورنيش قد انتهى ، وأنه لم يعد هناك ما يستطيع أن يستند إليه فيما لو حاول السير ، وأيقن أنه قد وصل إلى النافذة المجاورة لنافذته ، وأن كل ما ساره لا يعدو أن يكون بضع خطوات .. ثم تذكر أن النافذة لا بد أن تكون النافذة المطلة على بئر السلم .. ووجد أن خير طريقة للنجاة هى أن يهبط من النافذة إلى الداخل ، ثم يتخذ طريقه على السلم إلى خارج الدار .

وهبط بيومى فى سكون من النافذة فاستقر على بسطة السلم .. وهم بالاندفاع إلى أسفل عندما وجد باب شقته يفتح من الداخل .. وأبصر بضوء خافت كضوء الثقاب يشع من خلال الباب ، ثم وقع بصره على السكين .

وتسمر بيومى فى مكانه ، والتصق بالحائط .

ماذا يفعل ؟ أيعود إلى النافذة ؟ أم يندفع إلى أسفل ؟

إن الرجل سيتبعه فى كلتا الحالتين وسيحاول اللحاق به ، وهو لا شك أخف منه حركة ، ويستطيع أن يمسك به .

ومضت فترة وهو لا يقوى على الحراك ، وأحس أن أعصابه توشك أن تخونه .. وأنه على وشك أن يخر مغشيا عليه .

وبدا اللص من الباب وقد شهر بيده سكين المطبخ .. وباليد الأخرى أمسك عود ثقاب .

ونظر إليه بيومى أفندى وصرخ بكل قواه :

ــ عطوة !!

أجل لقد كان عطوة بعينه ودمه ولحمه .. لقد طردته أم نفيسة ، فاضطر إلى أن يقضى إجازته فى الدار ، واستيقظ على صوت حركة فى الشقة وأحس بإنسان فى حجرة بيومى أفندى يحاول أن يغلق الباب من الداخل ، فتأكد أنه لص وأنه

يوشك أن يفر من النافذة ، فهبط ليتلقاه فى الحديقة .

ونظر عطوة فى ذهول إلى بيومى أفندى وهو يقف على البسطة مرتديا الجلباب وصاح به :

— بيومى أفندى ؟!

وأجابه بيومى أفندى فى ذلة ومسكنة :

— الحقنى يا عطوه .. دمى نشف .

ولأول مرة .. سمح بيومى أفندى لنفسه أن يخر مغشيا عليه .

عبد الجادر عبد الدليل

وبدأت الفتاة تغدق على خدماتها وعطفها ، وتنظف الحجرة وترتبها وتتسكع بها ما شاء لها التسكع .

وأحسست من أفعالها هذه ، ومن تصرفاتها وتسكعها أنى يجب أن أفعل شيئا ، وألا أمعن فى جمودى وحيائى وأدبى فأكون عند قولها « حمار من الشرق » .

هو صديق صبا وزميل طفولة .. وقد كان ــ أعنى هذا الحمار من الشرق ــ حمارا منذ عرفته ... ولكنه كان وقتذاك حمارا من « قبلى » .. أى حمار محلى ، ولم يكن قد اتخذ بعد هذه الصفة العامة العالمية .

اسمه محمد .. بكسر الحاء والميم .. ولقبه عبد الجادر عبد الدليل .. أى عبد القادر عبد الجليل .. (بقلب القاف الأولى جيما والجيم الثانية دالا .. للثقل والتعذر .. أعنى ثقلها على لسانه وتعذر نطقها عليه) وشهرته ، محمد الفوتبول ، وبلده فاو الريسية مركز نجع حمادى .

أما عن شهرته بالفوتبول .. فمرجعها إلى أنه كان التلميذ الوحيد فى سنة رابعة ثان بمدرسة محمد على الابتدائية الذى كان يملك جزمة فوتبول .

ولم يكن محمد الفوتبول .. بلاعب ماهر للفوتبول .. حتى تملأ شهرته بهذا الاسم الآفاق .. بل إنه كان يرتدى هذا الحذاء فى كل وقت .. عدا أوقات لعب الفوتبول .

أما عن ارتدائه إياه فى كل وقت .. فقد كان أمرا طبيعيا ، لأنه لم يكن يملك غيره .

ولست أشك فى أن ستة الأزواج من « الاستدز » .. التى يرتفع عليها نعل هذا الحذاء كانت سبب ابتلاء صاحبنا به فقد كانت هى التى أغرت أباه الشيخ عبد القادر بشرائه له .

ولكن العجيب .. هو خلعه ساعة اللعب .. أى فى عز المعمعة .

ذلك كان أمرا عجيبا ، ولكن — كما يقول المثل — إذا عرف السبب بطل العجب ، ولم يكن للأمر العجب سبب واحد بل كان هناك مائة سبب .

السبب الأول : هو أن أباه قد أوصاه بالحذاء خيرا .

والسبب الثانى : هو أن محمدا نفسه .. كان يخشى على نفسه من الكعبلة والزحلقة ، إذا هو غامر باللعب به .

والسبب الثالث : هو أنه كان يعتقد — وهو على حق — أن قدمه كانت أشد صلابة من الحذاء .

والسبب الرابع : وهو أهمها جميعا .. هو أن الحذاء لا يكون موجودا معه خلال اللعب .. بل يكون مؤجرا لأحد اللاعبين .

وقد يبدو إيجار صاحبنا لحذائه أمرا غريبا ، وقد يظنه القراء من باب المبالغة والتشنيع ، ولكنى أؤكد لهم أنه كان وقتذاك أمرا طبيعيا جدا .

كان حذاء محمد من نوع الكنج الأبيض ، حذاء فاخرا معتبرا ، وكان يجعل صاحبه محسودا منا .. فقد كان الحذاء الفوتبول أقصى أمانينا وقتذاك .. فقد كنا من غواة اللعبة ولكننا لم نكن نجيدها إلى الحد الذى يحشرنا فى زمرة تيم المدرسة المتمتع بلبس أحذية الكرة ، والذى كنا ننظر إليهم نظرة المحسودين أنصاف الآلهة .

وكان محمد هو الوحيد من بين العبيد الذى يمتلك الحذاء السحرى .. حقيقة أنه لم يكن يمتلك غيره ، ولكن ذلك لم يكن يحط من قيمته لدينا .. بل كنا نتمنى كلنا أن نكون مثله ، وأن يستبدل آباؤنا تلك الأحذية الرقيقة بأحذية فوتبول ضخمة ، وما حاجتنا إلى الأحذية الرقيقة ، وقد كانت لا تستغل إلا فى لعب

الكرة وشوط الزلط والطوب .

ولقد بدأت عملية الإيجار بأن سأل أحدنا محمدالمحسود أن يعيره الحذاء ذات مرة ، فرفض وأنبأه بأن أباه حذره من أن يخدشه أو يتلفه ، وهكذا قطع علينا محمد كل أمل فى استعارة الحذاء ، وبقينا ننظر إليه فى حسرة ولهفة حتى احتاج محمد ذات مرة إلى اقتراض قرش من أحدنا ، وهنا بدت الفرصة سانحة ، وصمم صاحبنا على استغلالها فقال :

— اسمع يا محمد .. أنا مستعد أديك القرش ، ومش حاخده منك .. بس بشرط .

— إيه ؟

— تسلفنى جزمتك العب بيها شوية .

— لا يا عم حد الله بينى وبينك .

— يا اخى متبقاش حمار .

— جلت لج .. يفتح الله .

— يعنى مش احسن ما انت قالعها وراكنها وبتلعب حافى .. أنا مستعد كمان اديك جزمتى تلعب بيها .. مبسوط يا عم ؟

وأخذ محمد يشاور عقله ، وبعد برهة قبل العرض .

وهكذا بدأ الإيجار ، وراج سوق الجزمة رواجا شديدا إلى الحد الذى أصبحنا معه مضطرين إلى حجزها قبل موعد الإيجار ببضعة أيام .. من فرط إقبال اللاعبين عليها .

وكانت نصيحة محمد التقليدية التى يسوقها إلينا قبل تسليم الحذاء :

— حاسب عليها ... ما تشوطش جوى .. اوعى تجرى بيها .

وهكذا كان محمد يفترض دائما فى مستأجر الحذاء .. استئجاره لمجرد التنزه وهذا هو ما كان يهون عليه الأمر .

ولقد استنفد محمد وقتذاك بحذائه معظم مصروفاتنا حتى اضطررنا فى نهاية

الأمر إلى التشارك فى استئجاره .. فكنا نستأجره اثنين اثنين .. كل واحد يستعمل فردة .. على أن نتبادلها فى الهاف تيم .. فيتاح لكل منا فرصة لبس الفردة اليمين — وهى الأهم — فى نصف الوقت .

وهكذا كان محمد عبد الجادر عبد الدليل تلميذا .. وصاحب ملك .. يؤجره وقتما شاء ، وحيثما شاء .

تلك كانت أولى مزايا محمد ، وهى الحذاء الفوتبول .. أما الميزة الثانية ، فهى أنه كان .. حمارا ، إن صح أن هذه يمكن أن تسمى ميزة .

كان حمارا غشيما .. طيبا .. خفيف الدم ، ولقد ظل هكذا فى كل سنى دراسته ، وفى كل أطوار حياته ، وظللنا ننتقل سويا من سنة إلى سنة ومن طور إلى آخر وهو نفس الحمار .

ولقد عدا بنا الزمن ، حتى انتهت دراستنا .. فضربت بيننا الفرقة ، وبقيت فى عمل بالقاهرة ، وقذف به حظه السعيد إلى بعثة دراسية طويلة فى إنجلترا .

ووقفت أودعه وأوصيه بنفسه خيرا من بنات التاميز فإذا هو يضحك ضحكته العالية المجلجلة ويقول :

— ما تخافش (بكسر الفاء) .. دانا محمد ولد عبد الجادر من فاو جبلى !.

وافترقنا يومذاك ، وطالت به الغربة وامتدت الفرقة . حتى التقينا أخيرا بعد فراق خمس سنوات .

ووقفت أفحصه من أسفل إلى أعلى ومن أعلى إلى أسفل فوجدته هو هو .. لم يعد عليه الزمن ، ولا بدل به شيئا .

محمد ولد الشيخ عبد الجادر عبد الدليل ، من فاو الريسية مركز نجع حمادى .. نفس الحمار اللطيف خفيف الدم .

وإن كان الجو والمكان الذى التقينا به يجزم لى بأنه لم يعد حمارا غشيما .

كان لقاؤنا فى مكان ما .. فى ليلة حمراء ، ولم يخطر لى ببال أن صاحبنا محمد يمكن أن يرتاد مثل هذا « المكان ما » فقد كان دائما مخلوقا خاما .. خجولا ،

هيابا .

قصدت « المكان ما » وصاحب لى ، وكانت قد مضت علينا مدة لم نرتده ولم نقض سهرتنا به وطرقنا الباب فمضت برهة قبل أن يفتح لنا ، وأخيرا فتح الخادم لنا وسألنا التفضل .

وترددت برهة إذ لم نجد فى الدار أثرا لصوت أو حركة .. بل بدت خالية تماما ، وسألت الخادمة فى دهشة :

— أين .. الجماعة ؟

— تفضلا .. إنهم بالداخل .. مشغولين مع أحد الأصدقاء .

ودخلنا إلى حجرة الجلوس ، ففوجئنا بمنظر أذهلنا إذ وجدنا صاحبنا محمد عبد الجادر .. الغشيم ، التقى المصلى ، قد تربع على الأرض ومن حوله التفت الشلة بأكملها وقد انهمكوا جميعا فى الضحك والمزاح .

ولم أكد أراه حتى صحت به :

— محمد .. يخرب بيتك .. إيه اللى جابك هنا ؟! دانا فاكرك لسه فى انجلترا !

ونهض محمد وأخذنى بالحضن وهو يقهقه قهقهته العالية .

وعدت أقول له :

— إيه اللى جابك هنا .. دانا ماعنديش أى فكرة انك فى مصر .

— لا زم مابتجراش الاجتماعيات فى الأهرام .. اللى فيها أخبار الناس الأكابر .

— وانت بقيت من الأكابر ؟

— أمال .

— جيت ميتا .

— أديلى شهر .

— شهر وانت فى مصر وأنا ماعرفش ، وبعد كده أقابلك فين .. فى آخر حتة يخطر على بالى انى أشوفك فيها .

— ليه بجا ؟

— انت مش فاكر لما كنا نتحايل عليك تيجى معانا هنا . فكنت تطاطى من الكسوف وتقول « أستغفر الله العظيم » .

— كان زمان ودبر .. حد واخد منها حادة .

— والله زمان يا محمد يا ولد عبد الجادر ، وبتيجى هنا دائما ؟

وأجابنى بكلمته الشهيرة :

— كتير .. (بفتح الكاف) .

— يعنى بقيت صاحب بيت .

— وابوها .

— يعنى مالناش هنا عيش معاك .

— ما خلاص بجى راحت عليكم .

— والله خسروك بنات التاميز .. بعدما كنت خام ، بس فالح تقوللى ، ماتخافش .. دانا محمد ولد عبد الجادر من فاو جبلى .. فاكر .

— فاكر .. فاكر جوى .. ما هى دى اللى جابت لى الكافية .

— إزاى ؟

وبدأ محمد ولد عبد الجادر من فاو جبلى يقص على « إزاى » ويروى مغامراته مع بنات التاميز ، قال :

— وصلت مانشيستر بعد رحلة طويلة بالبحر وبالقطار قضيت معظمها راقدا فى الفراش أشبه بالقتيل ، وحدث عن اللخمة واللبخة التى أصابتنى ولا حرج .. لقد ظللت ما يقرب من شهر وأنا أشبه بالفأر الحائر فى مصيدة أو باليهودى التائه الضال .. حتى استقر بى المقام أخيرا بين عائلة إنجليزية مكونة من أرملة وابنتها .

وكانت السيدة فى مقتبل العمر لا تكاد تتجاوز الأربعين على قسط كبير من ملاحة غير حائلة بل ظاهرة واضحة فى تقاطيع وجهها وفى استواء جسدها ، أما الابنة فكانت فتاة لا تتجاوز العشرين بها شبه كبير من أمها مع فارق فى

النضارة والصبا .

وكانت العائلة خلوا من الرجال .. أى أننى كنت الرجل الوحيد المقيم بينهما ، وأقول لك الحق أننى كنت شديد التهيب مفرط الخجل فما تعودت — أنا الخام الغشيم الصعيدى المحافظ — أن أقيم وسط نساء غربيات ، ولذا فقد كنت أتسلل إلى البيت كالفأر .. لا يكاد واحد يشعر بوجودى .. أو بمجيئى وترحالى ، وما أذكر مرة أنى ، حاولت أن أرفع بصرى إلى إحداهما ... بل كانت تكاد تسبقنى إليهما كلمة « يا ساتر » التى تعودنا فى مصر أن نسبق بها مقدمنا على النساء .

كنت شديد الانطواء .. فقد كنت أجد فى انطوائى خير مهرب لى مما يمكن أن أقع فيه من زلل مقصود أو غير مقصود . وكنت أشبه فى الدار بعابر سبيل لا آوى إليها إلا فى بهمة الليل .. حيث أدق الجرس فى هيبة وخشية فإذا ما فتحت لى إحداهما أطرقت برأسى وتمتمت ببضع كلمات على سبيل الاعتذار .. ثم أتسلل إلى حجرتى بلا حس ولا حركة .

فإذا ما ضمتنى الغرفة أغلقت الباب شاعرا من وحدتى بشىء من الأمان ، وكانت الحجرة بسيطة لا تحتوى إلا على فراش ودولاب للملابس ومنضدة عليها مرآة ، ومقعدين قديمين ...

وكان أكثر ما أقاسيه فى حجرتى المنعزلة .. هو البرد والحنين إلى الوطن .. كان البرد قاسيا إلى حد لم تجد معه أغطية ولا بطاطين حتى اضطررت إلى رفع سجادة قديمة من الأرض ووضعها فوق الأغطية التى أتغطى بها فلما لم تجد نفعا لجأت إلى كل ما أملك من ملابس فنقلتها من الدولاب ورصصتها فوق الواحد بعد الآخر حتى انتهى بى الأمر إلى أنى لا أنام إلا وفوقى كوم هرمى من الملابس يكاد يصل إلى عنان السقف .

ولست أشك أنى كنت مستمرا فى النوم على هذه الطريقة طوال مدة البعثة ، ويعلم الله ماذا كان يمكن أن يصبح عليه جسدى بعد مر السنين عليه وهو تحت هذه الأثقال ، ولكن أغلب ظنى أنه كان سيطرق ويرق ويصبح جسدا رفيعا

منبسطا .

أقول إنى كنت سأستمر على هذا النوم حتى حدث ما كشف أمرى فجأة .. فقد تأخرت فى النوم ذات ليلة عقب سهرة مع أحد الأصدقاء فى يوم عطلة ، وبينما أنا ملقى فى فراشى تحت كوم الملابس وأنا أفتح عينى فى كسل وتراخ إذ سمعت طرقا على الباب ، وقبل أن أتمكن من النهوض وإخفاء معالم المنظر العجيب فتح الباب ورأيت الابنة واقفة به وقد استقر بصرها على كوم الأغطية والسجادة والملابس طبقات فوق طبقات .. ثم دارت ببصرها فى أنحاء الحجرة محاولة البحث عنى إذ لا شك أنه لم يخطر لها ببال أنى أرقد تحت هذا الكوم المرتفع .

ولم أحرك أنا ساكنا فقد خجلت من أن تكشف وجودى على هذا الحال وتمنيت أن تغلق الباب وتنصرف ، ولكن الشقية لم تذهب بل خطت إلى الأمام خطوة جعلتها فى داخل الحجرة وأخذت تعيد البحث فى مزيد من التأنى والدقة ، وأخيرا صاحت منادية :

— هاى .. مستر محمد .

وهنا لم يكن بدّ من الإجابة فصحت من أسفل الكوم :

— هالو .. مس مارى .

وتهللت الفتاة ، وعادت تنادينى بأعلى صوت :

— هالو .. أين أنت ؟

— أنا هنا .. فوق الفراش ، وتحت الأغطية .

وانحنت الفتاة ناظرة إلىّ فى ذهول صائحة :

— وماذا وضعك هنا ؟

— أنا .

— لماذا ؟

— لأنام .

— ومن الذى وضع هذا فوقك ؟

ـــ أنا أيضا .

ـــ لماذا ؟

ـــ لأقاوم البرد .

واندفعت الفتاة تقهقه .. ثم قالت أخيرا :

ـــ إذا كنت ستداوم على هذا .. فقد تموت يوما مختنقا ...

ـــ وإذا لم أداوم عليه .. فسأموت قطعا من البرد .

ـــ ولكن لماذا لا تستعمل المدفأة ؟

ـــ أية مدفأة ؟

ـــ هذه المدفأة الغازية الموجودة أسفل المنضدة .

ـــ عجبا !! أيوجد مدفأة أسفل المنضدة ؟

ـــ بالطبع .

ـــ لعنة الله عليّ .. إنى لم أكتشف وجودها ..

ولو اكتشفت وجودها لما عرفت كيف تستعمل .

ـــ ولماذا لم تسأل مستر محمد ؟

ـــ خشيت أن أزعجكم !

ـــ إن هذا لا يزعجنا .. إننا مفروض علينا أن نهيئ لك الراحة .

وكانت هذه المناقشة تدور بيننا بسرعة وأنا ما زلت فى مضجعى تحت هرم الملابس وأخيرا قالت الفتاة :

ـــ أتستطيع النهوض ؟

ـــ بالطبع ، ولكن أرجوك أن تبتعدى حتى لا تقع عليك الملابس .

وكان الأمر يحتاج إلى بعض الجهد فانكمشت ضاما ركبتى إلى صدرى ثم فردتهما بشدة فارتفع الكوم ثم مال على جانبه منهارا إلى الأرض .

وصاحت الفتاة معجبة :

ـــ برافو !

وأردفت وهى تتجه إلى الباب :

ــ سأذهب لكى أحضر لك فنجانا من الشاى وأعلمك استعمال المدفأة .

وبعد لحظات عادت الفتاة إلىّ بالشاى وجلست تعلمنى استعمال المدفأة التى لم يخطر لى على بال أنها موجودة .

وهكذا بدأ أول حديث لى مع الفتاة .. لقد اندفعت هى تعرض خدماتها ، ولكنى كنت ما زلت مغرقا فى أدبى وتحفظى .. أحدثها دون أن أجسر على النظر إليها بل أخفض بصرى ، كما تعودت أن أفعل دائما عندما أكون فى حضرة حريم غربيات ...

وكنت أفضل أن أستمر على شهامتى الصعيدية وألا أستغل رقة الفتاة ولطفها ، وأن أريها أنى رجل رزين وقور .

لقد زادت ساعات وجودى فى الدار بناء على دعوتهما من آن لآخر للشاى أو للطعام ، ولكن كنت طوال تلك الساعات محتشما .

وكنت إذا ما جمعنى وإياهما مجلس أسبلت عينى وطأطأت رأسى فى حياء وخشية وأدب .

واستمر هذا شأنى ، حتى فوجئت بالفتاة تسألنى :

ــ ماذا بك يا مستر محمد ؟

ودهشت وهززت رأسى متسائلا :

ــ من حيث ؟

ــ عينيك .. هل بهما شىء ؟

ــ لا .. أبدا .

ــ إذا لم لا تنظر إلى بهما ؟ هل بى شىء لا يعجبك ؟

ــ حاشا لله .. وأستغفر الله ، إن بك كل شىء حسن .

ــ إذا فما السبب فى أنك لا تنظر إلىّ ؟

ــ أدب .. لا أقل ولا أكثر .

ـــ أدب ؟!

واندفعت مقهقهة ثم أردفت :

ـــ إنها قلة أدب .. من قال لك إن من الأدب ألا تنظر إلى فتاة أمامك ؟ ألست جميلة ؟ ألا أستحق النظر ؟

ـــ بل تستحقين كل النظر .. إنى جد آسف .. لقد تعودنا أن نفعل هذا مع النساء فى بلادنا .. اعذرينى ، فأنا مؤدب من الشرق .

ـــ إنك حمار من الشرق ، أرجوك أن تكف عن هذا الأدب .

ومن يومها بدأت أكف عن أدب النظر .. بالنسبة إلى الفتاة .

وبدأت الفتاة تغدق على خدماتها وعطفها ، وتنظف الحجرة وترتبها وتتسكع بها ما شاء لها التسكع .

وأحسست من أفعالها هذه ، ومن تصرفها وتسكعها أنى يجب أن أفعل شيئا ، وألا أمعن فى جمودى وحيائى وأدبى فأكون عند قولها « حمار من الشرق » .

أجل ! كان يجب أن أفعل « شيئا » ، ولكن ما هو هذا الشيء الذى يستطيع مثلى أن يفعله ؟

ماذا أقول لها ؟ إن المسألة تحتاج أولا إلى أن أكتب ما سوف أقول باللغة العربية ، ثم أترجمه إلى الإنجليزية .. ثم أحفظه عن ظهر قلب ، وألقيه عليها كالمحفوظات .

وبعد كل هذا التعب ، أكون مضحكا ، وحمارا أيضا ؟

إذن فيجب أن أفعل شيئا .

أقبلها مثلا ؟

لم لا ؟ لأجرب معها .. وأرى ما سوف يكون .

وفعلا ، ظللت أترقب الفرصة حتى سنحت ، وفى خلوة لنا فى حجرتى ، وجدتها تنحنى لترتب الفراش .. فمددت بوزى ، ولهفت قبلة ، ووقفت أنتظر النتيجة .

ووجدتها تهز رأسها فى أسف ، وتقول ببساطة :

ـــ إن الرجل الإنجليزى لا يفعل هذا .

وأحسست من قولها بلطمة شديدة .. وإهانة بالغة ، وتأنيبا مرا .

ولم يكن أمامى سوى الانسحاب ، والندم والتباعد ، فانسحبت وندمت وتباعدت .

ومرت الأيام والليالى ، وأنا منطو على نفسى عائد إلى سابق حياتى .

حتى كان ذات مساء وأنا عائد إلى حجرتى ، عابرا الممر ذى الضوء الخافت مارا بحجرتها فى صمت وسكون أن أحسست بيدها تمتد من باب حجرتها ثم تمسك بى من قفاى وتجرنى إلى داخل حجرتها .

ووقفت أمامها وجها لوجه ، وهى بقميص النوم .. ورأيتها تحملق فى وجهى غضبى ثائرة ، وتهمس ناهرة :

ـــ ما بالك أيها الحمار العنيد ؟

وعادت تسأل بانفعال :

ـــ ماذا فعلت لك حتى تمعن فى إعراضك الغبى ؟

ـــ ألم تقولى لى عندما قبلتك .. إن الرجل الإنجليزى لا يفعل هذا ؟

ـــ أجل ! إنه حقا لا يفعل هذا .. ولكننى لم أقل لك إنى أحب ما يفعل الرجل الإنجليزى .

وتصالحنا .. وفعلت بها ما لا يفعل الرجل الإنجليزى ، وما لا تكرهه هى .

ومرت الأيام ، والعلاقات تزداد وثوقا وتوطدا حتى أصبحت الفتاة تفرض لنفسها علىّ حقوقا ، وتغار علىّ من الهواء ، ولا تكاد تتركنى أخرج وحدى .

وفى كل هذه المعمعة ، كانت أمها تقف على الحياد .

وبدأت أحس من الأمر بخطورة ، فقد باتت الفتاة تعتبرنى خطيبها .

وتصورت ما يمكن أن يحدث لفاو جِبلى .. وللشيخ عبد الجادر عبد الدليل أبى ، وللست عيوشة أمى ، لو حدث ـــ لا قدر الله ـــ أن تحرج الأمر ولم أستطع

منه فكاكا ، وعدت إليهم وفى يدى « سنيورة »من بلاد برّه .

ولم يكن هناك علاج للمسألة أحسم من أن أسافر إلى مصر فى إحدى العطلات الصيفية ثم أعود لابسا خاتم خطبة زاعما أنى قد خطبت حتى أقطع عليها كل تفكير فى خطبة أو زواج .

وفعلا ذهبت وعدت وفى أصبعى خاتم الأمان .

ولم يخطر ببالى أن الخاتم سيكون له هذا الوقع المروع فقد ثارت الفتاة ، وتشنجت ، وبكت .. وظلت بضعة ليال ساهرة لا تهدأ ولا تنام .

كل هذا وأمها على الحياد لم تنبس بكلمة تأنيب ولا لوم .

حتى دخلت علىّ ذات ليلة ، وأنا أوشك أن آوى إلى الفراش .

وبدأت أجمع فى ذهنى مستندات الدفاع .. ردا على ما توشك أن تنزله بى من لوم وتأنيب ، وما توشك أن تصفنى به من سفالة ، ولؤم ، وانحطاط .. لتغريرى بابنتها وخداعى لها .

ووقفت أمام الفراش أرتجف خجلا واضطرابا .

وأخذت الأم تقترب منى فى صمت ، وكلما زاد اقترابها وصمتها زادت خشيتى .

حتى وقفت بجوارى أمام الفراش ورفعت يديها .. لا لتضربنى ، بل لتتمطى ، وتستلقى على الفراش ، وتهمس إلىّ فى استدعاء واسترخاء :

ــ أطفئ النور .. وتعال ، هيا ، أيها الحمار من الشرق .

ومنذ تلك الليلة .. أصبحت الأم تشاركنى الفراش .. وهى قريرة راضية ، مقتنعة بأن ليس فى عملها أية خيانة لابنتها ، بعد أن أصبحت خاطبا وفقدت كل أمل فىّ .

ولقد عرفت فى النهاية أنى كنت حقا حمارا من الشرق ، لأنه كان علىّ أن أبدأ بالأم ، المجربة ، من أول الأمر .

عبدربّه الصُرمَاتى

يا عبد ربه يا صرماتي .. يا من لم تنجب الحياة أغبى ولا أحمق منك .. يا من تغرق فى شبر ماء .. قاتلك الله من حمار أبله .. فيم كل هذا التفكير وهذا الحزن ؟. إن النقود لا قيمة لها إلا إذا كانت وسيلة لجلب السعادة وطرد الشقاء .. أما إذا جلبت لنا الهم فلتذهب مع الشيطان !.

لم يكن عبد ربه مجرد صرماتى ؟! بل كان موسيقيا فنانا .. وكانت له فى بلدته شهرة واسعة .. فما خلا منه مجمع أنس أو حفل طرب .. وما مرت به ليلة إلا وقد تكاثر حوله القوم فى مقهى البلدة يرجونه أن ينشدهم بعض المواويل على ربابته .

ولم يكن الرجل فى حاجة إلى رجاء .. فقد كان لا يستطيع أن يجلس صامتا .. أو يسير وحيدا لا تصاحبه الربابة .

وكان بين ربابته وامرأته عداوة شديدة وخصام مستحكم .. فقد كانت أم أحمد (المرأة) تكره أم علي (الربابة) كرها شديدا .. ولا ترى فيها إلا مضيعة للوقت ، وما زال القوم يذكرون تلك الزوبعة العاصفة التى لاقته بها المرأة يوم عاد إلى الدار أول مرة يحمل الربابة وينبئها أنه ابتاعها لقطة .. من أحد الحوانيت فى البندر .. عند ذهابه لزيارة خالته نفيسة .

كانت أم أحمد امرأة جد .. ترى أن « صرماتى » يعنى « صرماتى لا مغناوى ولا مزيكاتى .. وكانت ترى فى تعلق زوجها بالغناء والطرب والموسيقى .. سببا فى انشغاله عن عمله الأصلى .. وفى صرفه عما يجب أن

ينهمك فيه من ترقيع «البراطيش» وإصلاح «الصرم».. وسببا فى «وكسته» أو خيبته.. وبقائه طول عمره «عتقى» تعس فى هذه البلدة الخربة الخاوية.

وكانت أم أحمد — وهى قاهرية من بولاق — تتوق إلى العودة إلى مقرها الأصلى ولا تفتأ تنغص على زوجها عيشه .. ملحة عليه فى الرحيل إلى القاهرة ، وهو يستمهلها حتى يفتح الله عليه وحتى يتجمع لديهما من المال ما يعينهما على السفر وعلى الاستقرار فى القاهرة .

وهكذا وجدت المرأة أن أملها فى الرحيل عن هذه البلدة الكريهة معلق بأن يفتح الله على زوجها فيجمع لها قدرا من المال .

ولكن كيف يفتح الله عليه .. ومن أين يأتيه قدر من المال .. وهو يضيع نصف وقته فى الغناء والسمر والطرب ؟ وزاد الطين بلة .. تلك الربابة التى اشتراها والتى صرف فيها مبلغا لا شك فى أنه كان يمكن أن يجعل منه نواة لتغيير مجرى حياتها والرحيل عن هذه البلدة والاستقرار فى مصر .

ومن هنا كان كره المرأة للربابة والغناء . وأخذت المشاحنات تتزايد يوما بعد يوم حتى بدأ صبر المرأة ينفد وانتهى بها الأمر إلى أن تخرج من دارها ذات ليلة وقد تأخر عبد ربه عن موعد عودته متجهة إلى المقهى ثائرة هائجة .. وتهجم على زوجها فتخرجه من بين الجمع الذى أحاط به .. وتنشب أظافرها فى عنقه وتمسك بالربابة فتحطمها .. ثم تسوقه أمامها عائدة إلى الدار .

ومنذ ذلك الوقت انطوى عبد ربه على نفسه لا يكاد يغادر مقعده .. وبدت عليه علائم الهم والبؤس .. كأنما حرم من عزيز لديه .. يتناول « الصرم » من الزبائن كسير القلب حزين النفس .. والزبائن يقبلون عليه .. واجمين مطرقين .. كأنهم فى مأتم ..

وسرى الحزن من عبد ربه إلى أهل البلد جميعا .. وأضحت مجامعهم صامتة ، بعد أن خلت من عبد ربه وربابته .

* * *

ومضت بضعة أسابيع والبلدة صامتة واجمة كأنما قد نزلت بها نازلة وأصابتها كارثة .. حتى كان ذات يوم حدثت معجزة اهتزت لها البلدة .

لقد هبط عليها محسن كريم .. أغدق عليها حسناته فأنقذها مما بها .. وترك أهلها حيارى مشدوهين ، يتساءلون من يكون هذا المحسن المجهول .. فلا يجدون جوابا .

استيقظ أهل البلدة ذات صباح فإذا بالبريد يحمل إليهم سيلا من الحسنات كان أولها بضعة عشر جنيها لإصلاح الجامع .. وبضعة أخرى لشراء أقمشة للأطفال .. وهكذا لم يترك المحسن ناحية إلا أغدق عليها من أفضاله .. حتى المقهى .. لم يحرم من مبلغ وفير لإصلاح حاله ولشراء بعض الكراسي .. والدكك .

وكان آخر هذه الأفضال المنهالة على أهل البلدة من المحسن المجهول أو أكثرها غرابة .. طردا كبيرا مرسلا باسم « الصرماتي » .

وتكأكأ القوم حول الطرد ليعلموا ما يحويه .. ووقفت أم أحمد لاهثة الأنفاس .. مشدوهة .. حيرى .. تحملق في الصندوق وقد أخذ زوجها في فتحه لرؤية ما جاء به .

ونزع عبد ربه الصندوق برفق وأخذ يزيل طبقة القش التي علت سطحه ثم مد يده وأخرج ما به .

وندت عن القوم صيحة دهش .. وفغرت أم أحمد فاها وهي تحملق في محتويات الطرد .. فقد كان لا يزيد عن « ربابه » .

ربابة ؟! هذه أمنية للبلدة كلها قد تحققت ولا شك .

وأمسك عبد ربه الربابة يفحصها في إعجاب ولهفة .. وقد علت وجهه أبلغ علامات الرضا .

وهزت أم أحمد رأسها في خيبة شديدة .. وأصابتها الحيرة فلم تعرف كيف تتصرف إزاء هذا الخصم الجديد الذي أرسله لها المحسن الأحمق المجهول .

وأخذ القوم يتساءلون عمن يكون هذا المحسن العجيب الذى غمرهم بفيض من إحسانه وعطفه ..!! وفجأة صاح الشيخ على .. خادم الجامع وإمام البلدة :

ـــ لقد وجدته .

وبهت القوم وتساءلوا :

ـــ من ..!!؟ من هو ..؟

وعاد الشيخ على يصيح :

ـــ عبد ربه .. ولا أحد غيره .. إنه لا شك السبب فى هذه النعم التى أغدقت علينا .

وهز القوم رءوسهم فى دهش وحملق عبد ربه بعينيه وأشار إلى صدره متسائلا فى عجب :

ـــ أنا ؟!!

ـــ نعم أنت .. فلا شك أن أحد الأثرياء من أصحاب الأراضى المجاورة قد سمع نبأ ربابتك وكيف حل بنا الحزن بعد أن حطمتها امرأتك .. وربما سمعك تغنى ذات مرة فأطربته .. وساءه أن يخفت صوتك وتصمت ربابتك ورغب فى أن يعوضنا عما أصابنا من غم .. فوهبنا ما وهب وأغدق علينا من نعمه .. وليس أدل على صحة قولى من أنه خصك أنت بالذات بهذه الربابة .

ولم يكد الشيخ على ينتهى من قوله حتى أمن القوم عليه وأقبلوا على عبد ربه يشدون على يديه ويوسعونه عناقا وتقبيلا .. وأبدى الشيخ على اقتراحا ، أنه يجب عليهم اعترافا بفضل عبد ربه أن يجعلوا له أجرا شهريا نظير غنائه وعزفه على الربابة .

ووافق القوم بالإجماع .. قائلين إن عبد ربه يستحق كل خير .. وإن البلد قد خيم عليه الشقاء والتعاسة منذ أن خفت صوته وصمتت ربابته .

وانفرجت أسارير أم أحمد .. وأحست لأول مرة فى حياتها .. باحترام لزوجها ولربابته .. فقد أصبح الغناء والعزف عملا رسميا .. وأضحت الربابة

مورد رزق بعد أن كانت مضيعة للوقت .. ومدت يدها فتناولت الربابة برفق قائلة له :

ـــ حاسب عليها لتتكسر .

وهكذا عاود عبد ربه غناءه وعزفه على الربابة .. وعادت إليه بشاشته .. وانقشعت عن البلدة سحب الغم التى خيمت عليها ، وعاد القوم إلى سابق فرحهم ومرحهم .. وفكاهتهم ومجونهم .

ومرت الأيام .. وسر المحسن المجهول ما زال فى طى الخفاء لم يستطع مخلوق أن يتوصل إلى كشفه .

وفى ذات يوم ذهب الشيخ على إلى دكان عبد ربه الصرماتى .. وتربع على مقعد أمامه وناوله حذاءه ليجرى له فيه بعض الترقيع والترميم ، وجرى بينهما الحديث . فسأل الشيخ على صاحبه عن امرأته وكيف أصبحت . وأجاب عبد ربه بلهجة راضية :

ـــ الحمد لله ..

ـــ أظنها كفت عن تنغيصِ عيشك .. ومنعك عن الغناء والعزف ؟

ـــ أجل لقد تبدل حالها ورقت مشاعرها وأصبحت هى نفسها تطلب منى الغناء والعزف .

ـــ هذا شيء واضح .. حتى ليخيل لى أنها قد تغيرت تماما .. لقد أصبحت امرأة كاملة .. لولا ..

ثم هز الشيخ على رأسه فى أسف ، فسأله عبد ربه فى دهش :

ـــ لولا ماذا ؟..

ولم يجب الشيخ على ، بل استمر يهز رأسه ، فعاد عبد ربه يستحثه :

ـــ تكلم يا شيخ على .. لولا ماذا ؟

ـــ لولا أمر يبعث فى نفسى التساؤل والحيرة .. وهو نظراتها إلىّ .

ودهش عبد ربه ورفع حاجبيه متسائلا :

— ما لها نظراتها إليك ؟

— إنها تنظر إلىّ نظرات غريبة مريبة .. نظرات مليئة بالحذر والشك .. كأنها تكاد تجزم بأنى أبله أو مجنون ؟

واندفع عبد ربه فى قهقهة عالية .. وأخذ يهتز من فرط الضحك . وبدأ الشيخ يتملكه الغضب وصاح فى صاحبه :

— ما يضحكك من قولى ؟

وكف عبد ربه عن الضحك واستطاع أن يتمالك نفسه وقال فى شبه اعتذار :

— الواقع أنها معذورة يا شيخ على .

وازداد غضب الشيخ على وعاد يهدر صائحا :

— معذورة !!.. يا ابن الحرام .. يعنى أنا راجل مجنون ؟

— العفو يا شيخ على .. لا أقصد هذا .. لو عرفت السبب لأدركت أنها حقا معذورة .

وصمت عبد ربه برهة ، ثم أخذ يروى لصاحبه السبب قائلا :

— هذا بينى وبينك أرجو ألا تبوح به لإنسان ، مفهوم ؟

— مفهوم .

— أنت تعرف أننى فى كل عام أذهب إلى البندر لزيارة خالتى نفيسة .. والواقع أنى كنت أؤدى هذه الزيارات مكرها لأنى لا أكره شيئا كمغادرتى للبيت .. ولكنى كنت أرى فى الزيارة واجبا علىّ لا بد من تأديته .. فقد كانت خالتى هذه امرأة وحيدة ليس لها من الأقارب سواى . وكانت زيارتى تسبب لها سعادة كبيرة وتشعرها بأنها ما زالت لها صلة بهذا العالم وأن هناك من يسأل عنها .

وذهبت آخر مرة لزيارتها منذ بضعة أشهر — وأذكر أنه كان يوم جمعة — وقد استيقظت قبيل الفجر فتوضأت وصليت الصبح حاضرا .. ثم توكلت على الله وسرت إلى البندر .

وكنت طوال الطريق أفكر فى حلم رأيته .. وأنت تعرف أن أحلامى لا تخيب

أبدا .. ولذا كنت شديد الوجوم ، منقبض الصدر .

رأيت فى الحلم أنى سائر على شاطئ بحر فى ليلة معتمة ، وفيما أنا سائر خيل إلى أنى أسمع أصواتا جميلة وأنغاما حلوة كأنها آتية من وراء البحر ، وتوقفت أنصت مرهفا أذنى محاولا تجميع النغمات .. ولكن مصدرها كان بعيدا ، وكان معظمها يتبدد مع النسيم فلا يصل إلىّ منها إلا أجزاء متقطعة كأنها رائحة الشواء .. تحرك الشهية ولا تغنى من جوع .

واشتد بى الحنين إلى النغم وأنا واقف مرهف الأذنين حتى وجدتنى أجرى فى المياه متجها على غير إرادة إلى مصدر النغم .

وظللت أسبح وأسبح ، والنغم يزداد اقترابا ، وتزداد معالمه وضوحا .. ولم أشك وأنا أقترب منه أن مصدره ربابة تجرى عليها يد عازف ساحر .. وبعد طول جهد لاحت لى ربوة مشرقة سابحة فى ضوء القمر .. فأسرعت فى السباحة كى أبلغها ، موقنا أن النغم لا بد وأن يكون صادرا منها .. وأخيرا أو بعد أن كدت أبلغها سمعت صرخة مفاجئة وصوت استغاثة يشق الفضاء ، وتلفت إلى مصدر الصرخة فإذا بمركب مقلوب وغريق يحاول التشبث به .. وترددت برهة فقد كان جهدى بالغا نهايته ، وكان طول السير فى الماء قد استنفذ كل قواى .. وكان ما تبقى لى من قوى لا يكاد يوصلنى إلا إلى الربوة المشرقة .. حتى لقد ساورنى شك فى أنى مشرف على الهلاك إن لم أسرع إلى الربوة .

ولم يطل بى التردد حتى عزمت على الاتجاه إلى الغريق ، فإما أنا أنقذه أو نهلك معا .. وأخذت أضرب الماء بيأس حتى كلت قواى وأنا أقترب منه .. ولدهشى الشديد تبينت أنه خالتى نفيسة .

وصحت بها مطمئنا أنى عبد ربه ، وسألتها أن تتمالك حتى أصل إليها .. وظللت أجاهد فى السير حتى بلغتها وأمسكت بيدها وحاولت العودة بها ولكنها أنبأتنى أنها ستبقى ، وأنه لا فائدة من عودتها معى لأنها ذاهبة ذاهبة .. ثم بدأت تغوص فى الماء .. وصحت بها أن تتمالك وأنى سأنقذها وأعود بها ، ولكنها مدت

يدها وخلعت منديلا على رأسها وأعطته لى قائلة :

— خذ هذا المنديل فإنه سيساعدك فى بلوغ الربوة .

واختفت فى جوف الماء ، ولم أجد بدا من العودة وحيدا ، ولكنى كنت أشك كثيرا فى إمكان العودة فقد كانت قواى قد خارت تماما .. وأمسكت بطرف المنديل فإذا بالريح تنشره ، وإذا به يكبر ويتسع حتى أضحى كأنه قلع مركب ، وتشبثت به .. فأخذت الريح تدفعنى وتدفعه .. وفى غمضة عين بلغت الربوة المنشودة .. وجلست أنعم بالنغم العجيب .

كان حلما عجيبا .. كان لا شك يعنى شيئا .. وكنت أخشى كثيرا من هذا الشىء الذى يعنيه .. ألا وهو ذهاب خالتى وفشلى فى إنقاذها من الغرق .

وكان الوهم يحملنى هما ثقيلا .. فقد خيل إلىّ أنى لن أصل إلى الخالة إلا وقد ذهبت إلى جوار ربها .

ولكنى استعنت بالله على طرد هذا الوهم ، ونفضت عن نفسى آثار ذلك الهم ، وقلت : إن كل ما أظنه ليس سوى أضغاث أحلام .. واتجهت قبل أن أذهب إلى المحطة إلى دكان سيد العطار لأبتاع لخالتى كيس الدقة المصنوعة من السمسم الذى تعودت أن أحمله لها فى كل زيارة .

وتذكرت بعد أن ابتعت الدقة أنها قد أوصتنى بشراء رطل من الحناء وبعض اللبان الذكر .. ولم يكن معى من النقود إلا ما كنت أحاول ادخاره خفية من زوجتى لشراء ربابة جديدة .. ولكنى مع ذلك لم أتردد فى أن أبتاع للخالة العزيزة ما طلبت بالنقود المتوفرة قائلا لنفسى : إنى أستطيع أن أدخر مبلغا آخر وأن أؤجل شراء الربابة بعض الوقت .. ولم يكن فى إقدامى على هذا العمل أى إحساس بتضحية .. بل كان مجرد استبدال متعة بمتعة .. فأنا دائما أوازن فى حياتى بين المتع وأختار المتعة الأبقى والأفضل .. وفى هذه الحالة اخترت المتعة المستمدة من إسعاد شخص قد حرم إلا من السعادة التى أستطيع أن أهبه إياها .. وهى متعة لو تعلم تفوق كل متعة .

وهكذا سرت إلى المحطة حاملا فى يدى السبت الملىء بمطالب الخالة من دقة إلى حناء إلى لبان .. إلخ . أو على الأصح هديتى السنوية .

ولا أكذبك القول أنى كنت أحمل الهدايا .. وبنفسى كثير من الشك أنى لن أجد المهدى إليها ، ولذا لا تسل عن فرحتى عندما وصلت فوجدتها سليمة معافاة .

ولقيتنى بالترحاب .. وضمتنى إلى صدرها فى حنان ورفق ، وقالت :

ــ طول عمرك .. وأنت ولد طيب .. إن الله لن يخذلك قط .

كانت تعتبرنى ولدا حتى ذلك الوقت .

وجهزت لى الغداء .. وجلست تطعمنى .. كأننى كما تعتبرنى مجرد ولد .

وبعد الطعام .. ماتت .

أجل .. ماتت فجأة .. هكذا كما أروى .. بدون أى سابق إنذار .

ومع ذلك لا أظن الموت يحتاج إلى إنذار ، لقد كانت تجلس على شلتة ، وبيدها فنجان القهوة ، فوجدت رأسها يميل ، وجفنيها يتثاقلان ، ويدها تهبط بفنجان القهوة على حجرها .

وأصابنى من مرآها رجفة شديدة .. ولكنى وثبت تجاهها وحملت فنجان القهوة المسكوب على ساقيها ثم أرقدتها على الشلتة كى تستريح ، وقلت فى جزع :

ــ ما بك ؟!

فلم تجب ، وأخذ رأسها يتمايل متحركا يمنة ويسرة ، ثم فتحت عينيها بعد لحظة ، وتمتمت بصوت متقطع :

ــ ورقة اليانصيب .. إنها فى درج الدولاب تحت العلبة الصفيح .. لقد ابتعتها بكل ما كنت أملك .. لقد كان مبلغا ضئيلا لا يستحق أن أهبه لك .. ولكن فكرت أنى أستطيع أن أبتاع لك هذه الورقة .. وأن أهب لك معها بعض دعوات خالصة بالربح .. فإذا استجاب الله دعواتى .. وهيأ لها الربح .. فإنى قد

وهبتك بذلك مبلغا طيبا .. إنك ولد طيب .. والله لن يخذلك .

ولم تمض بضع دقائق حتى أسلمت الروح .. ولم تمض بضع ساعات أخرى حتى ووريت التراب وانتهى كل ما كان من أمرها إلا أمرا واحدا وهو ورقة يانصيب عثرت عليها تحت العلبة الصفيح مكتوبة باسمى .

أتعرف ورقة يانصيب المؤاساة .. إنها ورقة كاملة لا نصف ولا ربع ولا عشر .. إذا ربحت نمرتها فمعناها أنى ربحت بضع عشرات الآلاف من الجنيهات .

وأحسست بالدموع تنهمر من عينى .. لا لأنى أتوقع ربحا — فأنت تعرف أنى لا آمل كثيرا فى مثل هذه الأشياء — ولكن فرحى كان إحساسا منى بجميل تلك الراحلة التى ودت أن تعوضنى عن اهتمامى بها وزيارتى لها .. فابتاعت ورقة اليانصيب بكل ما تملك ، راجية أن يكون لى بعض الحظ ، فتربح النمرة .

ووضعت الورقة فى جيبى فى سكون ، ومضيت أتجول فى الطرقات حتى استقر بى الأمر على إحدى المقاهى.وبعد برهة مر بى صبى يحمل فى يده بضع أوراق يانصيب .. وكشوفا بها نتائج السحب .

وتملكنى شيء من الارتباك .. ثم ناديت الصبى بصوت خافت وأخرجت الورقة من جيبى وبدأت أفحص الكشوف .

وبالطبع لم تكن نمرتها تطابق البريمو .. فتجاوزت عنها .. وبدأت أهبط بعينى إلى بقية النمر الرابحة التى فى الكشف .

وفجأة رأيت الأرقام تتراقص أمام عينى .. ثم تتشابك وتنقلب رأسا على عقب .. فشددت من الشيشة التى أمامى نفسا طويلا استعنت به على تهدئة نفسى .. وعدت أحملق فى الكشف مرة أخرى .

لقد وجدتها .. هى بعينها .. نفس الأرقام بلا جدال ولا نقاش .

لقد ربحت الورقة .. ولكن النمرة .. ليست الأولى ، ولا الثانية ، ولا الثالثة .. ولكنها مع ذلك ربحت مبلغا محترما بالنسبة لأى إنسان محترم ..

أما بالنسبة لى .. فقد كان محترما جدا .

وبدا لى أن أقوم فأرقص عشرة بلدى فى وسط المقهى .. وأن أطلب من الحاضرين أن يطلبوا ما يشاءون على حسابى وأعلنهم أن عبد ربه صرماتى سندويس قد أصبح ذا مال ، وأنى رغم مظهرى رجل غنى .

وهممت فعلا .. بالنهوض والصياح .. ولكنى فجأة تذكرت أمرا بدد فى نفسى كل ما بها من فرح وغبطة ، وهبط علىّ كحمل أثقل كاهلى .. وأنقض ظهرى .. ووجدت أنى قد استرخيت على مقعدى منهكا لا أستطيع نهوضا ولا صياحا .

تذكرت ما سيحدث عندما أذهب بالنقود إلى البلدة ، وأنبئ بها أم أحمد .. ماذا يمكن أن تقول لى ؟!

ستهتف بى صائحة : « ربنا تاب علينا من بلد السوء .. يالله على مصر .. تفتح دكان جزماتى فى بولاق .. وتبقى بنى آدم » .

أنا لا أكره بولاق ، ولا أكره مصر .. ولكننى فقط لا أعرف أحدا هناك ، ولا يعرفنى أحد .. إنى فى بلدتنا كل شيء .. أما هناك فسأكون لا شيء .. سأكون قشة فى عباب متلاطم الأمواج .. إنى هنا صرماتى البلدة .. بلا شريك ولا منازع .. وإنى مغنيها ، ومطربها .. ومحدثها ، ومضحكها .. إنى البلدة ، والبلدة أنا .

ترى كيف أكون فى بولاق ؟!

وأحسست بقشعريرة تسرى فى جسدى ، ونهضت من مكانى متثاقلا ، وأخذت أجوب الطرقات على غير هدى مطرق الرأس ، مهموم القلب .. وقد أخذت الذكريات تتزاحم فى رأسى وتغلى فيه كأنه مرجل ، ذكرت بلدة العزيزة ، وأهلها الكرام .. تذكرت غناءنا ومرحنا وضحكنا وطربنا .

تذكرت شاطئ الترعة صباحا وقد أقبلت عليه أم السعد والسيدة وفرح يحملن البلاليص على رءوسهن ، ويتهادين فى خطاهن ، وقد افترت ثغورهن ،

وشاعت فى أساريرهن السعادة والهناء .

تذكرت صندوق وشاكوشى ومقعدى و« براطيشى » و« صرمى » و« جردلى » . تذكرت الجامع على شاطئ النيل وصلاتنا جماعة ، تذكرت كل شيء ووجدت الدمع يهمى من عينى مدرارا ، إنى أحب بلدى بكل ما فيه ولا أرضى به بديلا و« لو شغلت بالخلد عنه ، نازعتنى إليه فى الخلد نفسى »

وفجأة توقفت فى مكانى ودون أن أشعر وجدتنى أخاطب نفسى قائلا :

« يا عبد ربه يا صرماتى ، يا من لم تنجب الحياة أغبى ولا أحمق منك ، يا من تغرق فى شبر ماء ، قاتلك الله من حمار أبله ، فيم كل هذا التفكير وهذا الحزن ؟ هل نسيت أن المرحومة خالتك لم تهب ما وهبت إلا لغرض واحد هو إسعادك ؟ إنها لم تترك لك ورقة اليانصيب إلا لأملها فى أن تربح ، ولم تأمل فى أن تربح إلا لرغبتها فى أن تجلب لك الهناء والسعادة ، فهل حققت غرضها ؟ كلا والله ، لقد أغرقت نفسك فى الهموم . إن النقود لا قيمة لها إلا إذا كانت وسيلة لجلب السعادة وطرد الشقاء .. أما إذا جلبت لنا الهم فلتذهب مع الشيطان ، أنا بغيرها أنعم بالا ، هيا أيها الأحمق ، أسعد نفسك وحقق غرض خالتك ونفذ وصيتها » .

وانطلقت أقهقه .. وأخذت أعدو فى الطريق راقصا والناس ينظرون إلىّ نظرتهم إلى ذى جنّة .. ثم أمضيت يومين فى البندر وأنا منهمك فى جلائل الأعمال .. وفعلت ما يمكن أن يسعدنى .. ثم عدت إلى البلدة .. خاوى الوفاض .. وبعد بضعة أيام .. وصلت البلدة عطايا المحسن المجهول ، وأقسم لك أنى ما كنت أستطيع أن أكون أكثر هناء أو أنعم بالا .

ثم توقف عن الحديث .. كأنه أتم القصة .

وصاح الشيخ على فاغرا فاه فى دهشة شديدة :

— إذن فهو أنت ؟

والله ليرينه عاقبة خداعه وسفالته .. صبرا يا عفريت الكلب !
ومرة رابعة .. انبعث الصوت مندفعا بسلسلة السباب المعتادة :
— وله يا عويس .. يا تور .. يا ابن التور .
لا .. لقد زادها .. لا بد من ردعه وإلا ساق فيها .
وجلس عويس القرفصاء وصاح بأعلى صوته حانقا :
— عايز إيه من عويس ؟
— مالك بتزعق كده يا واد ، انت اتجننت .
— أنا اللي اتجننت ؟ والله عال يا ولاد .. أنا برضك اتجننت ؟
— يا واد وطي صوتك ، وماتزعقش كده .. وفوق لنفسك ، وقوم اعمل الشاى .
— شاى ؟! كان عايز شاى ؟! أهو ده اللي ناقص !
— أنت يا واد جرا لعقلك إيه النهارده ؟
— طيب الحمد أحسن لك ، وخليني أنام .. إحنا ما صدقنا ربنا تاب علينا .
— يعنى مش حا تعمل الشاى ؟
— شاى لما يهرى جوفك .. مش كفاية مجعمز على السرير ، وسايبنى انام على الحصيرة .. قوم فز .. قامت قيامتك وانتصب ميزانك ، قليل الحيا ماتختشيش .
— عويس .. فوق لنفسك يا عويس .
— فوق انت ، كل واحد لازم يلزم حده هنا ويعرف مركزه .. من هنا ورايح تيجى تترمى مطرحى هنا ، وتعمل الشاى وتحضر لى المية أتوضا .. أنا مابقتش حاجة قليلة ، أنا الشيخ عويس على سن ورمح .. واعمل حسابك تقف ورايا فى الدرس ، وتمليني كلمة كلمة ، واوعى تغلط لحسن آوريك شغلك .. فاهم والا لأ
— لا .. الواد لازم جرى لعقله حاجة أكيد .. لازم عايز له قلمين على

الحاج قطه

الحاج قطة .. هذا الذى يقيم صاحبنا فى ضريحه .. والذى تجرى حوادث قصتنا تحت قبته .. هو أحد أولياء الله الوهميين من ذوى البركات والكرامات الذى يزعم أهل القرية أنه كان يتقمص فى حياته جسد قطة ، فيمر على أهل القرية ليسدى إليهم النصح ويمد لهم يد المعونة ، وأنه كان يتحدث وهو فى جسد القطة كما نتحدث نحن الآدميين .

الساعة الرابعة صباحا .. وقد تمدد الشيخ مبارك فى فراشه ، وانطلقت أنفاسه فى شخير خافت ، وانحسر جلبابه الدمور المخطط عن ساقين كالأقلام البسط ، سمراء عجفاء ملساء جرداء ، وقدمين معروقتين مشققتين وركبتين نفرت منهما العظام حتى كادت تشق الجلد الواهن الرقيق .

ويبدو الجسد بعد ذلك . وقد أخذ الصدر فيه يعلو ويهبط ، ومع كل حركة منه يسمع « تزييق » كأنه نعل حذاء جديد يهبط إلى الأرض لأول مرة ، وتتدلى يداه طويلتين مسترخيتين من فتحتى كم الجلباب الواسع ثم يبرز العنق من فتحة الصدر .. وقد وصلته بعظام الترقوة والكتفين عدة عروق بارزة نافرة أشبه بحزمة من الأنابيب .

أما الوجه فلا يمكن تمييز سيماه إلا من بعد .. أما إذا حققنا فيه من قريب فنجده أشبه بقطعة أرض مستوية .. مليئة بالهضاب والوهاد والأخاديد والجروف ، وقد تناثرت فوق تجاعيد ذقنه الشعيرات البيضاء ، وتهدل الشارب

على فجوة الفم ، وبدت من فوقه هضاب الأنف مفرطحة منبعجة قد أطلت الشعيرات من فتحتيها وتناثرت المسام على سطحها .

وتبدأ أولى بشائر اليقظة باهتزاز فى الجفنين وارتعاش فى الحاجبين .. ثم يمد أصابعه الطويلة فيحك فجوتى عينيه ، ويفتر فاه على أشده فى تثاؤب حاد تتقلص معه عضلات بطنه ويمد ذراعيه مشدودتين متمطيا بكل ما يملك من قوة ، ثم يعود جسده إلى الاسترخاء ، وتمضى برهة يبدو فيها الرجل كأنه قد عاد إلى نومه مرة أخرى .. حتى نراه فجأة قد نهض بنصفه الأعلى .. ثم أدلى ساقيه من الفراش ، وتنحنح وسعل وبصق .. ثم صاح بصوت متحشرج :

— عويس .

وتذهب « عويس » الأولى مع الريح .. فيكرر الرجل النداء مرة أخرى بصوت أشد :

— يا واد يا عويس .

وتذهب الثانية كما ذهبت الأولى ، ويتكرر النداء مرة ثالثة ورابعة ، وفى الخامسة يبدأ عويس فى التقلب والتململ ويزفر زفرة شديدة .. ثم يعود إلى سباته .

ويطلق الشيخ مبارك السادسة .. مصحوبة ببعض ألفاظ السباب والنهر والزجر فيظهر مفعولها الحاسم فى إيقاظ عويس .. فيجلس القرفصاء على فراشه المكون من قطعة من الحصير فرشت على الأرض فى الطرقة الضيقة الكائنة أمام حجرة الشيخ مبارك .

ويبدو عويس وقد تكور فى جلسته مرتديا فانلة سمراء وسروالا من الدمور واسعا فضفاضا .. تدلت تكته الطويلة ذات الشرابة على الأرض ، ونتأمل « الواد عويس » فنجد أن خير ما يوصف به أنه « جته » أو « شحط » أو « فحل » عريض المنكبين .. متين البنيان قوى العضل .. فارع الطول .. أسرفت الطبيعة فى خلقه .. فوضعت فيه من مواد البناء الآدمى ما يكفى لعمل

اثنين .. بالراحة !

ويرفع عويس رأسه من بين ركبتيه .. فيبدو لنا وجهه على ضوء مصباح الغاز الذى تضطرب ذبالته على الرف . وجه فلاح نموذجى عريض الصدغين .. كبير التقاطيع ، خشن المنظر .. بادى الطيبة .

وينطلق النداء العاشر من حنجرة الشيخ مبارك .. فيأخذ عويس فى هرش جسده وحك رأسه .. ثم ينهض متثاقلا ، ويتحرك حركة لا إرادية .. فإنه لم يستيقظ بعد ، وتمتد يده إلى صفيحة مياه فى ركن الطرقة فيصب منها فى إبريق من الصاج ثم يتناول قصعة متسعة فارغة ويتحرك ببطء متجها إلى حيث يجلس الشيخ مبارك ، ويقف أمامه .

ويهبط الشيخ مبارك من فوق فراشه الخشبى فيجلس القرفصاء على الأرض ، ويبدأ الوضوء ، وبعد دقائق نراه قد اتخذ مكانه .. فى زاوية الحاج « قطة » يؤم المصلين فى صلاة الفجر .

هذا هو أول أعمال الشيخ مبارك .. أو سيدنا . كما تعود أهل قرية « سلنت » أن ينادوه ، وكان الرجل يحس فى قرارة نفسه أنه سيدهم فعلا .. فقد كان ذا شخصية مسيطرة . وكان يتمتع بقدر من الخبث يهيىء له التحكم فيمن حوله من السذج البسطاء ، والسيطرة على عقولهم .

وكان الشيخ مبارك يمثل فى القرية السلطة الدينية والروحية والعلمية والأدبية . فقد كان — بمسبحته وتمتمته وتعاويذه وصلواته — إمام القرية ومقرئها وملجأ أهلها فى الكوارث والنوازل . وكان — بعصاه ومنظاره وكتبه الصفراء — معلم القرية ومرشدها وواعظها وناظر كتابها .

وكان الرجل يباشر كل أعماله تلك ، من صلاة وتدريس ووعظ وإرشاد ونوم وأكل واستقبال ضيوف وشتيمة عويس .. فى مكان واحد ، هو مقره المختار .. زاوية الحاج قطة .

والحاج قطة هذا الذى يقيم صاحبنا فى ضريحه ، والذى تجرى حوادث قصتنا

تحت قبته .. هو أحد أولياء الله الوهميين من ذوى البركات والكرامات الذى يزعم أهل القرية أنه كان يتقمص فى حياته جسد قطة ، فيمر على أهل القرية ليسدى إليهم النصح ويمد لهم يد المعونة وأنه كان يتحدث وهو فى جسد القطة كما نتحدث نحن الآدميين . وأنه كان إذا مرض أحد القرية يتولى علاجه ، ويقوم عنه بحرث أرضه وريها وبكل ما يؤديه فى صحته .

هذا هو بعض ما يتحدث به أهل القرية ، وهناك غير ذلك الكثير من الكرمات الخرافية التى ينسبونها إلى ولى الله الشيخ قطة المبجّل .

ويعتبر الشيخ مبارك خليفة ولى الله بين أهل القرية ويزعمون فيما بينهم أن الشيخ قطة لا يفتأ يهبط إليه بين آونة وأخرى .. ليزوده بالبركات والنفحات الطيبات .

ولا يكاد الشيخ مبارك ينتهى من تأدية أول أعماله ، وهى صلاة الفجر . بما يتبعها من تسبيح وتمتمة وقراءة أوراد ، حتى ينطلق من حنجرته النداء المعتاد :

— عويس .

ويصل النداء إلى أذنى عويس العريضتين كأذنى حمار ويكون الرجل منهمكا فى تنظيف « التعريشة » الكائنة خارج الزاوية ورش أرضها بالمياه ورى العنبة التى تتسلق قوائمها وتمتد على سقفها ، وتمثل التعريشة جناح العلم فى منشأة الشيخ قطة .. أى كتاب الأرض ودكة خشبية وضع بجوارها مقرعة وزير اتخذ مكانه فى أحد أركان التعريشة .

ويتحرك عويس فى صمت متجها إلى الطرقة الفاصلة بين ضريح الشيخ وفراش الشيخ مبارك الذى يتخذه هو مرقدا له .. فيجلس القرفصاء أمام وابور غاز ويأخذ فى إعطائه بضعة أنفاس ثم يتناول المصباح الغازى فيشعل ذبالته . وينتظر برهة حتى يسخن ثم يضع فوقه برادا أسود بقاعه بقايا شاى يصب عليه الماء من الكوز الكائن بجوار الزير ، ثم يحمله وكوبا صغيرا إلى الشيخ مبارك .

وأخذ الشيخ مبارك فى احتساء الشاى الأسود فى صمت وإطراق وجلس عويس على مقربة منه يحتسى نصيبه من كوب آخر .

وفجأة قال الشيخ مبارك فى صوت عميق :

ـــ يا عويس .. يبدو لى أن أجلى قد قرب .

ونظر إليه عويس فى فزع وقال مأخوذا :

ـــ لا تقل هذا الكلام يا سيدنا الشيخ .. ربنا يعطيك طول العمر .

وهز الشيخ مبارك رأسه ببطء وقال فى إصرار :

ـــ أنا أعرف ما أقول .. إن أحلامى لا تخطئ قط . لقد زارنى فى المنام الحاج قطة وكان يرتدى جلبابا أبيض ، ويشع من عينيه بريق خاطف وقال لى يا شيخ مبارك إنى فى حاجة إليك .. فقلت إنى خادمك وطوع أمرك ، فقال إنى أريدك أن تصعد معى .. فسألته :

ـــ متى ؟

ـــ الآن .. هل لديك مانع ؟

وهممت أن أجيبه « كلا » ولكننى تذكرتك ، وقلت لنفسى إنه لا يجب أن أتركك هكذا فجأة ، وإن أقل واجبات اللياقة والذوق تقتضينى أن أنبئك عند الرحيل بأننى راحل ، ولا يجب أن أتركك بعد هذه العشرة الطويلة دون أن أودعك . ودون أن أزودك بالنصائح والوصايا ، ثم إن هناك أمرا أجل من هذا وأخطر شأنا ، وهو أننى يجب ألا أرحل قبل أن أترك خليفة من بعدى .. كما تركنى الشيخ قطة خليفة من بعده ، وعلى ذلك فقد قررت أن أطلب من الشيخ قطة أن يمهلنى قليلا وقلت له :

ـــ أعطنى مهلة يا شيخ قطة .. حتى أبحث لى عن خليفة ، قبل أن أرحل معك .

ـــ ومن تظنه يصلح لخلافتك ؟

وبحثت فى ذهنى عن إنسان فى القرية يصلح لخلافتى ، وأخذت أستعرض

أهل القرية واحدا واحدا .

الشيخ زينهم ؟ منافق .. كذاب أشر .. الشيخ عتريس ؟ شر منه .. الشيخ فضل ؟ أحمق مأفون .. على أبو المعاطى ؟ زير نساء .

وهكذا أخذت أعجم عودهم فلم أجد منهم واحدا يصلح لخلافتى .

وأخذ الشيخ يستحثنى بقوله :

ـــ ما بالك لا تجيب ؟

وفجأة وجدتك تقفز إلى ذهنى ، وشعرت باسمك يتخذ مكانه على طرف لسانى وقلت له :

ـــ عويس .

ـــ عويس .. يصلح لخلافتك ؟!

ـــ أجل .. عويس .

ـــ عويس ، الحمار الأبله الأبكم ، يصبح خليفة الشيخ قطة ؟! ما هذا بحديث عقلاء .. قل شيئا آخر .

ولكنى مع ذلك أصررت عليك وصممت على ألا أتخذ لى خليفة سواك ، وقلت للشيخ قطة إننى مسئول عنك .. ولكنه قاطعنى فى سخرية :

ـــ عويس يصبح خليفة الشيخ قطة ؟! والله لقد هزلت . الواد عويس الغبى ، يصبح سيدنا الشيخ عويس ؟! على أى حال أنت وشأنك .

وانطلق الشيخ قطة يقهقه ضاحكا .

وصمت الشيخ مبارك وأطرق برأسه برهة ، ثم رفع بصره إلى عويس وقال فى صوت عميق :

ـــ وهكذا يا شيخ عويس ، لا بد أن تعد نفسك لأن تتخذ موضعى بعد الرحيل .

ونظر عويس إلى الشيخ مبارك فى ذهول شديد ، وأخذ يتمتم قائلا : « الشم عويس » .. « سيدنا » ثم بدأ يتصور نفسه وقد ارتدى العمامة والمنظار وأمسك

بالمسبحة والعصا ، وأقبل الناس عليه يقبلون يده ويمسحون جباههم فى طرف جبته زيادة فى التبرك .

من كان يظن هذا ..؟! عويس .. يرث الخلافة ، ويضحى رب الضريح لا شريك له فيه .. ينام على الفراش ، ويأخذ الهدايا من كل حدب وصوب .. شاى ، وسكر ، ومنين ، وبن ، وعسل ، وفطير ، وبلح .. هذا والله ما لم يجسر على أن يأمله مرة واحدة فى حياته الراكدة .

وأى شىء يطلب منه تأديته فى مقابل هذا ؟. الصلاة ، « بسيطة » ، والتسبيح « أمر سهل » ، والتمتمة « مسألة هايفة » ماذا يطلب منه أكثر من هذا ؟.

وفجأة تذكر الكتاب والتلاميذ ، والتعريشة ، والألواح الصفيح .. هذه هى المعضلة الكبرى ، والعقبة الكئود .

وعض على أصبعه فى غيظ وندم وبدت على وجهه أبلغ آيات اليأس والفشل وقال للشيخ مبارك فى صوت خافت :

ــ لكن يا سيدنا الشيخ .. دانا معرفش أفك الخط !

كيف يمكن أن يصبح خليفة الشيخ مبارك وهو يجهل هذه الطلاسم التى يعلمها الشيخ للصغار من الصبية .

آه لو كان يعرف فك الخط .. لهان كل شىء .

يا له من حمار كسول !، ما ضره .. لو كان اتخذ مجلسه بين التلاميذ .. فهتف معهم : زين وفتحة زا : ره وفتحة را ، عين وفتحة عا .. زرع .

ونظر إليه الشيخ مبارك نظرة فاحصة ، وقال فى لهجة الواثق المطمئن :

ــ لقد فكرت فى كل هذا ، لا تخش شيئا ، فسأتولى أنا أمرك ، لا تقلق نفسك .

ــ كيف .. ألم تقل إنك راحل الليلة ؟

ــ أجل ! ولكنى أستطيع أن أهبط إليك حين أشاء . سأكون معك بروحى

أفعل لك ما تشاء .. كل ما عليك هو أن ترتدى العمامة والمنظار والجبة وتمسك العصا والمسبحة وتترك الباقى لى .

وهز عويس رأسه فى حيرة وقال متسائلا :

ـــ لست أفهم ما تقصد !

ـــ سيصاحبك عفريتى أينما حللت يفعل لك كل ما تريد ويرشدك إلى كل ما تبغى .. ولن يبصره أحد سواك .. ما رأيك ؟

ووجد عويس أن المسألة أعوص من أن يستطيع فهمها أو التفكير فيها ، ولم يجد خيرا من أن يكل أمره إلى الشيخ مبارك كما تعود أن يفعل فى كل شىء ، وقال فى لهجة ملؤها الاستسلام :

ـــ أمرك يا سيدنا .

ومر اليوم بعد ذلك بعويس ، وهو أشبه بالمذهول لا يعى من حوله شيئا ، لا يكاد يسمع الصبية يصيحون : زين وفتحة زا .. حتى يدق قلبه بشدة ، وتصيبه رجفة من قمة رأسه إلى أخمص قدمه ، ويقطر من جبينه العرق من فرط الوهم والخوف .

وانتهى اليوم وذهب الشيخ مبارك إلى فراشه وعويس ينظر إليه نظرات وجلة خائفة كأنه ينظر إلى عفريت .

ورقد الرجلان ، ووصل إلى أذن عويس صوت شخير الشيخ مبارك أجش عميقا كأنه يصدر من جوف قبر .

وبعد لحظات استغرق عويس فى نوم مضطرب ملؤه الأحلام الملأى بالعفاريت والأشباح .

* * *

وفجأة استيقظ على صوت يصيح به :

ـــ عويس .

من الذى ناداه ؟ إنه صوت يشبه صوت الشيخ مبارك ولكنه قطعا ليس صوت الشيخ مبارك ، فإن الشيخ مباركا قد رحل .

أجل ! لقد صعد إلى جوار الشيخ قطة . وأضحى عويس الآن ، خليفة الشيخ قطة ، بلا شريك ولا منازع .

ومرة أخرى سمع الصوت العفاريتى ينادى :

— عويس .

ويح العفريت الأحمق المغرور ! ما باله ينادى هكذا ، كأنما هو الشيخ مبارك نفسه ؟

لعله نسى أو تناسى مركزه هنا ، إنه مجرد خادم لا أقل ولا أكثر .. كل ما عليه أن يؤدى ما يطلبه منه ، ويقضى له ما يحتاج إليه .. وهو بعون الله لن يحتاجه إلا فى مسألة فك الخط . وتعليم الصبية ما تيسر من ضرب وزرع وأكل .. أما بعد ذلك فالله الغنى عنه ، إنه سيقوم وحده بكل ما تبقى من صلاة وتسبيح وتمتمة .

أجل ! هكذا كان الاتفاق ، أو هكذا وعد الشيخ مبارك قبل صعوده .. لقد أورثه كل ما ملك من ولاية ومشيخة ، وترك له الضريح بأكمله ، ولقد كان جديرا بأن يبقى كل ذلك له وحده لا يشاركه فيه إنسان لولا غباؤه وجهله بفك الخط ولكن الشيخ ترك له عفريته فى خدمته وتحت أمره .

فالوضع الآن قد تحدد بوضوح ، فعويس قد أضحى الشيخ مباركا .. وما تبقى من الشيخ مبارك . أى عفريته قد أضحى عويسا .

فالواجب إذاً أن يرقد عويس فى الفراش ، وأن يستلقى العفريت .. إذا كان لا بد له من الاستلقاء فوق الحصير .

وعلا الصوت مرة ثالثة يصيح ناهرا :

— وله يا عويس يا ابن الصرمة القديمة .

— ما شاء الله ، ما شاء الله .. هكذا يبدأ العفريت خدمته .

طبعا هو يظنه يجهل حقيقة الموقف ، ويحاول أن يشتمه فيتخذ منه موقف السيد كما كان يفعل الشيخ مبارك وهو يبدؤه بهذا السباب كما كان يفعل الشيخ ، ظانا أنه خادعه ومخيفه ومخضعه لسلطانه .

والله ليرينه عاقبة خداعه وسفالته .. صبرا يا عفريت الكلب !
ومرة رابعة .. انبعث الصوت مندفعا بسلسلة السباب المعتادة :
ـــ وله يا عويس .. يا تور .. يا ابن التور .
لا .. لقد زادها .. لا بد من ردعه وإلا ساق فيها .
وجلس عويس القرفصاء وصاح بأعلى صوته حانقا :
ـــ عايز إيه من عويس ؟
ـــ مالك بتزعق كده يا واد ، انت اتجننت .
ـــ أنا اللى اتجننت ؟ والله عال يا ولاد .. أنا برضك اتجننت ؟
ـــ يا واد وطى صوتك ، وماتزعقش كده .. وفوق لنفسك ، وقوم اعمل الشاى .
ـــ شاى ؟! كان عايز شاى ؟! أهو ده اللى ناقص !
ـــ أنت يا واد جرا لعقلك إيه النهارده ؟
ـــ طيب اتحمد أحسن لك ، وخلينى أنام .. إحنا ما صدقنا ربنا تاب علينا .
ـــ يعنى مش حا تعمل الشاى ؟
ـــ شاى لما يهرى جوفك .. مش كفاية مجعمز على السرير ، وسايبنى انام على الحصيرة .. قوم فز .. قامت قيامتك وانتصب ميزانك ، قليل الحيا ماتختشيش .
ـــ عويس .. فوق لنفسك يا عويس .
ـــ فوق انت ، كل واحد لازم يلزم حده هنا ويعرف مركزه .. من هنا ورايح تيجى تترمى مطرحى هنا ، وتعمل الشاى وتحضر لى المية أتوضا .. أنا مابقتش حاجة قليلة ، أنا الشيخ عويس على سن ورمح .. واعمل حسابك تقف ورايا فى الدرس ، وتمليني كلمة كلمة ، واوعى تغلط لحسن آوريك شغلك .. فاهم والا لأ .
ـــ لا .. الواد لازم جرى لعقله حاجة أكيد .. لازم عايز له قلمين على

سداغه يفوقوه .

وسمع عويس صوت القبقاب الخشبى يقرع البلاط مقتربا منه ، فظل يصيخ السمع حتى وجد شبح الشيخ يستقر أمامه فجأة بالعباءة على كتفيه والعمامة فوق رأسه وصاح به :

— إيه يا واد الكلام اللى انت بتقوله ده .

— وكان لابس العمة والعباية .. طب اقلع بأه بالتى هى أحسن ، اقلع احسن لك يا نصاب يا حرامى ، الحاجات دى كلها بقت بتاعتى ، اقلع بسرعة ، بلاش نصب عفاريت .

— أقلع إيه يا واد ؟

— اقلع العباية والعمة بتاعة الراجل .

— أنهى راجل ؟

— الشيخ مبارك .

— طب ما أنا الشيخ مبارك .. يا أعمى العين والقلب .

— وكان بتقول إنك الشيخ مبارك ؟

واندفع عويس يقهقه ساخرا ، وعندما هدأ ضحكه ، قال فى هدوء ناصحا :

— بقى اسمع يا أخينا . أنا ماحبش المناكفة ولا ينطليش علىّ شغل العفاريت ده .. الشيخ مبارك راح وانتهى أمره ، هوا اللى قايل لى كده بلسانه ، امبارح قال لى ان الشيخ قطة زاره فى المنام وقال له إنه عايز ياخده ، وإنه كان ناوى يطلع معاه لولا انه حب يوصينى على الشغل ويدينى شوية نصايح عشان اشتغل بداله ، ولما قلت له إن أنا معرفش افك الخط قال لى ماتخافش ، أنا حابعتلك عفريتى ، يعمل لك اللى انت عايزه .. يعنى انت دلوقت ماتزيدش عن خدام ، خدام فك الخط .. دى كل شغلتك ، فاهم والا لأ ؟ تقول لى وله يا عويس وله يا هباب ، وتفهمنى انك انت الشيخ مبارك .. ده كلام مايدخلش عقلى ، كلام نصب وتهويش .. فوت يالله اقلع العباية والعمه وحضر الشاى .. واتلم بالتى هى

أحسن .. أنا عايز عفريت ملحلح ونشط ، ماتعملش زى التنبل ، اللى اسمه عويس .. فوت ربنا يهديك .

ــ اسمع يا عويس يا خويه .. ربنا يهديك انت ، الكلام اللى قولتهولك دا كان حلم ، وأنا لسة ما متش ، لسة عايش لغاية دلوقت ، الشيخ قطة خلف ميعاده ، فاصبر عليه شوية لغاية ما موت ، أنا دلوقت الشيخ مبارك ، صدقنى .

ــ أيوه يا خوية خش فى عنيه خش .. أصلى حمار .. ينطلى عليه الكلام ده .. يروح الشيخ مبارك ، الله لا يرجعه تلاقى عفريت الشيخ مبارك .. فوت انجر اعمل الشاى ، واقلع اللى أنت لابسه ده .

وهنا نفد صبر الشيخ مبارك ، ورفع كفه ، وانهال بها على صدغ عويس بكل ما فيه من قوة صائحا :

ــ قوم جاك خابط فى نافوخك . تور ابن تور ، قوم .

وقام عويس وتفرس فى وجه الشيخ مبارك لحظة وهو يعض على نواجذه ثم قال فى غيظ مكتوم :

ــ برضك دا اللى انا عامل حسابه ، سكتنا له ، دخل بحماره ، بقى اسمع اما اقول لك .. هى زرع والا ضرب دى حاتجيب القليعة .. ياخى بناقص زرع وضرب .. مش ضرورى الأولاد يعرفوا الكلام الفارغ ده ، أدحنا طول عمرنا كويسين من غير زرع وضرب .. نقفل الكتاب ده ونفضها سيره .

وفكر عويس برهة . إن خير ما يفعله هو أن يمسك بالعفريت ويلحقه بصاحبه إلى حيث الشيخ قطة ، وبذا يخلو له الجو .

وفجأة رفع عويس هراوته ، وانهال بها على رأسه ، فخر على الأرض صريعا .

واستيقظ أهل القرية ، ليجدوا الشيخ مباركا مضرجا بدمائه ، قتيلا فى رحبة الدار .. أما عويس فقد استقر به المقام فى مستشفى المجاذيب ، متمتعا بالخلافة ، مصرا على أنه خليفة الشيخ قطة .

سي جمعه

سي جمعة هذا .. إنسان لا أظن من السهل وصفه .. ولا من السهل معرفة مهنته .. ومحل إقامته .. أو فهم خلقه وشخصيته .. وإن كان أبرز ما فيه .. أو ما يمكن معرفته عنه .. هو أنه لاعب كرة قديم .. كان له سابق مجد وتالد عز .

لم يكن هناك شك فى أن هناك جديدا قد طرأ على « سى جمعة » .

وقبل أن نحاول شرح هذا الجديد الطارئ على « سى جمعة » لا بد لنا أن نشرح « سى جمعة » على قديمه .. أو على ما تعود أن يكون عليه قبل أن يطرأ عليه الجديد الطارئ .

سى جمعة .. أو جمعة أفندى .. أو جمع .. كما تعود أن يدللْ من الأقربين إليه أو محمد محمد محمد عبد الرحيم جمعه .. أو كما تعود هو أن يكتبه فى أوراق الامتحانات .. أو كما كان يناديه الشيخ زينهم مدرس الخط العربى الذى كان يأبى إلا أن يناديه باسمه الكامل حتى ولو ناداه مائة مرة خلال خمس دقائق .

سى جمعة هذا .. إنسان لا أظن من السهل وصفه .. ولا من السهل معرفة مهنته .. ومحل إقامته .. أو فهم خلقه وشخصيته .. وإن كان أبرز ما فيه .. أو ما يمكن معرفته عنه .. هو أنه لاعب كرة قديم كان له سابق مجد وتالد عز .

ولسنا نعنى بذلك أنه قد أضحى « عزيز قوم ذل » .. فهو لا يذل أبدا مهما أصابه ، ولا يخنع مهما أخنى عليه الدهر ورق به الحال .. بل هو يرى نفسه دائما « كابتن » فى كل وقت وفى كل مكان .. فما استطاع الفقر والبهدلة ، والوهن

والعجز .. أن تنزع من رأسه أنه .. « الكابتن جمعة » السنترفوروارد الذى لا يشق له غبار .. ولا يقعقع له بالشنان .

واستمر جمعة طالبا فى المدرسة يقضى يومه على المقهى الكائن على ناصية الشارع فى لعب الورق « والطاولة » مع بقية الشلة المكونة من لاعبى الكرة الفاسدين والطلبة « المزوغين » .

واستمر جمعه فى البزوغ ومرت به أيام ذهبية .. اشتهر فيها وتناقلت اسمه الألسن ، وأضحى يحس فى نفسه .. كلما سمع هتافا باسمه .. أو حمل على الأعناق كأنه زعيم قومى .

ولم يطل بنجمه البزوغ .. فسرعان ما أفل كغيره من لاعبى الكرة السريعى الأفول .. وبدأت نهايته بانحداره إلى السهر فى الكباريهات وباستبدالها بمقهى الوردة البيضاء .. كازينو استانبول .. وبدخوله فى دور « رفق » مع سنية بعزق .

وهكذا حلت نهايته كلاعب كرة .. وأغلقت فى وجهه النوادى .. ليفتح فى وجهه باب « سنية بعزق » على مصراعيه ويدب فى جسده الوهن والنحول والاسترخاء .. ومع ذلك فما نسى قط أنه الكابتن جمعة .. بل استمر حنينه إلى اللعبة يدفعه إلى مشاهدة كل مباراة من المباريات الكبرى .. وإلى « حشر » نفسه « والمنكرة » بين اللاعبين .

وانقطعت عن جمعة النقود التى كانت تدرها عليه قدرته فى لعب الكرة من النوادى ومن المباريات .. وأضحت موارده محصورة فيما كانت تعطيه إياه صاحبته الراقصة .

واستمر جمعة يرتع فى حياة بوهيمية صاخبة منهكة حتى كان ذات صباح لاحظت سنية أنه قد استيقظ مبكرا على غير عادته .. وأنه قد أقبل على حلاقة ذقنه بعناية ، وسألها أن ترسل ملابسه إلى الكواء .

ولم يكن هناك شك فى أن جديدا قد طرأ عليه ، وأنه مقبل على حدث جلل .

فما كوى بذلته منذ أن وضعها على جسده .. وما حاول من قبل أن يرتدى كرافته وأن يصلح هندامه .

واستفسرت أم سنية عن الطارئ الجديد فأنبأها فى ثقة أنه سيحصل على وظيفة محترمة .

وغادر جمعة الدار ، وسار — لأول مرة فى حياته — فى تؤده واتزان ، وقد كسا نفسه هيبة كبار الموظفين .

وانفرجت شفتاه عن ابتسامة واسعة ، وهمس لنفسه : « والله عال يا ابراهيم .. يا فلاح يا ابن الفلاح .. بقيت من كبار القوم .. بس إياك ماتطلعش ندل وتنسى الجميل » .

وإبراهيم هذا .. هو إبراهيم الفيومى .. أو إبراهيم الفلاح ، الذى كان زميلا لجمعة فى المدرسة ، والذى كان موضع سخرية الطلبة وضحكهم لفرط ولعه بالكرة ، وخيبته فيها .

كان إبراهيم الفلاح يتمنى أن يكون لاعب كرة ، وكان ينظر إلى جمعة نظرته إلى أصحاب المعجزات ، وكان يحس له نفس الاحترام والتقدير الذى يحسه لسيدنا الحسين والسيد البدوى ، وكان أقصى رغباته هو أن يصاحبه فى المباريات ويحمل له حقيبته .

وفى ذات يوم تغيب أحد أفراد الفريق الثانى فى إحدى المباريات فتعطف جمعة عليه وأنزله بدل الغائب ، وهكذا حقق له أمنية طالما تلهف عليها ، ووهبه فرصة فى حياته يرتدى فيها فانلة الكرة المخططة والحذاء ذا الرباط الطويل الأبيض « والاستدز » .

وباعدت الظروف بين جمعة وصاحبه الفلاح ، واستقر إبراهيم مع أبيه فى البلدة يساعده فى إدارة مصنع النسيج الذى احتوى بضعة أنوال يدوية . ومرت الأيام وبدأ جمعة يسمع عن اتساع المصنع وتضخمه خلال الحرب حتى أضحى جمعة يقرأ بين آونة وأخرى الإعلانات الضخمة فى الصحف عن مصانع الفيومى

للغزل والنسيج وعن مدى أثرها فى النهضة الصناعية .

وفى ذات يوم استلفت نظره صورة صاحبه الذى كان ما زال يصر على تسميته « الواد الفلاح » وقد وضعت فى مكان بارز فى إحدى الصحف الصباحية الشهيرة وقد كتب تحتها « صاحب العزة إبراهيم بك الفيومى » وأنه يشكر كل من تفضل فهنأه بالإنعام السامى .

وفى ناحية أخرى من الصحيفة قرأ خبرا آخر أن الوفود ما زالت تترى على دار الوجيه إبراهيم بك الفيومى لتهنئته بالعطف السامى الكريم .

وفى ناحية ثالثة قرأ خبرا ثالثا مؤداه إن إبراهيم بك الفيومى صاحب مصنع الغزل والنسيج قد تبرع بمبلغ سبعة آلاف جنيه لمشاريع البر .

وأصاب جمعة دهش شديد وترك الصحيفة جانبا .. وشرد به الذهن بعيدا فى الأيام الخوالى .. أيام كان صاحب العزة يتلهف على أن يحمل حقيبته التى وضع فيها ملابس الكرة مرة واحدة وتذكر فرحته الشديدة عندما أدخل ضمن الفريق فى إحدى المباريات ، وتذكر عدوه فى الملعب وقد تدلى شرابه وبدت ساقاه كالجريد وانطلق بين اللاعبين كالثور الهائج دون أن تمس قدمه الكرة مرة واحدة .. أضحى صاحب عزة !! ووجيها !! ولم يستطع أن يكتم ضحكة انطلقت من فمه ، وأخذ يردد لنفسه « الفيومى بك ، الوجيه إبراهيم بك ، صاحب العزة » وانطلق يقهقه بشدة متذكرا منظر « الواد الفلاح ابن الفلاح » الذى بينه وبين الوجاهة ما صنع الحداد .

وفجأة مر بذهنه خاطر أفعمه سرورا .

هذه والله فرصة هائلة .

لِم لا يذهب إلى الواد إبراهيم بك ، فيأمره بأن يعطيه عملا فى مصانعه الكبرى ! إنه لا شك ما زال يحس له بعض الرهبة القديمة ، وما زال يعتبره الكابتن جمعة ، أو جُمَع « أبو رجل دهب » وليس هناك أسهل عليه من أن يهبه منصبا محترما .. مدير فرع .. أو مدير قسم .. أو باشمهندس أو أى شىء من هذا

القبيل ؟

ووصل أخيرا إلى إدارة المصنع ، دار فخمة البناء مليئة بالحركة ، ودلف بين الحجرات سائلا عن إبراهيم بك فقاده أحد السعاة إلى مكتب السكرتير .

وسأله السكرتير فى ازدراء ظاهر :

ـــ نقول له مين ؟.

ـــ جمعة .. الكابتن جمعة .

وقلب السكرتير شفتيه ثم قام متباطئا ، فغاب برهة فى غرفة مجاورة ثم عاد يقول :

ـــ ادخل .

وفتح الباب ودلف إلى الحجرة التى كتب عليها « المدير » ووجد « المدير » قد جلس على مكتب فخم ، وقد أحاط نفسه بأروع مظاهر الأبهة والوجاهة .

وارتبك جمعة ، فلشد ما وجد صاحبه قد تغير ، وبدت عليه سيما كبار الرجال وأضحى كل ما به وما حوله وما فوقه وما تحته وجيها فعلا ، اللهم إلا ذلك الوشم الأخضر ، الذى بدا على ظهر يده .

وتردد جمعة برهة ، ولم يدر كيف يقبل على صاحبه ، ولا كيف سيتلقاه صاحبه ، ولم يجد خيرا من أن « يسوق الهبالة على الشيطنة » ويهجم عليه ويأخذه بالحضن ، دون أن يعطيه فرصة الكبر والترفع .

وانتهى الصاحبان من العناق والتقبيل ، وجلس جمعة وقد وضع ساقا على ساق واندفع يذكر صاحبه بما مضى وبأيام زمان ، ولم يبد على إبراهيم بك أن تلك الذكريات تسره كثيرا ، وحاول جهده أن يختصر الحديث وأن يقود جمعة إلى الإدلاء بغرضه الرئيسى من الزيارة .

واسترسل جمعة فى سرد الذكريات قائلا وهو يقهقه بلا كلفة :

ـــ والله زمان يا وله يا إبراهيم !

وانبعثت من عينى إبراهيم بك نظرة وجلة خائفة متردد بين الباب وجمعة .

كان الرجل حائرا فهو لا يستطيع أن ينهر هذا الحيوان المندفع فى ثرثرته المشئومة الفاضحة لأنه يخشى عواقب هذا النهر ، ويخشى إن أغضب هذا الأحمق أن يمعن فى غيه وتنقلب ثرثرته البلهاء غير المقصودة إلى ثورة جامحة يثير بها ضجة كبرى ، بل ربما اعتدى عليه بالضرب قبل أن يتمكن السعاة من إنقاذه ، فهو لم يكن يتورع وهو تلميذ عن أى شيء ، حتى عن ضرب الناظر لو استدعى الأمر ، فما بالك الآن وبعد أن جاوز التلمذة وأصبح كما يبدو متشردا لا يأبه لعاقبة ولا يخشى نتيجة !

وابراهيم بك رغم بكويته ورغم العز والسؤدد والأبهة والفخامة التى يرفل فى حللها الآن قد وجد نفسه يتضاءل فجأة أمام هذا المتشرد الوقح فقد نجح فى جره معه إلى الماضى البغيض فإذا به يشعر أنه قد بات فعلا الواد ابراهيم الفلاح ، وأن الذى أمامه هو الكابتن جُمَع « أبو رجل دهب » ذو الحول والشهرة والسلطان .

وهكذا كان من المتعذر .. بل من المستحيل .. وقفه عند حده .. وإسكاته عن ترديد ذكرياته المزعجة المشينة ، وكذلك كان من المستحيل أيضا السكوت على هذا الحال وتركه يستمر فى ثرثرته الخطيرة اللانهائية .. لا لأن إبراهيم يتأذى من سماعها .. فقد كان يستطيع سماعها بسهولة .. بل ربما لو كانت على حدة لوجد فى ترديدها بعض المتعة .. ولكن لأنه كان يخشى أن يدخل السكرتير أو أحد الموظفين فجأة فيصل إلى أسماعه بعض ذلك الهذيان الذى يهرف به صاحبه .

واستمر جمعة يقول :

ــ فاكر يا ابراهيم .. أيام ثانوى .

وهم ابراهيم بأن يقاطعه قائلا :

ــ فاكر يا سى جمعة .. فاكر كل حاجة .. بس مافيش لزوم للحاجات دى دلوقت .. الله لا يسيئك . ؟

ولكن جمعة لم يترك له الفرصة لمقاطعته فقد استرسل قائلا :

— فاكر لما هفتتك نفسك على لعب الكورة فرحت مسهينا وقالع البنطلون ونازل الملعب تجرى ورا الكورة باللباس الطويل الدمور ابو دكة بشراشيب مدلدلة وقعدت تبرطع زى الحمار الحصاوى .. والتلامذه يسقفوا لك ويقولوا : « الكورة فين ؟.. جوه لباسه » .

واندفع جمعة فى زوبعة من القهقهة وهو يردد قوله :

— فاكر ؟

وهز إبراهيم بك رأسه فى يأس واستسلام وقال :

— فاكر .

— وفاكر لما ...

ولكن إبراهيم بك نهض من مقعده جزعا وقال فى توسل :

— ثانية واحدة يا سى جمعة .. جى لك حالا .

ثم أسرع إلى الباب وأطل منه مناديا السكرتير قائلا :

— يا على افندى ، وحياة أبوك ماتدخلش حد عندى دلوقت لحسن مشغول شوية مع الأستاذ جمعة .

ثم أغلق الباب وعاد إلى مقعده وقد هدأ باله بعض الشيء .

وفرك جمعه يديه ودفع طربوشه إلى الخلف كأنه يستعد لخوض معركة وعاد فى ترديد سلسلة الذكريات الممتعة قائلا :

— فاكر يا ابراهيم لما ابوك جاب لك البتاو وقعد يستناك على الرصيف أمام المدرسة يوم الخميس .. وكان عندنا ماتش كورة ، وبعدين شيلناه اللبس مع عم عمارة فراش الكورة .. وبعد الماتش لبسناه الفانلة المخططة و ..

وأجاب إبراهيم مقاطعا وهو يتصنع الابتسام :

— فاكر .. فاكر .. كانت أيام لذيذة .

وقال لنفسه :

« وبعدين فى ابن الكلب ده ... هوا قصده إيه بالضبط بالفضايح دى ؟! مش

يتكلم ويريحنى بقى ؟ » .

— حقيقة كانت أيام لذيذة . اللى فات مايتعوضش أبدا .

وانتهز إبراهيم الفرصة وأسرع بتحويل دفة الحديث متسائلا :

— وازاى الحال دلوقت يا سى جمعة .. فين أراضيك ؟

وبمنتهى البساطة أجاب جمعة :

— فى وش البركة .

— فين ؟!!..

— فى وش البركة .

— قصدى بتشتغل فين ؟

— برضك فى وش البركة .

وأحس إبراهيم بالارتباك والخجل ولم يكن هناك وجه لسؤاله عما يعمله هناك· إذ لم يكن العمل فى مثل هذا المكان ليخرج عن عملين أشرفهما مشين .

ولكن جمعة ألقاها بلا خجل وبدون أن يوجه إليه إبراهيم سؤالا :

— بلطجى .

ولم يعرف إبراهيم بماذا يعلق على قوله ، فلاذ بالصمت . ولم يجد جمعة بدأ من أن يعلق هو .. فقال :

— شغلانة مش بطالة .. مريحة .. أكل ونوم وراحة وخناقة قول كل شهر مره .

وساد الصمت وكان على إبراهيم أن يقول شيئا فتساءل لمجرد الحديث :

— ومبسوط على كده ؟.

— رضا .. ولو ان اليومين دول الحالة بطالة ، وابتديت ازهق من القعده ، وقلت الواحد لازم يشوف له شغلانة .

هكذا ؟!!.. إذن لقد وضح الأمر أخيرا .. لقد أتى جمعة باحثا عن عمل .. أو هو بالعربى .. يريد الانتقال من « وش البركة » إلى « مصانع الفيومى » .

وصمت إبراهيم وتظاهر بفحص بعض أوراق أمامه ، وعاود جمعة حديثه قائلا :

ـــ قعدت افكر .. اشتغل فين .. اروح لمين .. وبعدين بامسك الجرنان لقيت صورتك فيه .. أقول لك الحق اتخضيت افتكرتها صفحة الوفيات لكن بقرا كده لقيتك بقيت بيه وبقيت أشيتك رضا .. قلت فرجت .. مافيش حد حايلمنى غيرك .. جدع طيب وطول عمرك على أد إيدينا .. ومش حايصعب عليك تلاقيلنا فى الشركة شغلة كده والا كده .

شغلة كده والا كده ؟!!.

وماذا يستطيع مثل هذا الحيوان الآدمى أن يفعل ؟! وكيف يأمن لوجوده وهو حريص على ترديد مثل هذه الذكريات بمنتهى البساطة .. وماذا يفعل إذا فاجأه أمام العمال بقول « فاكر لما ابوك جاب لك البتاو وقعد على الرصيف ؟.. إلخ » .

ولكن كيف يتخلص منه . إنها مشكلة .. إنها مصيبة ـــ كما يقولون ـــ وطبلت على دماغه .. على أية حال .. ليس هناك من حل الآن .. سوى مداراته ، ووعده بوظيفة والتخلص منه مؤقتا لحين التفكير فى حل له . فقد يستطيع أن يوجد له عملا فى فرع فى إحدى البلدان وبذلك يضمن بعده عنه ، ولكن أيرضى الكابتن جُمَع بوظيفة حقيرة خارج القاهرة ؟.. إنه يبدو كأنما يريد أن يجلس على مقعده هو أو أن يصبح على الأقل وكيل الشركة .

ما علينا .. نبعده الآن بأى وعد نصرفه به .

وقبل أن يفتح فاه ، برق فى ذهنه خاطر مفاجئ ، وجد فيه حل لمشكلة مستعصية ، حل يضرب به عصفورين بحجر .

تذكر أخته زكية العانس .. التى تنغص عليه حياته بطول شكواها من قلة الجواز وميلة البخت .. والتى لا تكف عن العراك مع زوجته حتى كادت تتسبب لهما فى الطلاق بضع مرات دون أن يعرف كيف يتخلص منها .. بعد أن

عجز تماما عن إيجاد عريس لها .

هذه فرصة سانحة لصفقة رائعة ، فجمعة لو هداه الله سيكون خير عريس لأخته زكية ، وليس أنسب من هذه اللحظة لانتهاز الفرصة والمقايضة بالوظيفة على زكية .

ووضع إبراهيم ابتسامة عريضة على شفتيه وهز رأسه وقال فى لهجة شديدة النعومة :

— يا سلام يا كابتن جمعة ، إحنا ديكى الساعة لما تقبل تشتغل عندنا .. دا شرف كبير للشركة .. دى خطوة عزيزة يا بو رجل دهب .. أنا زمان نفسى أشوفك .. عشان نعيد أيام زمان .

وانتفخت أوداج جمعة وازداد اتكاء على كرسيه ، وأجاب بقوله :

— أنا برضك عارف كده .. عارف ان أملى مش حايخيب فيك أبدا انت طول عمرك ولد طيب وابن حلال .

ولد ؟ يا بن الكلب ؟!! البكوية اللى دفعت فيها سبعة آلاف جنيه ما زالت ساخنة وتقول لى ولد ؟.

ولكن صبرا .. لا بد من تحملك فى سبيل التخلص من زكية وبلاويها .

واستمر إبراهيم فى قوله :

— الشركة تحت أمرك ، أنا حاشوفلك وظيفة عال تناسبك كويس .. بس ..

— بس إيه ؟.

— بس اياك ربنا يهديك ويتوب عليك من السيرة اللى انت فيها .. ويلمك على بنت الحلال .. وتستكن فى بيت نضيف ظريف .

— يا ريت يا ابراهيم يا خوية .. فين بنت الحلال اللى ترضى بى .

— ليه هو انت وحش .. دانت لقطة .

— على العموم لما نترستأ فى الوظيفة يبقى يحلها المولى .

— المولى حاللها والأشيا معدن .. والوظيفة موجودة وبنت الحلال موجودة .

— بنت الحلال ؟!! أنت بتتكلم جد ؟.

— وابو الجد .

— إزاى بقى ؟.

— زى الناس .. أنت مانتاش غريب أنت زى أخويه وأنا طول عمرى أودك وأحبك ، واهى فرصة نتناسب فيها ونخلى زيتنا فى دقيقنا .

— ولا أنا فاهم حاجة .

— ودى حاجة عايزة فهم .. أنا عندى أخت هدية .. إياك ربنا يجعلها من نصيبك .

— أختك أنت ؟!!

وظل جمعة محملقا بعينيه فاغرا فاه .. و« أخت إبراهيم » تطن فى أذنيه وتدور فى رأسه .

عجيبة ؟!!.. يتزوج أخت الواد إبراهيم الفلاح ؟.. أستغفر الله .. بل أخت إبراهيم بك الفيومى ؟!!.

من يصدق أن الزيارة كان يمكن أن تنتهى إلى مثل هذا !

لقد أتى يطلب وظيفة ، فخرج بوظيفة وعروس ، صدق من قال « الفقى لما يسعد تجى له خاتمتين فى ليلة » .

وكان لا بد من مرور فترة من الوقت حتى يهضم المفاجأة وتخف الصدمة وتهدأ النفوس وتستقر الفكرة فى الرءوس .

ولم تكد تمر الفترة المطلوبة ، ولم يكد يقلب جمعة الفكرة فى رأسه ، ويجدها فرصة العمر حتى قفز من مكانه وهجم على إبراهيم يحضنه ويقبله ويصيح به :

— يا سلام يا ابراهيم ، أنا طول عمرى قلبى يحبك ، وياما كنت اقول لهم الواد ابراهيم الفلاح ده ، حقيقى غبى وحمار ، لكن ابن حلال مصفى .

وأخيرا غادر جمعة المكتب بعد قراءة الفاتحة ، وبعد أن اتفق معه على زيارة منزلية يتم فيها اللقاء والاتفاق على بقية إجراءات الزواج .

وخرج جمعة يسير مترنحا نشوان وكأنه رأى ليلة القدر.ولكنه تذكر فجأة ما أنزله من علياء أوهامه وأحلامه ، وما ملأه غما وهما .

تذكر سنية بعزق !

ماذا يقول لها وكيف يتخلص منها ؟. كيف يخبرها أنه سيتزوج ؟

ولاح له الحل السعيد فانبسطت أساريره مرة أخرى ، المسألة بسيطة ، بل غاية البساطة ، ليس عليه إلا أن ينبئها أنه وقع فى صيدة غنية بحبوحة ، يستطيع أن يستنزف منها ما شاء من النقود ، فتهيئ لكليهما حياة سعيدة ، وأنهما لن يصيبهما ضنك بعد الآن ، بعد أن عثر على ذلك البنك المتدفق نقودا .

وعاد جمعة إلى صاحبته وروى لها القصة كما حورها فى ذهنه وأنبأها أن علاقتهما ستظل كما هى لن يصيبها وهن وأنها ستبقى هى الكل فى الكل ، أما الأخرى فلن تكون أكثر من مورد للمال .

وتقبلت سنية الأمر مستسلمة ، مصدقة ، فما كانت تملك أمام جمعة سوى التصديق والاستسلام ، بعد أن عاهدها أنها ستظل خليلته مهما حدث .

وبعد يومين ذهب جمعة إلى بيت إبراهيم مرتديا حلة جديدة اشتراها بعد أن باع بعض حلى سنية .

ووقف أمام البيت الفخم يقرع الجرس،وبعد برهة أطل الخادم النوبى ، فسأله فى تأدب :

— إبراهيم بيه موجود ؟

— لأ .. خرج .

— راح فين ؟

— المستشفى .

— المستشفى ؟ ليه كفى الله الشر ؟

ـــ عشان الست أخته حاتعمل عملية .

عملية ؟؟ وامضيبتاه .. حقا قليل البخت يلاقى العضم فى الكرشة .

أية عملية هذه التى قد استحكمت الآن .. ألم يكن من الممكن تأجيلها حتى يكتب الكتاب ويصبح وريثها الشرعى ؟

والمصيبة العظمى .. أن « تحبك » المسألة .. وتموت فيها .

أهناك أسوأ من هذا حظا ؟..

تظل المرأة .. على قيد الحياة .. لا يقربها الموت .. طيلة هذا العمر المديد .. فلا تكاد تستحل له .. ولا يكاد يهم بالتهامها .. حتى تعمل عملية وتموت .

ولكن ما الداعى لهذه الوساوس .. إنه ستشفى بإذن الله .. إن الحظ قد واتاه ولن يغادره بعد ذلك .

وأخذ جمعة أقرب ترام ، وبعد نصف ساعة كان يجلس فى المستشفى ضمن الأهل والأقارب والأصدقاء .. وقد جلس منتفخا على أحد المقاعد كأنه الديك الرومى .. ولِم لا ؟! أليس هو أقرب الناس إليها ؟. أليس هو زوجها فى خلال أيام ؟

وطالت العملية .. وجمعة يدعو من قلبه أن يكلأها الله بالعناية .. على الأقل حتى يتم الزواج ... وبعد ذلك ليأخذها وقتما شاء وكيفما شاء .

وأخيرا انتهت العملية .

ترى ما النتيجة ؟!! خير يا رب خير .

ولكنه لا يرى على الوجوه المتجهمة أى خير .. إنه يسمع همهمة ودمدمة وتساؤل .. إن سيماهم لا تنذر إلا بالسوء .

ويحه !! أترى المرأة قد فعلتها وماتت .. من سوء بخته .. ولكنه لا يسمع صوتا ولا يبصر دموعا .. إذا كانت قد ماتت أفلا أقل من بعضِ النهنهة أم ترى البكاء محرما فى المستشفيات ؟

وأخيرا لم يطق الانتظار .. وكاد القلق والشك يقتلانه فاندفع إلى أخيها

إبراهيم الفيومى العابس الوجه المقطب الجبين وانحنى به ناحية قصية وسأله فى لهفة :

— إيه يا ابراهيم ؟! فيه إيه .. إزاى الحالة ؟

وأطرق إبراهيم برأسه ثم اقترب بفمه من أذن جمعة وهمس بعض كلمات .

ولم يكد جمعة يسمع الهمس حتى انطلقت منه صيحة لم يستطع كتمانها ووقف برهة واجما ذاهلا كأنما قد نزل عليه سهم الله .

وأخيرا أفاق لنفسه وغادر المستشفى وهو يهز رأسه حزنا وأسفا وقد بدت عليه أقسى آيات الخيبة والفشل .

ووصل إلى سنية بعزق فأذهلها مظهره اليائس البائس ، وأقبلت عليه تسأله فى دهش :

— إيه الحكاية ؟ مالك .. كفى الله الشر .. قوللى حصل إيه .. طردوك ؟.

— لا .

— أمال إيه ؟.

— رحت لقيت العروسة فى المستشفى بتعمل عملية .

وضربت المرأة بيدها على صدرها :

— وبعدين .. يا ندامة .. جرى لها إيه ؟

وأجاب جمعة وهو يهز رأسه أسفا :

— ولا قبلين .. قليل البخت يلاق العضم فى الكرشة . خلاص .. طارت

— طارت ؟

— أيوه طارت .. برمت .

— يعنى إيه طارت وبرمت ؟

— يعنى طارت من إيدى وبرمت من الجواز .

— قصدك ماتت ؟

— ما متتش ولا حاجة .

ــ أمال جرى لها إيه ؟ فهمنى .. غلبتنى .

وصمت جمعة برهة ثم أطلق زفرة حارة ملؤها اليأس وقال فى أسى :

ــ قلبت راجل .

ــ قلبت إيه ؟

ــ راجل .

ــ مش ممكن ...

ــ اللى حصل .. قعدت اربعين سنة نتاية .. ماحللهاش تنقلب دكر إلا لما خطبتها .. مش بقول لك قليل البخت يلاقى العضم فى الكرشة .. أربعين سنة وهما يقولولها الست زكية .. يوم ما نويت اخطبها دخلت المستشفى .. وطلعت زكى افندى .. بس اعمل إيه فى الفقر الدكر اللى مش عاوز يحل عنا ؟

ــ ولا يكون عندك فكرة .. مره .. راجل مش حاينفد منا أبدا .. إذا كان حايرجع مره أهو من قسمتك .. وإذا استمر راجل مانيش عتقاه .

الأستاذ شملول

لم يكن هناك ما يدعو شملول أفندى إلى التفكير فى الرحيل ، أو المغامرة ، وهو القعود الكسول البطىء الحركة .. الذى كف عن النزهة .. منذ مشوار « جنينة النزهة » والذى كانت أقصى متعته الجلوس على قهوة الانشراح القائمة على ناصية الشارع حيث يلعب « عشرة طاولة » ويشد أنفاسا من الشيشة .

وأخيرا قرر شملول أفندى الرحيل .

لقد كانت المسألة بالنسبة إليه مغامرة كبرى تحتاج منه إلى كثير تروّ وتفكير .

ومع ذلك فقد قرر ، وانتهى الأمر .

حرام عليه أن يضيع عمره سدى .. ما قيمة الحياة إذا جرت على هذا النمط البليد المتكرر المتشابه ؟

من يصدق أنه قد بلغ الأربعين دون أن يغادر القاهرة مرة واحدة ؟

أربعون عاما قضاها فى ذلك النطاق الضيق بين الناصرية والسيدة وشارع خيرت والدواوين .

فى طفولته .. كان مجال حركته وغدواته وروحاته لا يتعدى شارع الناصرية .. ففيه كان البيت وفيه كان الكتاب ، وفيما بينهما كانت تقع كل أمانيه وأقصى مطالبه من المقلة .. إلى بائع الكشرى .. إلى بائع البخت والزمامير .

إنه لا يذكر أنه قد تعدى شارع الناصرية إلا مرتين .. مرة كمستكشف .. حيث دفعه دافع الفضول وحب المغامرة والشقاوة إلى أن يتجاوز

الكتاب .. ويندفع إلى أقصى الشارع حتى بلغ شارع الكومى وتطلع ببصره إلى مجاهل ميدان السيدة ورأى بعينى رأسه المئذنة والترام وأبصر الناس .. يغدون فى الميدان ويروحون غير هيابين ولا وجلين ، وأتم المغامرة بشرائه قطعة من « حلاوة زمان » الملفوفة على العصا الطويلة ، وأخيرا عاد إلى بيته سالما آمنا .

تلك كانت المرة الأولى .. أما المرة الثانية فقد كانت فى العيد .. حيث خرج هو وأخته نفيسة وخاله عبد الصبور وقد لفوا العيش والسمك البكلاه فى صرة كبيرة ، قاصدين إلى « جنينة النزهة » .

ومن يومها .. لم يذهب إلى نزهة قط .. لقد كانت جنينة النزهة تقع فى حى جاردن سيتى ، وقد تبدو المسافة بينها وبين الناصرية الآن بعد أن كبر .. مسافة معقولة لا يصعب سيرها على الأقدام .. أما يوم ذاك وهو يعتبر ميدان السيدة فى أقصى الأرض ، فقد كانت جنينة النزهة أبعد من الجوزاء .. لا سيما وقد كان الحذاء جديدا عقر قدمه ، وأجبره على العودة حافيا .

وفى الصبا والشباب والكهولة .. لم يضطره شىء إلى الخروج عن نطاقه الضيق المحدود بين الناصرية والسيدة ، إذ لم تكن الناصرية الابتدائية أبعد من الكتاب ، وكانت مدرسة رقى المعارف وغيرها من المدارس الأهلية الثانوية التى تنقل بينها لا تتعدى ميدان السيدة ، وحتى بعد أن فشل فى المدارس وتاب عليه ربنا من تعب الدراسة وقرف الامتحانات ورزقه بابن الحلال الذى سعى إلى توظيفه .. كان مقر عمله لا يتجاوز شارع الدواوين ، واستمر راقدا بين جدران أرشيف وزارة المالية عشرين عاما .. كأنه خطاب حكومى عاجل !!

ولم يكن هناك ما يدعو شملول أفندى إلى التفكير فى الرحيل أو المغامرة ، وهو القعود الكسول البطىء الحركة .. الذى كف عن النزهة ، منذ مشوار « جنينة النزهة » والذى كانت أقصى متعته الجلوس على قهوة الانشراح القائمة على ناصية الشارع حيث يلعب عشرة طاولة ويشد أنفاسا من الشيشة .

ولقد قضى الرجل حياته عزبا .. لمجرد أنه يكره التغيير من حال إلى حال ،

واستمر يعيش مع أمه وأبيه بنفس الوضع والكيفية التى كان يعيش فيها وهو طفل فى الكتاب .

وعلى ذلك فيمكننا أن نرى مبلغ وقع المفاجأة فى نفس والديه عندما أنبأهما ذات يوم أنه سيسافر .

لقد ضربت أمه بيدها على صدرها وصاحت مذعورة :

— مسافر .. بره وبعيد .. تف من بقك سبع تفات . إيه يا خويا الكلام اللى زى السم اللى صابح تقوله ع الصبح .

— يام مسافر اتفسح .

— تتفسح ؟! وهو انت ناقص فسحة ، مانت طول النهار قاعد على القهوة .

— رايح اشم الهوا .. أغير مناظر .

— يا خويا انحط .. آل مسافر يشم الهوا .. وهى مصر ضاقت ، عندك ام الشعور ، عندك سيدى ابو السعود . كل ده مش مقضيك ؟

— أنا معزوم عند واحد صاحبى فى المكتب ، ساكن فى قليوب ، فى بيت وسط المزارع والخضرة ، وبقاله آدى ست أشهر يلح على عشان أقضى يوم عنده .. نصطاد سمك ونركب حمير .

— أصلك شملول قوى .. وصيد السمك لزومه إيه ؟ وهو السمك اللى عند عبد المعطى وحش .. اقعد وأنا ابعت اجيب لك حتتين جزل على حتتين بياض تاكل صوابعك وراهم .

— مش الغرض يا ام ..

— أمال إيه يادلعدى ؟

— الواحد عايز يغير شوية .. عايز يجرى بين الغيطان فى الشمس والهوا ، ويقعد على الترعة يشم النسيم ، ويتمتع يوم فى العمر بحياة الريف .

— يا بنى اعقل ، دانت عمرك ما عتبت بره الشارع .

— عشان كده عايز اسافر .. حافضل طول عمرى كده محبوس فى

الناصرية !! يا شيخة حرام عليك دانا عمرى ماركبت قطر سكة حديد .

وهكذا أصر شملول على السفر واعتبر المناقشة التى جرت بينه وبين أمه بمثابة استئذان فى السفر ، وذهب إلى الديوان وبنفسه إحساس المقدم على أمر جلل ، ولم يكد يلتقى بعلى افندى القليوبى حتى ساق إليه النبأ الخطير وهو أنه قد اعتزم أن يلبى مطلبه وأنه سيسافر إليه اليوم بعد الظهر ، ويبيت عنده ليلته ويقضى يوم الجمعة بأكمله ثم يعود فى المساء .

وانتهى موعد العمل وذهب كل منهما إلى داره بعد أن اتفق مع القليوبى على أن ينتظره فى المحطة حتى يقوده إلى البيت الذى يبعد بعض الشىء عن المحطة وسط المزارع .

وعاد شملول إلى داره وأخذ يكوم ملابسه فى إحدى الحقائب القديمة ، وأمه تنظر إليه فى دهشة وتتساءل :

— يا بنى ليه دا كله ؟

— مين يعرف .. أهو من باب الاحتياط .. يمكن الواحد يعوز غيار والا حاجة .

— هى مش ليلة اللى انت ناوى تقضيها ؟

— أيوه ليلة ، لكن الواحد لازم يعمل حسابه دايما ، ده سفر .. انت مستهونة بالسفر .. يمكن القطر يتعطل فى السكة ، أو يمكن المواصلات تنقطع بين مصر ، وقليوب .. مش جايز .. مش برضه الواحد يعمل حسابه .

وهكذا غادر الدار وقد حمل الحقيبة ، وارتدى معطفا أبيض كان لأبيه فى سالف الزمن ...واغرورقت عينا أمه وهى تودعه وتقبله ، وجلس أبوه على سجادة الصلاة ، يضيف إلى استغفاره من سابق ذنوبه دعوات لتحفظ ابنه وتعيده من سفره بالسلامة .

وسار شملول أفندى بهيكله القصير النحيل ، وأشداقه المطبقة ، وأجفانه الغائرة ، وقد نفخ صدره ورفع رأسه ، وأخذ يختال فى مشيته بين أهل

الناصرية .. ولم ينس أن يمر على المقلة فيملأ جيوبه باللب لكى يستعين بقزقزته على طول السفر ، وابتاع رطلين بسبوسة من « أبو على الحلوانى » حتى لا يدخل على صاحبه ويده فارغة .. ثم تلكأ فى طريقه برهة أمام المعلم كرشة الجزار ، وصاح به بصوت عال أن يؤجل إرسال الممبار والمخ إلى الجمعة القادمة لأنه مسافر ، وكرر كلمة مسافر بضع مرات حتى سمعتها زكية بائعة الفجل .. التى كان بينها وبينه استلطاف خفى متبادل .

وخرج صاحبنا من حى الناصرية منتفخ الأوداج كأنه ذاهب إلى ميدان قتال ، ووقف فى شارع خيرت ينتظر ترام نمرة ١٢ الذاهب إلى المحطة ، ولم يطل به الانتظار حتى استقر على مقعد الترام بجوار السائق .. وزمر الكمسارى وانطلق الترام فى سيره .

وشيئا فشيئا بدأت الشجاعة تتبدد والهمة تزول ، ولم يكد الترام يتجاوز ميدان لاظوغلى حتى أحس برهبة شديدة وبدأ يستعرض فى ذهنه الأخطار التى يمكن أن يمر بها ، والمهالك التى يوشك أن يتعرض لها .

ألا يحتمل أن يكون قد ركب الترام خطأ .. وقد يحمله إلى حيث لا يريد ؟! حقيقة أنه قرأ رقم ١٢ ، ولكن من يدريه أن بصره لم يخدعه ؟ وعلى أحسن الفروض أنه قد أصاب الترام المضبوط ، ماذا تراه فاعلا عندما يلقى به الترام فى باب الحديد ، ذلك الفضاء الواسع المضطرب ؟

وبدأ يتصور جرائد الصباح وقد كتب على رأسها بالخط العريض الأحمر « موظف بأرشيف وزارة المالية .. يضل فى باب الحديد » .. يا للخجل ! ويا للكارثة !. ولكن .. لا .. لا .. لا بد أنه سيجد من يدله .. حقيقة أنه يخجل من السؤال ، ولكن لا بد له منه .

ووسط هذه الهواجس والأوهام ، وجد الترام يقف فجأة فى باب الحديد .. أجل ! هذا هو تمثال نهضة مصر .. وتلك هى ساعة المحطة .

واندفع شملول أفندى من الترام كالقذيفة ، خشية أن يتحرك الترام قبل أن

يهبط منه .. ولم يجد هناك معنى لمخاوفه السابقة ، والمحطة أمامه تكاد تصرخ قائلة « أنا المحطة » .

ولكن المشكلة الكبرى .. كانت فى كيفية العثور على القطار الذاهب إلى قليوب ، وفى كيفية قطع التذكرة .. إن هذه مسألة فى منتهى الخطورة .. فليس بمستبعد أن يركب قطارا خطأ ، يلقى به فى غياهب القطر المصرى .. وليس بمستبعد كذلك أن يذهب إلى شباك الدرجة الأولى فيلهف بائع التذاكر الجنيه الذى يملكه ويعطيه به تذكرة درجة أولى .

إن المسألة تحتاج منه إلى منتهى الحرص والتروى .

لعنة الله عليك يا قليوبى .. ما كان أغناه عن مثل هذه المرمطة والبهدلة واللخمة .. لو لم يغره بتلك المخاطرة لكان الآن مستريحا فى قهوة الانشراح .. يسترق النظر إلى زكية بائعة الفجل .

وبستر من الله وجد نفسه أمام شباك الدرجة الثالثة لقطار بحرى المار بقليوب ، وبفضل الله وجد نفسه يستقر على أحد مقاعد الدرجة الثالثة بجوار النافذة ، وقد أخذ قلبه يدق خشية ونشوة وطربا .

الحمد لله .. جت سليمة .. إن المسألة فى غاية السهولة .

وتحرك القطار ، ومرة أخرى بدأ الخوف يداخله .. وساءل نفسه ماذا يكون العمل لو لم يتوقف القطار فى قليوب أيقذف بنفسه منه وهو سائر ؟ أم يعدو إلى السائق ويأمره بالوقوف .. أم يسلم أمره لله ويذهب مع القطار إلى حيث يذهب ؟

على أية حال .. لو قدر الله وحدثت الكارثة ، فإنه لن يغادر القطار حتى يعيده إلى القاهرة .

أجل ! هذه أضمن العواقب ، فإن القطار لا بد عائد .. إن آجلا أو عاجلا ، إلى مقره بالقاهرة .

وأحس بالطمأنينة تعود إلى قلبه ، وبدأ يستعرض فى ذهنه المتع التى يوشك أن

يحصل عليها ، ويتصور نفسه وقد ارتدى الشورت والقبعة وأمسك بالسنارة ، وجلس على شاطئ الترعة يصطاد .. ثم يتصور نفسه وهو راكب صهوة جواد ينطلق به بين الحقول .. يا ليت زكية بائعة الفجل تراه وهو فى هذه « الأملة » .. ولكن هب الحصان قد جمح به فأوقعه فى الترعة .. فمات غرقا .. لا .. لا .. لا داعى للحصان .. إنه يستطيع أن يدعى أنه قد ركبه .. دون أن تكون به من حاجة إلى ركوبه فعلا .

أجل !.. لا داعى هناك لأن يلقى بنفسه إلى التهلكة .. ما دام يستطيع أن يكذب ويبالغ ويؤلف ما شاء من المغامرات والأقاصيص .

ولكن يجب أن يرقب المحطات جيدا .. يجب ألا يترك ذهنه يشرد به فيضيع عليه المحطة .

« قليوب » .. أجل هذه قليوب .. الحمد لله ، إن المسافة قصيرة جدا ، أقصر مما كان يتصور .

وقفز من مقعده وتناول الحقيبة ، واندفع يعدو من القطار إلى رصيف المحطة .

ووجد القليوبى فى انتظاره فأقبل يصافحه فى شوق كأنه لم يره منذ سنين ، وهز رأسه فى إعجاب وتقدير وقال ببساطة « رحلة لطيفة ، مش بطالة » ، ووضع يده فى ذراع صاحبه وهم بالسير ، ولكن صاحبه لم يتحرك ، بل بدا عليه التردد وأخذ يهمهم فى اعتذار ، ثم بدأ يفصح عن همهمته قائلا :

ــ أنا متأسف أوى يا شملول افندى .. لأنى مضطر استأذن منك ، علشان انزل مصر .. لأن اختى بعتت لى اروح لها حالا .. على العموم أنا مش حاغيب عليك يعنى بالكتير قوى حارجع تسعة مساء ، وانت مش غريب ، البيت بيتك ، خد حريتك خالص .. أنا حاوصلك للبيت وأديك المفتاح وارجع علشان الحق القطار النازل على مصر .

وبوغت شملول أفندى من قول صاحبه .. وبدا عليه التردد ، وهم بأن يطلب

منه العودة معه ، إذ وجد المسألة قد أضحت مغامرة فعلا .

ولكن ماذا يقول ؟

يقول إنه يخاف أن يمكث فى البيت وحده ؟

لا .. لا .. يجب أن يكون أشجع من ذلك ، وأثبت جنانا ، ماذا عليه لو بقى وحده حتى يعود صاحبه ؟! ثلاث ساعات ليست بالشيء الكثير .. ثم إنه ليست هناك عفاريت ولا غيلان فى قليوب .

وهكذا سار مع صاحبه ، وبدأ الاثنان يتوغلان فى الممرات الضيقة بين المزارع ويدوران يمنة ويسرة حتى توقفا أخيرا أمام بيت أبيض متواضع أشبه بالمنادر ، وقد ألحق به فناء خلفى وضعت به بعض الأقفاص الفارغة ، وتكعيبة عنب ، وبرج حمام مهجور .

وخذل شملول من منظر البيت ، وكانت الظلمة آخذة فى الانتشار ، والضوء الباهت يتبدد ، والمكان قد لفته وحشة وسكون .

ولم يكن هناك مجال للتردد ، فقد سلمه القليوبى المفتاح فى يده وقال له « البيت بيتك » ، وانطلق يعدو إلى المحطة .

ما شاء الله ، من يستطيع أن يتصور هذا ؟

أهكذا يقف وحده .. وسط تلك القفار الموحشة .. والظلمات المدلهمة ، وهو غريب وحيد ؟

حتى الخادم قد أنبأه صاحبه أنه سيحضر بعد برهة . ولكن من يدرى .. إنه قد لا يحضر ألبتة !

وأحس بخوف شديد ، ولم يجسر على أن يدخل البيت بل أخذ يتجول حوله .

وصمم على أن يبقى خارج البيت حتى يأتى صاحبه ، ولكن تذكر فجأة ، ذلك الغول الذى قرأ عنه فى الصحف والذى يخرج من المزارع ويهجم على الفلاحين يوسعهم عضا ونهشا فأصابته رجفة ، وتخلخلت ساقاه واندفع إلى باب البيت ففتحه وتسلل إلى الداخل .. وأغلق الباب خلفه بشدة .

ورمى الحقيبة من يده ، وأقبل على مصباح الغاز المعلق فى الحائط فرفع الشريط ، وارتمى على أقرب مقعد يرتجف من الخوف .

كيف غاب عنه هذا الخطر الداهم ؟ لو لم يتذكره لظهرت الجرائد صباحا .. ولا شغل لها سوى .. « قتيل قليوب » .

ثم أخذ يسطر فى مخيلته نبأ الحادث .

« .. خروج وحش قليوب .. وفتكه بأحد موظفى وزارة المالية .. بينما كان الأستاذ جمعة عبد الجواد شملول يقضى عطلة نهاية الأسبوع فى عزبة صديقه الأستاذ على القليوبى .. خرج يتجول ممتطيا صهوة جواده (هذا أهم ما فى الأمر .. حتى تعرف زكية أنه كان يركب جوادا) » .

وهنا شرد ذهنه فترك مسألة وحش قليوب وانطلق إلى زكية .. ترى ماذا ستفعل عندما يبلغها نبأ موته .. أتراها ستبكى ؟ لقد كانت جلستها بالأمس هائلة ، وقد تعرى باطن فخذها .. إنها لا شك تقصد أن تغريه ، ولكن ماذا يستطيع أن يفعل هو .. هل يغمز لها بعينيه ؟

وفجأة وصلت إلى أذنيه طرقة شديدة .. كأنها صوت سقوط جسم ثقيل ، فقفز من مقعده ، وأخذ يدور حول نفسه ، وهو يلهث ويردد مرتجفا « بسم الله الرحمن الرحيم » هذه ليلة يعلم بها ربنا .

ولم يعد هناك مجال لأفخاذ زكية ، فقد احتشد فى ذهنه كل ما يمكن من التصورات عن حقيقة مصدر الصوت .

هل هو الوحش ؟

من يدرى !

وتذكر قصة بوليسية كان قد قرأها فى روايات الجيب .. وتذكر كيف جلس بطل القصة فى كوخ موحش منعزل وكيف كانت الريح تصفر من حوله ، ثم سمع وقع أقدام تقترب من الباب ، ثم صوت أنفاس تتردد لاهثة فى خوف وصوت شىء ثقيل يصطدم بالباب ، ثم سمع وقع الأقدام تبتعد هاربة .. فأخذ يقترب من

الباب فى خوف فلم يسمع شيئا .. ففتحه فى رفق وحذر .. فإذا بجسد قتيل يهوى عليه .

ترى ماذا يفعل هو لو حدث له مثل هذا الأمر وما ذلك على هذه الليلة ببعيد ؟

وعاد بذهنه يسطر نبأ الحادث كما سيقرأ بجرائد الصباح :

« موظف يرتكب جريمة قتل فى دياجير الظلام ! » .

أجل ! إنه سيتهم بالقتل ، وهو لا يكاد يقوى على قتل دجاجة .. وكيف يستطيع أن يثبت أنه غير قاتل .. والجثة ملقاة فى فناء البيت ، ولا يوجد فى البيت سواه .

وأخذ قلبه يدق فى عنف .

لا بد له من أن يغادر الدار ، حالا .

ولكن كيف يستطيع أن يخرج ؟ أيجسر على الخروج من الباب ؟

وإذا سقطت عليه جثة القتيل ؟ ماذا تراه فاعلا ؟

لا .. لا .

يجب أن يخرج من النافذة .

هذا هو خير طريق للنجاة .

وتلفت حوله ، فوجد أمامه نافذة زجاجية .. وأسرع فحمل المصباح فى يده وأخذ فى الاقتراب منها .

وفجأة ندت عنه صرخة مدوية .

هذا هو !! معلق فى النافذة .

القتيل بعينه .. أو ربما القاتل .

أجل .. أجل .. لا بد أن يكون أحدهما .

وإلا فمن يكون هذا الذى تدلى ساقا بنطلونه وأخذتا تتأرجحان وراء زجاج النافذة .

والآن .. ما العمل ؟.

إنه ضائع ضائع .. فهو إما أن يكون قاتلا أو قتيلا .
إذا كانت ساقا البنطلون المتدليتان ساق القتيل فهو لا بد أن يكون قاتلا ، وإذا كانتا ساق القاتل .. عليه العوض .
لقد انتهى .
الله يرحمك يا شملول .. ليتك سمعت كلام أمك وقنعت بقهوة الانشراح .
وفجأة سمع طرقا على الباب .
انتهى !! لقد وضح الأمر .. لا شك أنه القاتل .. وتهاوى على المقعد فى شبه إغماء .

وعاد الطرق يزداد فى إلحاح .. فأجاب فى صوت مختنق مكبوت :
— مين ؟
ومن وراء الباب سمع صوتا نسائيا يقول :
— افتح يا على افندى .
من ؟!! امرأة ؟.. وماذا أتى بها فى هذا الوقت الحافل بالأحداث ؟! أتراها هى القاتلة ؟
وتذكر رية وسكينة ، ونهض من مقعده وأخذ يقترب من الباب على أطراف قدميه .. ثم وقف وراء الباب وأخذ يتساءل فى صوت مرتجف :
— مين ؟. انت مين ؟
— أنا سكينة ؟
سكينة؟!! أجل .. هى بعينها .
وعاد يسأل فى رعب :
— انت لوحدك .. والا معاك رية ؟
— رية مين يا سيدى ؟.. سلامة عقلك .
— أنا سكينة خدامة اختك بهية .
— أختى أنا .. أنا ماليآش أخت .

— يوه .. مالكش أخت إزاى ؟

— انت عايزة مين ؟

— عايزة على افندى القليوبى .

— خرج .

— أمال انت مين ؟

— واحد صاحبه .

— طيب افتح .

— مافتحشى .

— يا سيدى افتح .. الواد على دراعى ياخد برد .

— واد مين ؟

— ابن اختك .. قصدى ابن اخت على افندى .

— مافتحشى أبدا .. إلا لما اتأكد من أخينا اللى متشعلق على الشباك اللى جنبك .

— بسم الله الرحمن الرحيم ، متشعلق على الشباك اللى جنبى ؟ أنا مش شايفة حاجة ؟

— أنا شايفه .. قربى شوية من الشباك وانت تشوفى ، هيه ، شوفت ؟. لقيت إيه ؟.

— يوه يا سيدى خضتني وكركبت بطنى ، ده بنطلون سى على منشور .

وهكذا اطمأن قلبه ، فأقبل على الباب يفتحه ، ووجد الخادمة تحمل ابن أخت صاحبه .

ودخلت الفتاة فوضعت الطفل على إحدى الأرائك ، ثم سألته :

— أمال فين على أفندى ؟

— سافر مصر .

— يعمل إيه ؟

ـــ أخته طلبته فى حاجة ضرورى .

ـــ أخته ؟! وأنت هنا بتعمل إيه ؟

ـــ بتفسح .. بقضى ليلة أنس وطرب .. اتفضلى . وانتى إيه اللى جابك هنا أنت والولد ؟

ـــ أصل الجماعة جايين يقضوا الليلة هنا ، علشان يتفسحوا بكره فى المزارع . عن إذنك يا سيدى . أنا رايحة المحطة أجيب الشنط .. خد بالك م الواد .

ـــ تعالى هنا ، واد إيه اللى آخد بالى منه ؟ أنا معرفش فى الولاد أبدا ، تعالى أنا فى عرضك .

ولكن سكينة انطلقت من الباب ، ومرة أخرى وجد نفسه وحيدا فى البيت ، لا يؤنس وحشته .. سوى الطفل الراقد ..

ما شاء الله .. أما ليلة !

وارتمى مرة أخرى فى مقعده ، وهو يرمق الطفل بنظرة شك وخوف .

لا بأس عليك .. المسألة لن تزيد على خمس دقائق تحضر بعدها سكينة والقافلة كلها ، ويستطيع هو أن يعود إلى داره آمنا مطمئنا .

ولكن الخمس دقائق مرت .. دون أن يحضر أحد ..

ومرت بعدها ساعة ونصف ساعة ، وهو جالس يحملق فى الطفل وبدأ الطفل يتقلب على جنبيه ثم فتح عينيه وأخذ يرمق شملول أفندى ، ثم انطلق فى نوبة بكاء وصراخ .

بس .. بس .. هوه .. هوه .

وهكذا أراد أن يهدئ الطفل عبثا .

لا .. إن الأمر لا يحتمل ، يجب أن يخرج ليرى أين ذهبت الخادمة اللعينة .

وفتح الباب وأخذ يتحسس طريقه فى الفناء .. ولكنه أحسَّ بقدمه تصطدم بجسد لين .

آه .. إنها جثة .. هذه المرة لا شك فيها .. إنه القتيل . الذى سمع صوت سقوط جثته منذ ساعتين .

واندفع يعدو إلى داخل الدار وأغلق الباب بشدة وارتمى على المقعد لاهثا .

والآن ماذا يفعل ؟ إنه لا يستطيع الخروج . أبدا !

هذا القتيل يجب أن ينتظر إلى الصباح حتى يكتشفوا أمره وليصرخ الطفل كما يشاء !

وأغمض عينيه ودفن وجهه فى كفيه .

ومرة ثانية سمع طرقا على الباب .

من ؟! من يكون هذه المرة ؟

سكينة !!

ربما ...

وبصوته المرتجف صاح من وراء الباب :

ــ مين ؟

فأجابه صوت أجش عميق :

ــ أنا .. افتح .

وانكمش فى مقعده ، وعلا صراخ الطفل ، وبدا كأن صاحب الطرقات قد يئس .. فانصرف عن الباب .

الحمد لله .

ولكنه لم يغب طويلا .. حتى عاد الطارق ومعه بضعة رجال ، وازداد الطرق شدة .

وصاح شملول بصوت مرتجف :

ــ مين ؟

ــ افتح بقول لك .. أنا محمود الغفير .

وفتح الباب فإذا به أمام الخفير ورجلين من رجال الشرطة ، وصاح محمود

الغفير موضحا للعسكريين :

ــ أنا كنت راقد هنا لقيت واحد خبطنى بالرجل فى ضهرى ، على بال ما فتحت عينى لقيته جرى استخبى فى البيت وقفل الباب عليه ؟

وصاح أحد العسكريين بشملول :

ــ بتعمل إيه هنا ؟

ــ بتفسح .

ــ بتتفسح ؟. لوحدك .. كده ! مفيش حد معاك ؟

ــ أيوه . لوحدى كده . مامعييش غير الولد الصغير ده .

ــ ودا يبقى مين ؟

ــ والله مااعرفش .. اسألوا سكينة .

ــ سكينة ؟! هوا أنت ؟!!

وأطبق العسكريان على رقبته وساقاه أمامهما كأنهما قد عثرا على مجرم طال البحث عنه .

وصاح به أحدهما وهو يدفعه إلى الأمام :

ــ أمال فين الفلوس ؟

ــ فلوس إيه ؟

ــ الفلوس اللى سرقتها البت ، يا ضلالى يا نصاب ، تغوى البت وتخليها تاخد الواد والصيغة وتهرب من اسيادها .. دانا حاخلى ليلتك سوده .

ــ أسود من كده ؟

وسار شملول أمام العسكريين حتى وصلا إلى المركز .

وهناك علم أن سكينة قد هربت وهى تنزه الطفل من بيت أخت على القليوبى وسرقت بعض المصوغات (أو هكذا اتهمت) وأنها لم تجد طريقة للتخلص من الطفل غير تركه فى بيت خاله على القليوبى مدعية أن سيدتها ستأتى فى أعقابها ، ثم تفر كما فرت .

وجلس شملول فى المركز والأومباشى ينظر إليه بين آن وآخر ويسأله متهكما :

— والبت مستنياك ، والا زاغت منك ؟ آه يا فلاتى .. يا نصاب .

ولم يجب عليه شملول فقد كان مشغولا بترتيب ما سوف تنشره صحف الصباح !:

« موظف محترم يغوى خادمة ! » .

أو « اغتصاب وسرقة واختطاف ؟ » .

« حدث فى منتصف ليلة أمس أن ضبط أحد موظفى وزارة المالية يحمل مسروقات تقدر بعشرة آلاف جنيه ، وهو يحمل فتاة وطفلا » (هل يستطيع أن يحمل الفتاة والطفل ؟ يستطيع أو لا يستطيع هذا هو الذى سيقال) .

وشرد ذهنه فى سكينة .. وتصور نفسه يحملها .. ويلف ذراعه حول خصرها ويضع كفه تحت إبطها ويلمس صدرها . وهكذا خرج من الموضوع وبدأ يقارن بين سكينة وزكية .. لا . لا . إن زكية أحسن كثيرا ، إن بطن فخذها أكثر امتلاء ، ولكن كيف يحكم ، وهو لم ير فخذ سكينة ؟.

وأحس بيد الأومباشى تجره من عنقه وتسوقه إلى الزنزانة .

ودخل شملول الزنزانة .. فأحس بالاطمئنان لأول مرة فى الليلة .. إنها على الأقل تعنى خاتمة المطاف ، وهو يستطيع أن يرقد آمنا بين جدرانها الأربعة .

وفى الصباح استيقظ على صوت صديقه على القليوبى يوقظه ، ويعتذر إليه عن كل ما حدث وينبئه أنهم قد قبضوا على سكينة .. ويختم اعتذاره قائلا :

— ياللا بينا بقى يا عم نتشطف ونفطر ونطلع نصطاد .

— لا يا عم .. حد الله بينى وبينك ، ورينى سكة المحطة يا خويا .. توبة ان سبت الناصرية وحى السيدة .. هوا فيه أحسن من قهوة الانشراح ؟

للمــؤلف

أطياف	(قصص قصيرة ١٩٤٧)
نائب عزرائيل	(روايـة ..... ١٩٤٧)
اثنتا عشرة امرأة	(قصص قصيرة ١٩٤٨)
خبايا الصدور	(» » ١٩٤٨)
يا أمة ضحكت	(» » ١٩٤٨)
اثنا عشر رجلا	(» » ١٩٤٩)
أرض النفاق	(روايـة ..... ١٩٤٩)
فى موكب الهوى	(قصص قصيرة ١٩٤٩)
من العالم المجهول	(» » ١٩٤٩)
هذه النفوس	(» » ١٩٥٠)
إنى راحلة	(رواية ..... ١٩٥٠)
مبكى العشاق	(قصص قصيرة ١٩٥٠)
بين أبو الريش وجنينة ناميش	(» » ١٩٥١)
أغنيات	(» » ١٩٥١)
أم رتيبة	(مسرحية .... ١٩٥١)
هذا هو الحب	(قصص قصيرة ١٩٥١)
صور طبق الأصل	(» » ١٩٥١)
بين الأطلال	(روايـة ..... ١٩٥٢)
السقا مات	(» » ١٩٥٢)
سمار الليالى	(قصص قصيرة ١٩٥٢)
الشيخ زعرب	(» » ١٩٥٢)
نفحة من الإيمان	(» » ١٩٥٢)
وراء الستار	(مسرحية .... ١٩٥٢)
ست نساء وستة رجال	(قصص قصيرة ١٩٥٣)
هذه الحياة	(» » ١٩٥٣).

البحث عن جسد	(رواية ...... ١٩٥٣)
جمعية قتل الزوجات	(مسرحية .... ١٩٥٣)
فديتك ياليلى	(رواية ...... ١٩٥٣)
ليلة خمر	(قصص قصيرة ١٩٥٣)
همسة عابرة	(» » ١٩٥٣)
رد قلبى	(رواية فى جزأين ١٩٥٤)
ليال ودموع	(قصص قصيرة ١٩٥٥)
طريق العودة	(رواية ...... ١٩٥٦)
أيام تمر	(مقالات .... ١٩٥٧)
من حياتى	(» ...... ١٩٥٨)
لطمات ولثمات	(» ...... ١٩٥٩)
نادية	(رواية فى جزأين ١٩٦٠)
جفت الدموع	(» » » ١٩٦١)
أيام مشرقة	(مقالات .... ١٩٦١)
أيام وذكريات	(» ...... ١٩٦١)
أيام من عمرى	(» ...... ١٩٦٢)
ليل له آخر	(رواية فى جزأين ١٩٦٤)
أقوى من الزمن	(مسرحية .... ١٩٦٦)
نحن لا نزرع الشوك	(رواية فى جزأين ١٩٦٩)
لست وحدك	(رواية ...... ١٩٧٠)
من وراء الغيم	(مقالات .... ١٩٧٠)
أيام عبد الناصر	(» ...... ١٩٧١)
ابتسامة على شفتيه	(رواية ...... ١٩٧١)
طائر بين المحيطين	(رحلات .... ١٩٧١)
العمر لحظة	(قصة .... ١٩٧٣)

رقم الإيداع : ٨٧/٢١٣٦

الترقيم الدولى : ٤ – ٠٢٨٣ – ١١–٩٧٧



مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

الثمن ٤٥٠ قرشا